قَصَصُ الرَّحْمٰن
في
ظِلَالِ القُرْآن

أحمد فائز الحمصي

مؤسسة الرسالة

قصص الرحمن
في
ظلال القرآن

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

الجزء الثاني

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

قصـــة ابراهيــم عليــه السلام وبنيِه

- القسم الأول: إبراهيم عليه السلام
- القسم الثاني : قصة لوط عليه السلام
- القسم الثالث: قصة إسماعيل عليه السلام
- القسم الرابع : قصة يوسف عليه السلام
- القسم الخامس: قصة شُعيب عليه السلام

قصة إبراهيم عليه السلام

المحتوى	ص

الحلقة الأولى	٩
تقديم	
ـ الرحلة الشائقة في فطرة إبراهيم الصادقة	١٥
ـ برّ وودّ ورحمة	٢٣
ـ مَثَل وَتَجربة	٣٠
ـ تجربة وعَقيدة وتربية	٣٥
ـ آية للناس	٤١
ـ الشوق الروحي	٤٦
ـ دعوة إبراهيم إلى العقيدة المستقيمة الناصعة	٥٠
ـ عَزْم وحسم	٥٨
ـ المحاكمة والكيد الضعيف	٦٤
الحلقة الثانية	٧١
ـ الهجرة إلى الله	٧١
ـ حقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم	٧٥
ـ بشرى ورحمة واطمئنان	٨٢
ـ المقام العظيم وإمام الصراط المستقيم	٩٢
ـ حجج واهية ودعاوى ساقطة	١٠٥

- أمة التوحيد وقافلة الإيمان ١١٥
- معالم في رحلة الإيمان والتوحيد. ١٢٣
- الإعجاز الرائع ١٢٩
- إبراهيم وأبوه يوم القيامة ١٣٧

إبراهيم عليه السَّلام

الحلقة الأُولىٰ:

ذكر القرآن قصة إبراهيم في سور متعددة.. وهي درس بطوله لحمة واحدة، يتناول موضوعاً متصل الفقرات.. إنَّه يعالج الموضوع الأساسي في القرآن ـ وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وما بينهما من ارتباطات ـ. يعالجه في أسلوب القصص والتعقيب عليه.

وقصة إبراهيم لا تُعرض من أولها منذ الحلقة الأُولىٰ، حلقة ميلاد إبراهيم؛ ولكن تُعرض منها حلقات شتّىٰ: حلقة إيمانه، ومحاورته لأبيه وقومه، وتحطيم الأصنام، واعتزاله أباه وقومه. وهبة إسماعيل وإسحاق له، ورؤياه أنَّه يذبح ابنه وافتداؤه. وبناء الكعبة، والتأذين في الناس للحج. وطلبه من ربه برهاناً على إحياء الموتىٰ، لا ليؤمن فقد آمن، ولكن ليطمئن قلبه، حيث أمره الله أن يأخذ أربعة من الطير، فيضمهنَّ إليه، ثمَّ يجعل على كل جبل منهنَّ جزءاً، ثمَّ يدعوهنَّ فيأتين إليه سعياً.. إلخ.

وفي هذه القصة تحقيق لأغراض دينية تناولتها في عرض شيق ورائع منها: إثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله، وتوحد الأديان في ملة إبراهيم ملة التوحيد، ومظاهر القدرة الإلـهية، والشكر، وبيان أنَّ الله ينصر أنبياءه ورسله في النهاية.. كما تتجلّىٰ في القصة الرحمة التي يبديها القرآن

في بيان نعمة الله على إبراهيم وآل بيته ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنَّه حميد مجيد﴾ [هود: ٧٣]. .

وفي القصة تأكيد على قدرة الله على الخوارق ومشيئته الطليقة. . ﴿يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩]. . ثمَّ مشهد الطير الذي آب إلى إبراهيم بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً. .

إلى آخر الأغراض الدينية، التي سيقت القصة العظيمة لتفي بمغزاها. وقد عرضت بالقدر الذي يكفي لأداء هذه الأغراض، ومن الحلقة التي تتفق لأداء الغرض والعبرة. . وأخذت القصة مكانها في سلسلة القصص القرآني. . .

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في البقرة، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج. . وكانت في كل سورة مناسبة لسياقها العام. وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوّها وظلها.

عرضت في سورة البقرة حلقة بنائه للبيت هو وإسماعيل، ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمناً، وإعلانه أنَّ وراثة البيت ووراثة بانيه إنَّما هي للمسلمين، الذين يتبعون ملته، لا لمن يدَّعون بالنسب وراثته. وكان هذا بصدد مخالفات بني إسرائيل، وطردهم ولعنهم، وتوريث دين إبراهيم وبيته للمسلمين. .

وعرضت كذلك حلقة محاجته للملك الكافر في صفة الله الذي يحيي ويميت، والذي يأتي بالشمس من المشرق، وتحدِّيه للملك أن يأتي بها من المغرب. فبهت الذي كفر.

كما عرضت حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ، وأمره بذبح أربعة من الطير، وتوزيع أشلائهنَّ على الجبال، ثمَّ إحياؤها بين يديه، فجاءت تسعىٰ إليه.

وهذا وذلك في معرض الحديث في السورة، عن آيات الله وقدرته على الإماتة والإحياء.

وعرضت في الأنعام حلقة بحثه عن ربه، واهتدائه إليه، بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس، وتتبع مشاهد الكون. وكان ذلك في السورة التي تدور حول العقيدة، وآيات الله في الكون، ودلالتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له.

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيره بإسحاق، وكان ذلك في سياق قصة لوط، ومرور الملائكة المكلفين تدمير قريته في طريقهم بإبراهيم. وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من عباده وتدمير الفاسقين.

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت المحرم لمن أسكنه من ذريته بواد غير زرع؛ وحمده على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق؛ وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته، وأن يقبل دعاءه، ويغفر له ولوالديه يوم يقوم الحساب. .

وكان سياق السورة كله هو عرض أُمَّة الرسل، برسالة واحدة، هي التوحيد؛ وعرض المكذبين بأُمَّة الرسل صفاً واحداً كذلك؛ وكأنّما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود!

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل، في ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين، وعذابه للعُصاة المذنبين.

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه، وغلظة أبيه عليه، واعتزاله لأبيه وقومه، وهبة إسماعيل وإسحاق له. وذلك في السورة التي تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده. وجوّها كله تظلله الرحمة والود واللين.

وعرضت في سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه، وزرايته على

أصنامهم. وتحطيم هذه الأصنام، وإلقائه في النار التي كانت برداً وسلاماً عليه بأمر الله، ونجاته هو وابن أخيه لوط إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. وذلك في صدد استعراض أمَّة الرسل، ورعاية الله لهذه الأمَّة واتجاهها إلى عبادة الله الواحد الذي ليس له شريك.

ووردت في سورة الحج إشارة إلى أمر بتطهير البيت للطائفين والعاكفين..

وفي سورة الصافَّات تجيء قصة إبراهيم بعد قصة نوح: **﴿وإنَّ من شيعته لإبراهيم..﴾**..

هذا هو افتتاح القصة، والمشهد الأول فيها. نقلة من نوح إلى إبراهيم.. وبينهما صلة العقيدة والدعوة والطريق. فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين؛ ولكنَّه المنهج الإلـهي الواحد، الذي يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه.. **﴿وإنَّ من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربّه بقلب سليم﴾** [الصافَّات: ٨٣، ٨٤]..

ويبرز السياق القرآني من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير.. **﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾**..

وهي صورة الاستسلام الخالص تتمثل في مجيئه لربه. وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه. والتعبير بالسلامة تعبير موحٍ مصور لمدلوله، وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنىٰ واضح المفهوم. ومع أنَّه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة، والإخلاص والاستقامة.. إلاَّ أنَّه يبدو بسيطاً غير معقد، ويؤدي معناه بأوسع ما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات! وتلك إحدىٰ بدائع التعبير القرآني الفريد!

وبسلامة القلب كان دعاء إبراهيم أن يلقىٰ الله في اليوم الرهيب العظيم: **﴿ولا تُخزني يوم يبعثون، يوم لا يَنفع مال ولا بنون، إلاَّ من أتىٰ الله بقلب سليم﴾** [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]..

وُلِدَ إبراهيم وترعرع في بابل في دولة لها حضارة واسعة، ارتقت معرفتها حتى تعرفت على شيء من علم النجوم والكواكب. وكان أهل بابل في عيش رغيد ونعيم مقيم، وفي رفاهية وترف، لكن عقائدهم قد زاغت فكان يشوبها الجهل والانحراف، وقد ورثوا عن آبائهم الخرافة والوثنية والكفر والفساد، فقدسوا الأصنام وجعلوها أرباباً يعبدونها من دون الله . .

في وسط هذه البيئة المترفة الفاسدة نشأ إبراهيم، لكنه ظلَّ على فطرته الطاهرة النقية، وجبلته النبيلة. فلم تدنس عقيدته شوائب الشرك، ولم يختلط فكره السليم بشيء من الباطل الذي يغوص فيه قومه . .

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزَرَ: أَتَّتخذ أصناماً آلهةً؟ إنِّي أراكَ وقومك في ضلال مبين﴾ [الأنعام: ٧٤] . .

إنَّها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم. إنَّه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه ـ إلى إلـهه ـ ولكن فطرته السليمة تُنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة ـ وقوم إبراهيم من الكلدانيين بالعراق كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ـ فالإلـه الذي يُعبد، والذي يتوجه إليه العباد في السراء والضراء، والذي خلق الناس والأحياء . .

هذا الإلـه في فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنماً من حجر، أو وثناً من خشب . . وإذا لم تكن هـذه الأصنام هي التي تخلق وترزق وتسمع وتستجيب ـ وهذا ظاهر من حالها للعيان ـ فما هي بالتي تستحق أن تعبد؛ وما هي بالتي تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإلـه الحق والعباد!

وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ للوهلة الأُولىٰ. وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها . . ثمَّ هي النموذج الكامل للفطرة وهي تواجه الضلال البين، فتنكره وتستنكره، وتجهر بكلمة الحق وتصدع، حينما يكون الأمر هو أمر العقيدة: **﴿أتتَّخذ أصناماً**

آلهة؟ إنِّي أراك وقومك في ضلال مبين﴾ . .

كلمة يقولها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لأبيه. وهو الأوَّاه الحليم الرضي الخلق السمح اللين، كما ترد أوصافه في القرآن الكريم. ولكنها العقيدة هنا. والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة، وفوق مشاعر الحلم والسماحة. وإبراهيم هو القدوة التي أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها. والقصة تُعرض لتكون أسوة ومثالاً . .

ثمَّ آتاه الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الرشد، وهداه إلى الحق، فعرف أنَّ للكون رباً واحداً هو المهيمن عليه، وهو القاهر فوق عباده . . **﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَه من قبل، وكُنَّا به عالمين﴾** [الأنبياء: ٥١] . .

تبدأ قصة إبراهيم فتىً قد أنار الله قلبه بالحق فأشرقت روحه بالحقيقة وأضاءت فطرته بالبيِّنة الواضحة . . ها هو ذا الفتىٰ يُقلِّب وجهه في الكون في سكون الليل، وقد ارتسمت لعينيه لوحة الخالق المبدع في السماء الطويلة العريضة . . كان إبراهيم يتملّىٰ هذا الوجود المشهود . . يتملّىٰ هذا الكتاب الإلـٰهي المنظور . . يسأل نفسه كيف يعيش الناس في المستنقع الجاهلي الآسن من تعفن في العقيدة، ومن سخف في التصور وهم يعبدون أصنام لا تضرّ ولا تنفع . . كان ينظر إليهم من عُلو الحقيقة إلى جاهليتهم الفاسدة التي تموج حياتهم فيها .

لقد كان الفتى يعجب من عقائد قومه الهزيلة . . يعجب في أعماق كيانه . . ما بال الناس؟ ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة من الجاهلية المنتكسة؟!

لقد عاش الفتىٰ إبراهيم بقلب سليم ونور وضيء، يتحسس هذا الكون . . ينظر إلى آثار هذا الخالق المبدع . . ينظر بعين الحق إلى الحق فإذا هو هادىء النفس، مطمئن السريرة، قرير العين . . لقد رأىٰ يد الله في كل أمر في هذا الوجود، فعاش في كنف الله ورعايته، وعرف أنَّ الله هو

الحق المبين وأنَّ ما دونه هو الباطل والضلال والضياع . .

نظر إلى الكون بفطرته الناصعة الطاهرة فرأىٰ قدرة الله في كل شيء حياة نابضة خافقة، تنطوي على ذلك السرّ الإلـهي المعجز . . رأىٰ دلالة اليقين كامنة في كل ذرة في هذا الوجود، فهي تنطق وتُسَبِّح بحمد خالقها العظيم . . وأمام هذا التصور الشامل لرؤية الفتىٰ، فقد اهتزت في كيانه جميع الصور الواهنة والانطباعات الهامدة لعقيدة قومه الضالين المنحرفين، فهم في جاهليتهم يفرقون وفي غيِّهم وسدرهم يعمهون، وقد انطمست فطرتهم وعميت قلوبهم عن رؤية الحقيقة الصارخة في هذا الوجود . .

وبدأت رحلة إبراهيم في دعوة قومه يَطرق قلوبهم بطرقات متوالية . طَرقات عنيفة قوية عالية . وهزّات . . هزات لفطرتهم الفارقة في انحراف عميق! وفساد ثقيل! كانوا سكارىٰ مخمورين ثقل حسهم الترف، فهم في سامر الحياة راقصين في ضجة وتصدية ومكاء!

ومع الطَرقات على القلوب، كانت البينات القوية تهزُّ المخمورين السادرين هزّاً عنيفاً . . وهم ما يكادون يفتحون أعينهم وينظرون إلى الحقيقة . . حتى يعودوا إلى الانحراف والفساد في إصرار وعناد . .

الرحلة الشائقة في فطرة إبراهيم الصادقة :

وقد استحقَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ بسلامة قلبه، وصفاء فطرته، وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون، والدلائل الموحية بالهدىٰ في الوجود:

﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السَّماوات والأرض، وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام: ٧٥] . .

بمثل هذه الفطرة السليمة، وهذه البصيرة المفتوحة؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق، ومن إنكار الباطل في قوة . . نُري إبراهيم حقيقة هذا

الملك.. ملك السَّماوات والأرض.. ونطلعه على الأسرار المكنـونة في صميم الكون، ونكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدىٰ في هذا الكون العجيب. لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة، إلى درجة اليقين الواعي بالإلـه الحق..

وهذا هو طريق الفطرة البديهي العميق.. وعي لا يطمسه الركـام. وبصر يلحظ ما في الكون من عجائب صنع الله. وتدبر يتبع المشاهد حتى تنطق له بسرِّها المكنون.. وهداية من الله جزاء على الجهاد فيه..

وكذلك سار إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وفي هـذا الطريق وجـد الله.. وجده في إدراكه ووعيه، بعد أن كان يجده فحسب في فطرته وضميره.. ووجد حقيقة الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكنَّ منها في الفطرة والضمير.

فلنتابع الرحلة الشائقة مع فطرة إبراهيم الصادقة.. إنَّها رحلة هائلة وإن كانت تبدو هينة ميسرة! رحلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الواعي! الإيمان الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائـع؛ والذي لا يكل الله ـ سبحانه ـ جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها، فيبينه لهم في رسالات الرسل، ويجعل الرسالة ـ لا الفطرة ولا العقل البشري ـ هي حجته عليهم، وهي مناط الحساب والجزاء، عدلاً منـه ورحمة، وخبـرة بحقيقة الإنسان وعلماً..

فـأمَّا إبـراهيم ـ عليه السَّـلام ـ فهو إبـراهيم! خليل الـرَّحمـٰن وأبـو المسلمين..

﴿فلمَّا جنَّ عليه الليل رأىٰ كوكباً. قال: هـٰذا ربِّي، فلمَّا أفل قال: لا أُحبُّ الآفلين﴾ [الأنعام: ٧٦]..

إنَّها صورة لنفس إبراهيم، وقد ساورها الشك ـ بل الإنكار الجازم ـ لما يعبده أبوه وقومه من الأصنام.

وقد باتت قضية العقيدة هي تشغل باله، وتزحم عالمه.. صورة يزيدها التعبير شخوصاً بقوله: ﴿فلمَّا جنَّ عليه الليل﴾.. كأنَّما الليل يحتويه وحده، وكأنَّما يعزله عن الناس حوله، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته، ومع همّه الجديد الذي يشغل باله ويزحم خاطره: **﴿فلمَّا جنَّ عليه الليل رأىٰ كوكباً، قال: هـٰذا ربِّي﴾..**

وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم ـ كما أسلفنا ـ فلمَّا أن يئس من أن يكون إلـٰهه الحق ـ الذي يجده في فطرته في صورة غير مدركة ولا واعية ـ صنماً من تلك الأصنام، فلعلَّه رجا أن يجده في شيء ممَّا يتوجه إليه قومه بالعبادة!

وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أنَّ قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم. وما كانت هذه أول مرة يرىٰ فيها إبراهيم كوكباً.. ولكن الكوكب ـ الليلة ـ ينطق له بما لم ينطق من قبل، ويوحي إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذي يشغل باله، ويزحم عليه عالمه:

﴿قال: هـٰذا ربِّي﴾.. فهو بنوره وارتفاعه أقرب ـ من الأصنام ـ إلى أن يكون ربّاً!.. ولكن لا! إنَّه يكذب ظنه:

﴿فلمَّا أفل قال: لا أُحبُّ الآفلين﴾..

إنَّه يغيب.. يغيب عن هذه الخلائق. فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها.. إذا كان الرب يغيب؟! لا، إنَّه ليس رباً، فالرب لا يغيب! إنَّه منطق الفطرة البديهي القريب.. لا يستثير القضايا المنطقية والفروض الجدلية، إنَّما ينطلق مباشرة في يسر وجزم. لأنَّ الكينونة البشرية كلها تنطق به في يقين عميق..

﴿لا أُحبُّ الآفلين﴾..

فالصلة بين الفطرة وإلـٰهها هي صلة الحب، والآصرة هي آصرة

القلب.. وفطرة إبراهيم «لا تحب» الآفلين، ولا تتخذ منهم إلـهاً. إنَّ الإلـه الذي تحبه الفطرة.. لا يغيب..!

﴿فلمَّا رأىٰ القمر بازغاً قال: هـٰذا ربِّي. فلمَّا أفل قال: لئن لم يهدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضالِّين﴾ [الأنعام: ٧٧]..

إنَّ التجربة تتكرر. وكأنَّ إبراهيم لم ير القمر قط؛ ولم يعرف أنَّ أهله وقومه يعبدونه! فهو الليلة في نظره جديد:

﴿قال: هـٰذا ربِّي﴾..

بنوره الذي ينسكب في الوجود؛ وتفرده في السماء بنوره الحبيب.. ولكنه يغيب!.. والرب ـ كما يعرفه إبراهيم بفطرته وقلبه ـ لا يغيب! هنا يحسّ إبراهيم أنَّه في حاجة إلى العون من ربه الحق الذي يجده في ضميره وفطرته. ربه الذي يحبه، ولكنه بعد لم يجده في إدراكه ووعيه.. ويحس أنَّه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدايته. إن لم يمد إليه يده. ويكشف له عن طريقه:

﴿قال: لئن لم يهدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضالِّين﴾..

﴿فلمَّا رأىٰ الشمس بازغةً قال: هـٰذا ربِّي. هـٰذا أكبر. فلمَّا أفلت قال: يَـا قوم إنِّي بريءٌ ممَّا تشركون..﴾ [الأنعام: ٧٨]..

إنَّها التجربة الثَّالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءاً وحرارة.. الشمس.. والشمس تطلع كل يوم وتغيب. ولكنها اليوم تبدو لعيني إبراهيم كأنَّها خلق جديد. إنَّه اليوم يرىٰ الأشياء بكيانه المتطلع إلى إلـه يطمئن به ويطمئن إليه، ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل: **﴿قال: هـٰذا ربِّي. هـٰذا أكبر﴾**..

ولكنَّها كذلك تغيب..

هنا يقع التماس، وتنطلق الشرارة، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل

والوعي.. هنا يجد إبراهيم إلـهه.. يجده في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره.. هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطري المكنون والتصور العقلي الواضح..

وهنا يجد إبراهيم إلـهه. ولكنه لا يجده في كوكب يلمع، ولا في قمر يطلع، ولا في شمس تسطع.. ولا يجده فيما تبصر العين، ولا فيما يحسه الحس.. إنه يجده في قلبه وفطرته، وفي عقله ووعيه، وفي الوجود كله من حوله.. إنَّه يجده خالقاً لكل ما تراه العين، ويحسه الحس، وتدركه العقول.

وعندئذٍ يجد في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة؛ ويبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك ـ وهم لم يكونوا يجحدون الله البتّة، ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة ـ وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك:

﴿قال: يَا قوم إنِّي بريءٌ ممَّا تشركون. إنِّي وجهت وجهي للذي فطر السَّماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]..

فهو الاتجاه إلى فاطر السَّماوات والأرض. الاتجاه الحنيف الذي لا ينحرف إلى الشرك. وهي الكلمة الفاصلة، واليقين الجازم، والاتجاه الأخير.. فلا تردد بعد ذلك ولا حيرة فيما تجلّىٰ للعقل من تصور مطابق للحقيقة التي في الضمير..

ومرة أُخرىٰ نشهد ذلك المشهد الرائع الباهر.. مشهد العقيدة وقد استعلنت في النفس، واستولت على القلب، بعدما وضحت وضوحها الكامل وانجلىٰ عنها الغبش.. نشهدها وقد ملأت الكيان الإنساني، فلم يعد وراءها شيء. وقد سكبت فيه الطمأنينة الواثقة بربه الذي وجده في قلبه وعقله وفي الوجود من حوله.. وهو مشهد يتجلّىٰ بكل روعته وبهائه في الآيات التالية في السياق القرآني.

لقد انتهىٰ إبراهيم إلى رؤية الله ـ سبحانه ـ في ضميره وعقله وفي الوجود من حوله. وقد اطمأنَّ قلبه واستراح باله. وقد أحسَّ بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه في الطريق..

والآن يجيء قومه ليجادلوه فيما انتهىٰ إليه من يقين؛ وفيما انشرح له صدره من توحيد؛ وليخوفوه آلهتهم التي تنكَّر لها أن تنزل به سوءاً.. وهو يواجههم في يقينه الجازم؛ وفي إيمانه الراسخ، وفي رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذي هداه: ﴿**وحاجه قومه، قال: أتحاجُّونِّي في الله وقد هدان؟..**﴾ [الأنعام: ٨٠]..

إنَّ الفطرة حين تنحرف تضل؛ ثمَّ تتمادىٰ في ضلالها، وتتسع الزاوية ويبعد الخط عن نقطة الابتداء، حتى ليصعب عليها أن تثوب.. وهؤلاء قوم إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يعبدون أصناماً وكواكب ونجوماً. فلا يتفكرون ولا يتدبرون هذه الرحلة الهائلة التي تمَّت في نفس إبراهيم. ولم يكن هذا داعياً لهم لمجرد التفكر والتدبر. بل جاءوا يجادلونه ويحاجُّونه. وهم على هذا الوهن الظاهر في تصوراتهم وفي ضلال مبين.

ولكن إبراهيم المؤمن الذي وجد الله في قلبه وعقله وفي الوجود كله من حوله، يواجههم مستنكراً في طمأنينة ويقين: ﴿**قال: أتحاجُّوني في الله وقد هدان؟**﴾..

أتجادلونني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي، ويفتح بصيرتي، ويهديني إليه، ويعرفني به.. لقد أخذ بيدي وقادني فهو موجود ـ وهذا هو في نفسي دليل الوجود ـ لقد رأيته في ضميري وفي وعيي، كما رأيته في الكون من حولي. فما جدالكم في أمر أنا أجده في نفسي ولا أطلب عليه الدليل. فهدايته لي إليه هي الدليل؟!

﴿**ولا أخاف ما تشركون به**﴾..

وكيف يخاف ومن وجد الله؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف؟ وكل قوة ـ

غير قوة الله ـ هزيلة وكل سلطان ـ غير سلطان الله ـ لا يُخاف؟!

ولكن إبراهيم في عمق إيمانه، واستسلام وجدانه، لا يريد أن يجزم بشيء إلاَّ مرتكناً إلى مشيئة الله الطليقة، وإلى علم الله الشامل: ﴿إلاَّ أن يشاء ربِّي شيئاً. وسع ربِّي كل شيء علماً﴾.. ﴿أفلا تتذكَّرون﴾ [الأنعام: ٨٠]..

فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته؛ ويعلن أنَّه لا يخاف من آلهتهم شيئاً، لأنَّه يركن إلى حماية الله ورعايته. ويعلم أنَّه لا يصيبه إلاَّ ما شاءه الله، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء..

﴿وكيف أخاف ما أشركتم، ولا تخافون أنَّكم أشركتم بالله ما لم ينزِّل به عليكم سلطاناً؟ فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟﴾ [الأنعام: ٨١]..

إنَّه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود. إنَّه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم ـ وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق ـ وكيف يخاف آلهة عاجزة ـ كائنة ما كانت هذه الآلهة، والتي تتبدىٰ أحياناً في صورة جبارين في الأرض بطاشين؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون! ـ كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة، ولا يخافون هم أنَّهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء؟

وأي الفريقين أحق بالأمن؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة؟ أي الفريقين أحق بالأمن، لو كان لهم شيء من العلم والفهم؟!

هنا ينزل الجواب من الملأ الأعلىٰ؛ ويقضي الله بحكمه في هذه القضية:

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أُولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الأنعام: ٨٢]..

الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله، لا يخلطون بهذا الإيمان شركاً في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه. هؤلاء لهم الأمن، وهؤلاء هم المهتدون. .

﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنَّ ربك حكيم عليم**﴾ [الأنعام: ٨٣]. .

ولقد كانت هـذه هي الحجة التي ألهمهـا الله إبراهيم ليـدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه. ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصـورهم أنَّ هذه الآلهـة تملك أن تسيء إليه. . وواضـح أنَّهم ما كـانوا يجحدون وجود الله؛ ولا أنَّه هو صاحب القوة والسلطان في الكون، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة. فلمَّا واجههم إبراهيم، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه، فأمَّا من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة. . لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها له وألهمه إيَّاها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة. . وهكذا يرفع الله من يشاء درجات. متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه: ﴿**إنَّ ربَّك حكيم عليم**﴾. .

إنَّـه مشهد رائـع بـاهـر هـذا الـذي يـرسمـه القـرآن عن إبـراهيم ـ عليه السَّـلام ـ. . مشهـد الفطرة ـ وهي ـ للوهلة الأولىٰ ـ تنكـر تصـورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرهـا. وهي تنطلق بعـد إذ نفضت عنها هـذه الخـرافة في شـوق عميق دافق تبحث عن إلـهها الحق، الـذي تجده في ضميرها، ولكنهـا لا تـتبينه في وعيهـا وإدراكها. وهي تـتعلق في لهفتهـا المكنونة بكل ما يلوح أنَّه يمكن أن يكون هو هذا الإلـه! حتى إذا اختبرته وجدته زائفاً، ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيهـا من حقيقة الإلـه وصفته. . ثمَّ وهي تجد الحقيقـة تشرق فيهـا وتـتجلىٰ لها. وهي تنـطلق بالفرحة الكبرىٰ، والامتلاء الجياش، بهذه الحقيقة، وهي تعلن في جيشان اللقيا عن يقينها الذي وجدته من مطابقة الحقيقة التي انتهت إليها بوعيهـا للحقيقة التي كانت كامنة من قبل فيها! . .

إنَّه مشهد رائع باهر هذا الذي يتجلَّىٰ في قلب إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ

والسياق يعرض التجربة الكبرىٰ التي اجتازها في هذه الآيات القصار. .

إنَّها قصة الفطرة مع الحق والباطل. وقصة العقيدة كذلك يصدع بها المؤمن ولا يخشىٰ فيها لومة لائم؛ ولا يجامل على حسابها أباً ولا أسرة ولا عشيرة ولا قوماً. . كما وقف إبراهيم من أبيه وقومه هذه الوقفة الصلبة الصريحة. . .

برّ وودّ ورحمة :

كان لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ الحظ الأوفىٰ، والنصيب الأوفر في القرآن الكريم، ولم يكن ذكره في كتاب الله تعالىٰ كذكر الأنبياء السابقين؛ فكان النبي يُذكر من جانب واحد، وهو ما يكون بينه وبين قومه، ولكن إبراهيم ذُكر في كتاب الله من جوانب متعددة، ومناقبه أجلُّ من أن تُعد، ولا عجب أن تَرِدَ الإشارات مبكرة عنه في أوائل السور القرآنية التي نزلت في مكة، فهذه إشارات نجدها في سورة الأعلىٰ وفي سورة النجم، وفي سورة (صٓ) ففي سورة الأعلىٰ: **﴿إنَّ هـٰذا لفي الصحف الأولىٰ صحف إبراهيم وموسىٰ﴾** ولكنَّ سورة النجم تزيد على ذلك **﴿أم لم يُنبأ بما في صحف موسىٰ وإبراهيم الذي وفىٰ﴾** وفي هذه السورة نقرأ صفة لإبراهيم قد امتلأت بالخير العميم **﴿وإبراهيم الذي وفّىٰ﴾**[1]، ثمَّ تأتي سورة (صٓ) وهي التي تحدثت عن بعض الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ فنجد فيها إشارات لإبراهيم وبنيه **﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أُولي الأيدي والأبصار ـ إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرىٰ الدار وإنَّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار واذكر إسماعيل واليَسَع وذا الكفل وكُلٌّ من الأخيار﴾**. . وهنا نقرأ من الصفات

---

(١) «وفّىٰ» مبالغة في الوفاء، أو بمعنىٰ وفر وأتم، وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفيه من ذلك تبليغه الرسالة واستقلاله بأعباء النبوّة، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه، وإنَّه كان يخرج كل يوم يتمشّىٰ فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه، وإلاّ نوىٰ الصوم. . .» الكشاف، ج ٤، ص ٤٢٧.

لإبراهيم أوسع، فهم أولو الأيدي والأبصار وهم المصطفون الأخيار(١).

لقد حمل إبراهيم دعوة التوحيد وواجَهَ بها أباه وقومه، وكان يضع أيديهم على هذه الحقيقة الكبرىٰ، ويتدرج بهم في مسالك الحجة ووسائل الإقناع، واتخذ من المنطق السليم والحكمة معواناً له لبلوغ غايته المرجوة في دعوته.. وما كاد ـ عليه السَّلام ـ يعود من تلك النزهة الروحية في ملكوت السَّماوات والأرض، وقد امتلأ قلبه يقيناً وعلت نفسه بهجة وحبوراً، فمضىٰ إلى أبيه آزر يدعوه إلى الله مالك الملك. يدعوه في لطف وأدب ورحمة.. يدعوه بِرِقَّة الولد وبِرّه بأبيه، وحرصه كل الحرص على أن لا يصيب أباه سوء.. يدعوه إلى هذه العقيدة الراسخة الواضحة التي تتفاعل مع العقل والقلب.. يدعوه في تدرج حكيم كريم..

تَدرَّج إبراهيم مع أبيه في نداءات تمتلىء عطفاً وحناناً، ورحمة وأماناً.. فهو لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفيه معبوداته، أو تحقير آلهته، لئلاَّ ينفر منه، أو يُصِمَّ آذانه عنه، أو يرميه بالعقوق والجحود، بل رتَّب الكلام على أحسن اتِّساق، وخاطبه بالقول اللين، والأدب الجميل، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوّته؛ ليستثير عطفه ويمسَّ شَغَاف قلبه.. خاطبه في أحبّ لفظ وأحياه..

ونمضي مع القرآن الكريم في أدب وخشوع لنسمع حديث الأحاسيس، حديث الأعماق، الحديث الذي يأخذ باللبِّ ويأسر القلب:

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنَّه كان صدِّيقاً نبيّاً﴾ [مريم: ٤١]..

يصف الله إبراهيم بأنَّه كان صدِّيقاً نبيّاً. ولفظة صدِّيق تحتمل معنىٰ أنَّه كثير الصدق وأنَّه كثير التصديق. وكلتاهما تناسب شخصية إبراهيم.

---

(١) القصص القرآني: ١٣٠.

﴿إذ قال لأبيه: يَا أبتِ لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟﴾ [مريم: ٤٢]. .

بهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلّمه إياه؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه: ﴿يا أبتِ﴾ ويسأله ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟﴾. .

والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلىٰ من الإنسان وأعلم وأقوىٰ. وأن يرفعها إلى مقام أسمىٰ من مقام الإنسان وأسنىٰ. فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان، بل إلى ما هو في مرتبة أدنىٰ من مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعاً. إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام.

هذه هي اللمسة الأولىٰ التي يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه. ثمَّ يتبعها بأنَّه لا يقول هذا من نفسه، إنّما هو العلم الذي جاءه من الله فهداه. ولو أنَّه أصغر من أبيه سناً وأقل تجربة، ولكن المدد العلوي جعله يفقه ويعرف الحق؛ فهو ينصح أباه الذي لم يتلقَ هذا العلم، ليتبعه في الطريق الذي هُدي إليه:

﴿يَا أبتِ إنّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ [مريم: ٤٣]. .

فليست هناك غضاضة في أن يتبع الوالد ولده، إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلىٰ. فإنّما يتبع ذلك المصدر، ويسير في الطريق إلى الهدىٰ. وبعد هذا الكشف عمّا في عبادة الأصنام من نكارة، وبيان المصدر الذي يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه في دعوة أبيه. . يبين له أنَّ طريقه هو طريق الشيطان، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرَّحمٰن، فهو يخشىٰ أن يغضب الله عليه فيقضي عليه أن يكون من أتباع الشيطان: ﴿يَا أبتِ لا تعبد

الشَّيطان. إنَّ الشيطان كان للرَّحمـٰن عصيّاً. يَـا أبتِ إنِّي أخاف أن يمسَّك عذاب من الرَّحمـٰن فتكون للشَّيطان وليّاً﴾ [مريم: ٤٤، ٤٥]. . والشَّيطان هو الذي يغري بعبادة الأصنام من دون الله، فالـذي يعبدهـا كأنَّمـا يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرَّحمـٰن.

وإبراهيم يُحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله وليّاً للشيطان وتابعاً. فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة، وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيـطان نقمة. . نقمـة تقوده إلى عـذاب أشد وخسـارة أفدح يـوم يقـوم الحساب.

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسي، فإذا أبو إبـراهيم يقابله بـالاستنكار والتهـديد والـوعيد: ﴿قال: أراغب أنت عن آلهتي يَـا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنَّك. واهجرني مليّاً﴾ [مريم: ٤٦]. .

أراغب أنت عن آلهتي يَـا إبراهيم، وكاره لعبـادتها ومُعـرض عنها؟ أوَبَلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة؟ فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع: ﴿لئن لم تنته لأرجمنَّك﴾! فاغرب عن وجهي وابعـد عني طويـلاً. استبقاء لحيـاتك إن كنت تـريد النجـاة: ﴿واهجرني مليّاً﴾. .

بهذه الجهالة تلقىٰ الرجل الدعوة إلى الهدىٰ. وبهـذه القسوة قـابل القول المؤدب المهذب. وذلك شأن الإيمان مع الكفر؛ وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر.

ولم يغضب إبراهيم الحليم. ولم يفقده بره وعطفه وأدبه مع أبيه: ﴿قال: سلام عليك. سأستغفر لك ربِّي إنَّه كان بي حفيّاً. وأعتزلكم وما تدعـون من دون الله، وأدعو ربِّي عسىٰ ألَّا أكـون بدعـاء ربِّي شقيّاً﴾ [مريم: ٤٧، ٤٨]. .

سلام عليك. . فلا جدال ولا أذىٰ ولا رد للتهديد والوعيد. . سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولي الشيطان، بل يرحمك فيرزقك الهدىٰ. وقد عودني ربي أن يكرمني فيجيب دعائي.

وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلكم، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة. وأدعو ربي وحده، راجياً ـ بسبب دعائي لله ـ ألاَّ يجعلني شقيّاً.

فالذي يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة. . وذلك من الأدب والتحرج الذي يستشعره. فهو لا يرىٰ لنفسه فضلاً. ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة!

ثمَّ نتملّىٰ إبراهيم الأوَّاه المنيب وهو في دعاءٍ رخي مديد، يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع:

﴿ربِّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. . ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥]. .

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض؛ ولا حتى صحة البدن. إنَّه دعاء يتجه إلى آفاق أعلىٰ؛ تحركه مشاعر أصفىٰ. ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه. والذي ذاق فهو يطلب المزيد؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد. **﴿ربِّ هب لي حكماً﴾**. . أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة، فأبقىٰ على الدرب يصلني بما هو أبقىٰ.

﴿وألحقني بالصَّالحين﴾. . يقولها إبراهيم النبي الكريم الأوَّاه الحليم. فيا للتواضع! ويا للتحرج! ويا للإشفاق من التقصير! ويا للخوف من تقلب القلوب! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالحين!

﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾. . دعوة تدفعه إليها الرغبة

في الامتداد، لا بالنسب ولكن بالعقيدة؛ فهو يطلب إلى ربِّه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم. ولعلَّها هي دعوته كما سيأتي في قصة بناء البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثمَّ يقول:

﴿ربَّنا واجعلنا مسلمين لك. ومن ذرِّيتنا أمَّة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنَّك أنت التوَّاب الرَّحيم. ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكِّيهم، إنَّك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٨ ـ ١٢٩]..

وقد استجاب الله له، وحقق دعوته، وجعل له لسان صدق في الآخرين، وبعث فيهم رسولاً منهم[1] يتلو عليهم آياته ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم.. وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين. وهي في عرف الناس أمد طويل، وهي عند الله أجل معلوم، تقتضي حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه.

﴿واجعلني من ورثة جنَّة النعيم﴾ [الشعراء: ٨٥].. وقد دعا ربه ـ من قبل ـ أن يلحقه بالصالحين، بتوفيقه إلى العمل الصالح، الذي يسلكه في صفوفهم. وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون.

﴿واغفر لأبي إنَّه كان من الضالين﴾ [الشعراء: ٨٦].. ذلك على الرغم ممَّا لقيه إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد. ولكنَّه كان قد وعده أن يستغفر له، فوفىٰ بوعده. وقد بيَّن القرآن

---

(١) يقول النبيّ ﷺ: «إنّي عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين، وإنَّ آدم لمجندل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسىٰ، ورؤيا أمي التي رأت أنَّه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترىٰ أمهات النبيّين ـ صلوات الله عليهم ـ». أخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٧، ١٢٨ و ٥/٢٦٢.

فيما بعد أنَّه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أُولي قربىٰ؛ وقرر أنَّ إبراهيم استغفر لأبيه بناءً على موعدة وعدها إيَّاه ﴿فلمَّا تبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله تبرَّأ منه﴾ [التوبة: ١١٤] وعرف أنَّ القرابة ليست قرابة النسب، إنَّما هي قرابة العقيدة.. وهذه إحدىٰ مقومات التربية الإسلامية الصحيحة.

فالرابطة الأُولىٰ هي رابطة العقيدة في الله، ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلَّا على أساسها. فإذا قطعت هذه الصلة انبَتَّت سائر الوشائج؛ وكانت البعدىٰ التي لا تبقىٰ معها صلة ولا وشيجة.

﴿ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلَّا من أتىٰ الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٧، ٨٨]..

ونستشف من قولة إبراهيم - عليه السَّلام -: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾[1] مدى شعوره بهول اليوم الآخر؛ ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره. وهو النَّبي الكريم. كما نستشف من قوله: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتىٰ الله بقلب سليم﴾. مدىٰ إدراكه لحقيقة ذلك اليوم. وإدراكه كذلك لحقيقة القيم. فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلَّا قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله لله، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض. وصفائه من الشهوات

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليأخذنَّ رجلٌ بيد أبيه يوم القيامة يُريد أن يُدخله الجنة، فيناديَ: إنَّ الجنة لا يدخلها مشرك، إنَّ الله قد حرَّم الجنة على كل مشرك، فيقول: أي ربِّ، أي ربِّ.. أبي، قال: فيتحول في صورة قبيحة، وريح مُنتنة، فيتركه».

قال أبو سعيد: كان أصحاب محمَّد ﷺ يرون أنَّه إبراهيم، ولم يزدهم رسول الله ﷺ على ذلك. رواه ابن حبان بإسناد صحيح على شرط البخاري، انظر الإحسان (رقم ٢٥٣)، وورد التصريح بأنَّ الرجل الذي يأخذ بيد أبيه هو إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث أبي هريرة عند البخاري برقم (٣٣٥٠) في أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالىٰ: ﴿واتَّخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، و (٤٧٦٨) و (٤٧٦٩) في التفسير، باب: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾..

والانحرافات. وخلوه من التعلق بغير الله. فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾؛ لا ينفع شيء من هـذه القيم الزائلة الباطلة، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض، وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير!

مَثَل وتجربة :

﴿ألم تر إلى الَّذي حـاجَّ إبراهيم في ربِّـه أن آتاه الله الملك؟..﴾ [البقرة: ٢٥٨]..

ويحكي القرآن حواراً بين إبراهيم ـ عليه السَّـلام ـ وملك في أيامـه يجادله في الله. لا يذكر السياق اسمه، لأنَّ ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التي تمثلها الآية شيئاً.

وهـذا الحوار يُعـرض على النَّبيِّ ﷺ وعلى الجماعـة المسلمـة في أسلوب التعجيب من هذا المجادل، الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه؛ وكـأنَّما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآني العجيب..

إنَّ هذا الملك الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه لم يكن منكراً لوجود الله أصلاً إنَّما كان منكراً لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، كمـا كان بعض المنحـرفين في الجاهليـة يعترفـون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أنداداً ينسبون إليها فاعلية وعملاً في حياتهم! وكذلك كان منكراً أنَّ الحاكمية لله وحده، فلا حكم إلَّا حكمه في شؤون الأرض وشريعة المجتمع.

إنَّ هذا الملك المنكر المتعنِّت[1] إنَّما ينكر ويتعنَّت للسبب الذي كان

---

(١) وقد ورد في الروايات أنَّ هذا الملك الطاغية كان يسمى نمرود. يقول ابن الأثير: «إنَّ النمرود قال لإبراهيم: أرأيت إلـهك الذي تعبده وتدعو لعبادته ما هـو؟ قال: ربِّي الـذي يُحيي ويُميت، قال النمرود: أنا أُحيي وأُميت، قال إبراهيم: وكيف ذلك؟ قال: آخذ رجلين قد =

ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر. هذا السبب هو ﴿أن آتاه الله الملك﴾. وجعل في يده السلطان!

لقد كان ينبغي أن يشكر ويعترف، لولا أنَّ المُلك يُطغي ويبطر من لا يقدرون نعمة الله، ولا يدركون مصدر الإنعام. ومن ثَمَّ يضعون الكفر في موضع الشكر؛ ويضلون بالسبب الذي كان ينبغي أن يكونوا به مهتدين! فهم حاكمون لأنَّ الله حكَّمهم، وهو لم يخوّلهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم. فهم كالناس عبيد لله، يتلقون مثلهم الشريعة من الله، ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أصلاء!

ومن ثَمَّ يعجب الله من أمره وهو يعرضه على نبيه:

﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك؟﴾..

ألم تر؟ إنَّه تعبير التشنيع والتفظيع؛ وإنَّ الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سواء. فالفعلة منكرة حقاً: أن يأتي الحِجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء! وأن يدعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله.

﴿قال إبراهيم: ربِّي الذي يحيي ويميت﴾.

والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان في كل لحظة، المعروضتان لحس الإنسان وعقله. وهما ـ في الوقت نفسه ـ السر الذي يحير، والذي يلجيء الإدراك البشري إلجاءً إلى مصدر آخر غير بشري.. وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق.

ولا بد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنه كل الأحياء.

= استوجبا القتل فأقتل أحدهما فأكون قد أمتّه، وأعفو عن الآخر فأكون قد أحْيَيته، قال إبراهيم: إنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت عند ذلك النمرود».

إنّنا لا نعرف شيئاً عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة. ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات. ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوىٰ التي نعرفها على الإطلاق.. قوة الله..

ومن ثمَّ عرَّف إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ربه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد، قال وهذا الملك يسأله عمَّن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره.. قال: **﴿ربِّي الذي يحيي ويُميت﴾** فهو من ثمَّ الذي يحكم ويشرع.

وما كان إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهو رسول موهوب تلك الموهبة اللدنية التي أشرنا إليها ـ ليعني من الإحياء والإماتة إلاَّ إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاءً. فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

ولكن الذي حاجَّ إبراهيم في ربه رأىٰ في كونه حاكماً لقومه وقادراً على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهراً من مظاهر الربوبية. فقال لإبراهيم: أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له، وتسلم بحاكميته: **﴿قال: أنا أُحيي وأُميت﴾**!

عند ذلك لم يرد إبراهيم ـ عليه السَّلام ؛ أن يسترسل في جدل حول معنىٰ الإحياء والإماتة مع رجل يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة. حقيقة منح الحياة وسلبها.

هذا السر الذي لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئاً..

وعندئذٍ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية، إلى سنة ظاهرة مرئية؛ وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلـٰهية في قوله: **﴿ربِّي الذي يُحيي ويُميت﴾**.. إلى طريقة التحدي، وطلب سنة الله لمن

ينكر ويتعنت ويجادل في الله، ليريه أنَّ الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض، إنَّما هو مصرف هذا الكون كله. ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم:

﴿قال: إنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾..

وهي حقيقة كونية مكرورة كذلك؛ تطالع الأنظار والمدارك كل يوم؛ ولا تتخلف مرة ولا تتأخر. وهي شاهد يخاطب الفطرة ـ حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئاً عن تركيب هذا الكون، ولم يتعلم شيئاً من حقائق الفلك ونظرياته ـ والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشري في أية مرحلة من مراحل نموه العقلي والثقافي والاجتماعي، لتأخذ بيده من الموضع الذي هو فيه. ومن ثمَّ كان هذا التحدي الذي يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع الذي لا يقبل الجدل:

﴿فَبُهت الذي كفر﴾..

فالتحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم، أو الجدال والمراء.. وكان التسليم أولىٰ والإيمان أجدر. ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر، فيبهت ويبلس ويتحير. ولا يهديه الله إلى الحق لأنَّه لم يتلمس الهداية، ولم يرغب في الحق؛ ولم يلتزم القصد والعدل:

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [البقرة: ٢٥٨]..

ويمضي هذا الجدل الذي عرضه الله على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة. مثلاً للضلال والعناد؛ وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين؛ وفي ترويض النفوس على تعنت المنكرين.

إنَّ تلك الحقائق تؤلف قاعدة التصور الإيماني الناصع: **﴿ربِّي الذي يُحيي ويميت﴾.. ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب!﴾..**

حقيقة في الأنفس وحقيقة في الآفاق. حقيقتان كونيتان هائلتان؛

وهما ـ مع ذلك ـ مكرورتان معروضتان للبصائر والأبصار آناء الليل وأطراف النهار. لا تحتاجان إلى علم غزير، ولا إلى تفكير طويل.

فالله أرحم بعباده أن يكلهم في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه، إلى العلم الذي قد يتأخر وقد يتعثر، وإلى التفكير الذي قد لا يتهيأ للبدائيين. إنّما يكلهم في هذا الأمر الحيوي الذي لا تستغني عنه فطرتهم، ولا تستقيم بدونه حياتهم، ولا ينتظم مع فقدانه مجتمعهم.. ولا يعرف الناس بدونه من أين يتلقون شريعتهم وقيمهم وآدابهم.. يكلهم في هذا الأمر إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع، والتي تفرض نفسها فرضاً على الفطرة، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملجىء إلاّ بعسر ومشقة ومحاولة ومحال وتعنّت وعناد!

والشأن في مسألة الاعتقاد هو الشأن في كل أمر حيوي تتوقف عليه حياة الكائن البشري. فالكائن الحي يبحث عن الطعام والشراب والهواء ـ كما يبحث عن التناسل والتكاثر ـ بحثاً فطرياً، ولا يترك الأمر في هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج، أو حتى ينمو العلم ويغزر.. وإلاّ تعرضت حياة الكائن الحي إلى الدمار والبوار.. والإيمان حيوي للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواء بسواء.. ومن ثمّ يكله الله فيه إلى تلاقي الفطرة بآياته المبثوثة في صفحات الكون كله في الأنفس والآفاق.

تجربة وعقيدة وتربية

إن القرآن الكريم هو كتاب الأمة المسلمة. هو روحها وباعثها. ومنه تستمد التصور والشعور كما تستمد دستورها ومنهجها وكل ما يتعلق في حياتها واستمرارها. وفيه يعرض الله ـ سبحانه ـ من تجارب الجماعات السابقة والأمم الغابرة حتى نستحضر في أنفسنا أن القرآن هوكتاب هذه الأمة الحي؛ ورائدها الناصح؛ وأنَّه هو مدرستها التي تلقت فيها دروس حياتها.

ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء.

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفُ حذرَ الموتِ فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾[سورة البقرة: ٢٤٣].

هذا الدرس يعرض تجربة من تجارب الأمم؛ يضمها إلى ذخيرة هذه الأمة، ويعد بها الجماعة المسلمة لما هي معرضة له في حياتها من المواقف؛ بسبب قيامها بدور الكبير، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية، ووارثة التجارب في هذا الحقل الخصيب.

تجربة لا يذكر القرآن أصحابها؛ ويعرضها في اختصار كامل، ولكنه واف فهي تجربة جماعة**﴿خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾**..

فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر؛ وأدركهم قَدَر الله الذي خرجوا حذراً منه.. فقال لهم الله: **﴿موتوا﴾**.. **﴿ثم أحياهم﴾**.. لم ينفعهم الجهد في اتقاء الموت، ولم يبذلوا جهداً في استرجاع الحياة. وإنَّما هو قدر الله في الحالين.

لا أحب أن نذهب في تيه التأويلات، عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.. من هم؟ وفي أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا؟... فلو كان الله يريد بياناً عنهم لَبَيَّن، كما يجيء القصص المحدد في القرآن. إنَّما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها، ولا تراد أحداثها وأماكنها وأزمانها. وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئاً على عبرة القصة ومغزاها..

إنَّما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابها الظاهرة، وحقيقتهما المضمرة؛ ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة. والاطمئنان إلى قدر الله فيهما. والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع، فالمقدر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف.

يراد أن يقال: إن الحذر من الموت لا يجدي؛ وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً، ولا يردان قضاء؛ وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة؛ وإنَّه متفضل في الحالتين: حين يهب، وحين يسترد؛ والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خَلْف الهبة وخَلْف الاسترداد. وإن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك؛ وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء: **﴿إن الله لذو فضل على الناس. ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾**.

إن تجمع هؤلاء القوم **﴿وهم ألوف﴾** وخروجهم من ديارهم **﴿حذر الموت﴾**.. لا يكون إلا في حالة هلع وجزع، سواء كان هذا الخروج خوفاً من عدو مهاجم، أو من وباء حائم.. إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئاً.

﴿فقال لهم الله . . موتوا﴾ .

كيف قال لهم؟ كيف ماتوا؟ هل ماتوا بسبب مما هربوا منه وفزعوا؟ هل ماتوا بسبب آخر من حيث لم يحتسبوا؟ كل ذلك لم يرد عنه تفصيل، لأنَّه ليس موضع العبرة. إنَّما موضع العبرة أن الفزع والجزع والخروج والحذر، لم تُغير مصيرهم، ولم تدفع عنهم الموت، ولم ترد عنهم قضاء الله. وكان الثبات والصبر والتجمل أولى لو رجعوا لله.

﴿ثم أحياهم﴾ .

كيف؟ هل بعثهم من موت ورد عليهم الحياة؛ هل خلف من ذريتهم خلف تتمثل فيه الحياة القوية فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء؟ . . ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل. فلا ضرورة لأن نذهب وراءه في التأويل، لئلا نتيه في أساطير لا سند لها كما جاء في بعض التفاسير. . إنَّما الإيحاء الذي يتلقاه القلب من هذا النص أن الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم في حين أن جهدهم لم يردّ الموت عنهم.

إن الهلع لا يرد قضاء؛ وإن الفزع لا يحفظ حياة؛ وإن الحياة بيد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء. . إذن فلا نامت أعين الجبناء!

ونُدرك طرفاً من هدف تلك الحادثة ومغزاها في السياق القرآني الذي يتلو ذكرها **﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾** ندرك طرفاً من حكمة الله في سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة في جيلها الأول وفي أجيالها جميعاً. . ألا يقعدن بكم حب الحياة، وحذر الموت، عن الجهاد في سبيل الله. فالموت والحياة بيد الله. قاتلوا في سبيل الله لا في سبيل غاية أخرى. وتحت راية الله لا تحت راية أخرى. . وهكذا تُصحح هذه القصة القرآنية التصور عن حقيقة الحياة والموت، والأَجَل والقَدَر، وعلاقة هذا كله بالجهاد في سبيل الله، الذي يجزع له كثير من الناس الجزع الكبير، ويخشوه هذه الخشية الشديدة.

فالموت حتم في موعده المقدر. ولا علاقة له بالحرب والسلم. ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته. ولا يؤخره عنهم تكليف القتال إذن، ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده.

هذا أمر وذاك أمر؛ ولا علاقة بينهما.. إنَّما العلاقة هناك بين الموت والأجل. بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد.. وليست هناك علاقة أخرى.. ولا معنى إذن للتقاعس والقعود عن الجهاد في سبيل الله. ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال!.

وبهذه اللمسة الموحية يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر، وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر..

وبذلك التصور تستريح القلوب، وتستقر الضمائر على حقيقة السنن الجارية في الكون، وعلى حقيقة قَدَر الله في الأمور، وعلى حقيقية حكمة الله من وراء التقدير والتدبير، فالأجل مكتوب، والموت مقدور لا يؤجله قعود، ولا يقدمه خروج، ولا يمنحه حرص ولا حذر ولا تدبير..

إن قَدَر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة. والموت قَدَر لا مفرّ من لقائه في موعده، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر. ولا ينفع الفرار في دَفع القدر عن فار. فإذا فرّ إنسان خوفاً من الموت فإنه ملاقي حتفه المكتوب، في موعده القريب. وكل موعد في الدنيا قريب. ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته. سوءاً أراد بالناس سواءً أم أراد بهم رحمة، ولا مولى لهم ولا نصير من دون الله يحميهم، ويمنعهم من قَدَر الله.

إن المؤمن مُدرك لسنن الله، مُتعَرِّف إلى مشيئة الله، مُطمئن إلى قَدَر الله. إنه يعلم أنه لن يُصيبه إلاَّ ما كتبَ الله له. وأن ما أصابه لم يكن

ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. ومن ثم لا يتلقى الضرّاء بالجزع، ولا يتلقى السرّاء بالزهو، إنَّما هو مستسلم لَقدر الله ومشيئته..

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته، وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية.. فقد أمَر الله سبحانه وتعالـى بأَخْذ الحذرِ﴿يا أيها الذين آمنو خذوا حذركم﴾[النساء: ٧١]، كما أَمَر تباركت أسماؤه المؤمنين بالاحتياط في صلاة الخوف[1]، كما أَمَر باستكمال العدة والأهبة﴿وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾[الأنفال: ٦٠].. ولكن كل هذا شيء، وتعليق الموت والأجل به شيء آخر..

إن أَخْذ الحذر واستكمال العدة أَمْر يجب أن يُطاع، وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله.. وإن التصور الصحيح لحقيقةالعلاقة بين الموت والأجلالمضروب ـ غم كل استعداد واحتياط ـ أمْر آخر يجب أن يُطاع؛ وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله..

ولا يفوتنا بعد تقرير تلك الإيحاءات الإيمانية التربوية الكريمة التي تضمنتها هذه القصة.. أن نلمّ بذلك الجمال الفني في الأداء: ﴿أَلَم تَرَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهو أُلوفُ حَذَر الموت؟﴾.. إنَّه في التعبير استعراضاً لهذه الألوف ولهذه الصفوف استعراضاً ترسمه هاتان الكلمتان: ﴿أَلَم تَرَ﴾.. وأي تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كما رسمته هاتان الكلمتان العاديتان في وضعهما المختار.

ومن مشهد الألوف المؤلَّفَة، الحَذِرة من الموت، المتلفتة من الذعر.. إلى مشهد الموت المُطْبق في لحظة؛ ومن خلال

---

(١) قال تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مُبيناً. وإذا كنت فيهم فأقمتُ لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتم... وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢].

كلمة﴿موتوا﴾.. كل هذا الحَذَر، وكل هذا التجمع، وكل هذه المحاولة.. كلها ذهبت هباءً في كلمة واحدة: ﴿موتوا﴾.. ليلقي ذلك في الحسّ عَبَثَ المحاولة، وضلالة المنهج؛ كما يُلقي صرامة القضاء، وسرعة الفصل عند الله.

﴿ثم أحياهم﴾.. هكذا بلا تفصيل للوسيلة.. إنها القدرة المالكة زمام الموت وزمام الحياة. المتصرفة في شؤون العباد، لا تُردّ لها إرادة، ولا يكون إلاَّ ما تشاء.. وهذا التعبير يلقي الظل المناسب على مشهد الموت ومشهد الحياة. وكذلك يبدو التناسق العجيب في تصوير المشاهد، إلى جوار التناسق العجيب في إحياء المعاني وجمال الأداء..

آية للناس

وفي سياق الحديث عن سرّ الموت والحياة في القرآن الكريم تجيء القصة الأخرى:

﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال: أنَّى يحي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بَعَثَه. قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه؛ وانظر إلى حِمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف نُنشزها ثم نكسوها لحماً﴾[البقرة: ٢٥٨] من هو «الذي مرّ على قرية»؟ ما هذه القرية التي مرّ عليها وهي خاوية على عروشها؟.

إن القرآن لم يفصح عنهما شيئاً، ولوشاء لأفصح، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلاَّ بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن. فلنقف نحن ـ على طريقتنا في قصص الرَّحمن ـ عند تلك الظلال.

إن المشهد ليرتسم للحسّ قوياً واضحاً موحياً. مشهد الموت والبلى والخواء.. يرتسم بالوصف: **﴿وهي خاوية على عروشها﴾**.. محطمة على قواعدها. ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مرّ على القرية. هذه المشاعر التي ينضح بها تعبير: **﴿ أنَّى يُحيـي هذه الله بعد موتها؟﴾**.. إن القائل ليعرف أن الله هناك. ولكن مشهد البلى والخواء ووقعه العنيف في حسّه جعله يحار: كيف يُحي هذه الله بعد موتها؟ وهذا أقصى ما يبلغه

مشهد من العنف والعمق في الإيحاء.. وهكذا يلقي التعبير القرآني ظلاله وإيحاءاته، فيرسم المشهد كأنَّما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر.

﴿أنَّى يحيـي هذه الله بعد موتها؟﴾.. كيف تدب الحياة في هذا الموات؟.

﴿فأماته الله مئة عام. ثم بَعَثَه﴾..

لم يقل له كيف. إنَّما أراه في عالم الواقع كيف! فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي، ولا حتى بالمنطق الوجداني؛ ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان.. إنَّما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلىء بها الحسّ، ويطمئن بها القلب، دون كلام!

﴿قال: كم لبثت؟ قال: لبثتُ يوماً أو بعض يوم!﴾..

وما يدريه كم لبث والإحساس بالزمن لا يكون إلاَّ مع الحياة والوعي؟ على أن الحسّ الإنساني ليس هو المقياس الدقيق للحقيقة؛ فهو يخدع ويضل؛ فيرى الزمن الطويل المديد قصيراً لملابسة طارئة؛ كما يرى اللحظة الصغيرة دهراً طويلاً لملابسة طارئة كذلك!.

﴿قال: بل لبثت مئة عام﴾..

وتبعاً لطبيعة التجربة، وكونها تجربة حسية واقعية، نتصور أنَّه لا بد كانت هناك آثار محسوسة تصور فعل مئة عام.. هذه الآثار المحسوسة لم تكن في طعام الرجل ولا شرابه، فلم يكونا آسنين متعفنين: **﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾**..

وإذن فلا بد أن هذه الآثار المحسوسة كانت متمثلة في شخصه أو في حماره:

﴿وانظر إلى حمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ . .

أية عظام؟ عظامه هو؟ لو كان الأمر كذلك ـ كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هي التي تعرت من اللحم ـ لَلَفَتَ هذا نظره عندما استيقظ، وَوَخَز حسّه كذلك، ولما كانت إجابته: **﴿لبثتُ يوماً أو بعض يوم﴾**.

لذلك نرجح أن الحمار هو الذي تعرت عظامه وتفسخت. ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذي لم يمسّه البلى، ولم يُصب طعامه ولا شرابه التعفن. ليكون هذا التباين في المصائر والجميع في مكان واحد، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة، آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء. والتي تتصرف مطلقة من كل قيد؛ وليدرك الرجل كيف يحي هذه الله بعد موتها! أما كيف وقعت الخارقة؟ فكما تقع كل خارقة! كما وقعت خارقة الحياة الأولى. الخارقة التي ننسى كثيراً أنها وقعت، وأننا لا ندري كيف وقعت! ولا ندري كذلك كيف جاءت إلاَّ أنها جاءت من عند الله بالطريق التي أرادها الله.

وهذا «دارون» أكبر علماء الحياة يظل ينزل في نظريته بالحياة درجة درجة، ويتعمق أغوارها قاعاً قاعاً، حتى يردها إلى الخلية الأولى. . ثم يقف بها هناك. إنَّه يجهل مصدر الحياة في هذه الخلية الأولى. ولكنه لا يُريد أن يُسَلِّم بما ينبغي أن يُسَلم به الإدراك البشري، والذي يلح على المنطق الفطري إلحاحاً شديداً. وهو أنه لا بد من واهب الحياة لهذه الخلية الأولى. لا يريد أن يُسلم لأسباب ليست علمية وإنَّما هي تاريخية في صراعه مع الكنيسة! فإذا به يقول: «إنَّ تفسير شؤون الحياة بوجود خالق يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت!» . .

أي وضع ميكانيكي! إنَّ الميكانيكية هي أبعد شيء عن هذا الأمر الذي يفرض على الإدراك فرضاً أن يبحث عن مصدر لهذا السرّ القائم تجاه الأبصار والبصائر! وإنَّه ـ هو نفسه ـ ليجفل من ضغط المنطق الفطري، الذي يلجيء الإدراك البشري إلجاء إلى الاعتراف بما وراء الخلية الأولى، فيرجع كل شيء إلى «السبب الأول»! ولا يقول: ما هو هذا السبب الأول؟ ما هو هذا السبب الذي يملك إيجاد الحياة أول مرة، ثم يملك ـ حسب نظريته هو وهي محل نظر طويل ـ توجيه الخلية الأولى في طريقها الذي افترض هو أنها سارت فيه صوراً، دون أي طريق آخر غير الذي كان! إنَّه الهروب والمراء والمحال[1]!!!.

ونعود إلى خارقة القرية لنسأل: وما الذي يفسر أن ينال البلى شيئاً ويترك شيئاً في مكان واحد وفي ظروف واحدة؟ إن خارقة خلق الحياة أول مرة أو خارقة رجعها كذلك لا تفسر هذا الاختلاف في مصائر أشياء ذات ظروف واحدة.

إن الذي يفسر هذه الظاهرة هو طلاقة المشيئة. . طلاقتها من التقيد بما نحسبه نحن قانوناً كلياً لازماً ملزماً لا سبيل إلى مخالفته أو الاستثناء منه! وحسباننا هذا خطأ بالقياس إلى المشيئة المطلقة: خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ومقرراتنا العقلية أو «العلمية!» على الله سبحانه! وهو خطأ يتمثل في أخطاء كثيرة:

فأولاً: ما لنا نحن نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه؟ قانون مستمد من تجاربنا المحدودة الوسائل، ومن تفسيرنا لهذه التجارب ونحن محدودو الإدراك؟.

وثانياً: فَهَبْه قانوناً من قوانين الكون أدركناه. فمن الذي قال لنا: إنَّه قانون نهائي كلي مطلق، وأن ليس وراءه قانون سواه.

---

(١) يراجع بتوسيع فصل «فرويد» في كتاب الإنسان بين المادية والإسلام».

وثالثاً: هَبْه كان قانوناً نهائياً مطلقاً. فالمشيئة الطليقة تنشىء القانون ولكنها ليست مقيدة به.. إنَّما هو الإختيار في كل حال. وكذلك تمضي هذه التجربة، فتضاف إلى رصيد أصحاب الدعوة الجدد، وإلى رصيد التصور الإيماني الصحيح. وتقرر ـ إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله ـ حقيقية أخرى هي التي أشرنا إليها قريباً. حقيقة طلاقة المشيئة، التي يعني القرآن عناية فائقة بتقريرها في ضمائر المؤمنين به، لتتعلق بالله مباشرة، من وراء الأسباب الظاهرة، والمقدمات المنظورة. فالله فعال لما يريد. وهكذا قال الرجل الذي مرت به التجربة:

﴿فلما تبين له، قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾..

والحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة، وليس إلاَّ الله يملك الموت والحياة، فالبشر ـ أرقى الخلائق ـ أعجز من بثّ الحياة في خلية واحدة، وأعجز كذلك من سلب الحياة سلباً حقيقياً عن حيٍّ من الأحياء.. فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرّها، ويملك أن يهبها ويستردها. والبشر قد يكونون سبباً وأداة لإزهاق الحياة، ولكنهم هم ليسوا الذين يجردون الحيّ من حياته على وَجْه الحقيقة. إنَّما الله هو الذي يُحيي ويميت وحده دون سواه، فيخلق الحياة ويخلق الموت، ويُقدر الحياة بكل حي، ويُقدر له الموت، فلا يكون إلاَّ قدره الذي قضاه. والحياة ما تزال سراً في طبيعتها، لا يملك أحد أن يقول: من أين جاءت، ولا كيف جاءت. فضلاً عن أنَّ أحداً لا يدري ما هي على وجه الحقيقة، والقرآن يقول: إنَّ الله هو الذي يحيي ويميت.. الذي يعطي الحياة للأحياء. وما يملك أحد أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره، الموت كالحياة سرّ مغلق ، لا يعرف أحد طبيعته، ولا يملك أحد أن يحدثه. لأن احداً غير واهب الحياة لا يملك سلبها **﴿وما كان لنفس أن تموت إلاَّ بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾**.

إنَّ هذه القصة تناولت موضوعاً من مواضيع العقيدة: سرّ الحياة

والموت، وحقيقة الحياة والموت. وهي تؤلف جانباً من جوانب التصور الإسلامي، تمثل جانباً من جوانب الجهد الطويل المتجلي في القرآن الكريم لإنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود في ضمير المسلم وفي إدراكه. الأمر الذي لا بد منه للإقبال على الحياة بعد ذلك إقبالاً بصيراً، منبثقاً من الرؤية الصحيحة الواضحة، وقائماً على اليقين الثابت المطمئن. فنظام الحياة ومنهج السلوك وقواعد الأخلاق والآداب.. ليست بمعزل عن التصور الاعتقادي؛ بل هي قائمة عليه، مستمدة منه. وما يمكن أن تثبت وتستقيم ويكون لها ميزان مستقر إلاَّ أن ترتبط بالعقيدة، وبالتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطاته بخالقه الذي وهبه الوجود.

الشوق الروحي :

ويمضي القرآن في التعريف ببديع صنع الله الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً، ويكشف للخلق أثر عظمة الخالق فتطمئن القلوب وتسكن الأرواح وهي تسبح بأحدية الخالق العظيم..

وبعد أن كشف الله لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ملكوت السَّماوات والأرض، ليحاج قومه، وليكون من الموقنين.. ها هو ذا إبراهيم يتطلع بإيمان وشوق عميق لرؤية سر الصنعة الإلـهية المعجز الباهر العجيب:

﴿وإذ قال إبراهيم: رَبِّ أرني كيف تُحيي الموتىٰ. قال: أَوَلَم تؤمن؟ قال: بلىٰ! ولـٰكن ليطمئنَّ قلبي﴾ [البقرة: ٢٦٠]..

إنَّه التشوق إلى ملابسة سر الصنعة الإلـهية. هذا السر الذي يتجلّىٰ في إتقان صنعة الله سبحانه في كل شيء في هذا الوجود! وحين يجيء هذا التشوق من إبراهيم الأوَّاه الحليم، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل.. حين يجيء هذا التشوق من إبراهيم فإنَّه يكشف عمَّا يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلـهية في قلوب أقرب المقربين! إنَّه كشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره؛ وليس طلباً

للبرهان أو تقوية للإيمان.. إنَّما هو أمر آخر، له مذاق آخر.. إنَّه أمر الشوق الروحي!! ملابسة السر الإلـٰهي، في أثناء وقوعه العملي.

وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشكِّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿ربِّ أرني كيف تحيي الموتىٰ قال: أوَلَم تؤمن؟ قال: بلىٰ! ولـٰكن ليطمئنَّ قلبي﴾[1]..

قال أبو حاتم: قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» لم يُرد به إحياء الموتىٰ، إنَّما أراد به في استجابة الدعاء له وذلك أنَّ إبراهيم ﷺ قال: ربِّ أرني كيف تُحيي الموتىٰ، ولم يتيقن أنَّه يُستجاب له فيه، يريد: في دعائه وسؤاله عمَّا سأل، فقال ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» به في الدعاء، ربما يُستجاب لنا وربما لا يُستجاب، ومحصول هذا الكلام أنَّه لفظةُ إخبار مرادُها التعليم للمخاطب له.

ويقول الإمام المزني تلميذ الشافعي: لم يشك النَّبيّ ولا إبراهيم صلوات الله عليهما في أنَّ الله قادر على أن يُحيي الموتىٰ، وإنَّما شكا أن يجيبهما إلى ما سألاه[2].

وقال أبو سليمان الخطابي فيما نقله عن البغوي في «شرح السنة»[3]: ليس في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه، ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشكّ عنهما، يقول: إذا لم أشك أنا ولم أرتب في قدرة الله عزَّ وجلّ على إحياء الموتىٰ، فإبراهيم أوْلىٰ بأن لا يشك

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) و(٤٥٣٧) ومسلم (١٥١) و(٢٣٨)، وابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان (رقم ٦٢٠٨).

(٢) نقله البغوي في «شرح السنة» ١/١١٥، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) شرح السنة ١/١١٦ - ١١٧.

ولا يرتاب، وقال ذلك على سبيل التواضع، والهضم من النفس.

وفيه الإعلام أنَّ المسألة من قبل إبراهيم لم تعرض من جهة شك، لكن من قبل زيادة العلم، فإنَّ العيان يُفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال. وقوله ﴿ليطمئن قلبي﴾ أي بيقين النظر[1].

ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل، الذي يقول لربه، ويقول له ربه. وليس وراء هذا إيمان، ولا برهان للإيمان. ولكنه أراد أن يرىٰ يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها.. وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان. وقد كشفت التجربة والحوار الذي حكي فيها عن تعدد المذاقات الإيمانية في القلب الذي يتشوق إلى هذه المذاقات ويتطلع. لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل، واطمئنان التذوق للسر المحجب وهو يجلىٰ ويتكشف.

ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله. ولكنه سؤال الكشف والبيان، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه، والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم، مع عبده الأوّاه الحليم المنيب!

ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة:

﴿قال: فخذ أربعة من الطير فصرهنَّ إليك؛ ثمَّ اجعل على كل جبل

---

(١) وحكي عن سعيد بن جبير أنّه قال: ﴿ولـٰكن ليطمئنَّ قلبي﴾ أي بالخلّة، يقول: إنّي أعلم أنك اتخذتني خليلاً، ومثله عن ابن المبارك.
ويُحكىٰ عن ابن المبارك في قوله: ﴿ولـٰكن ليطمئنَّ قلبي﴾ أي ليرىٰ من أدعوه إليك منزلتي ومكاني منك، فيجيبوني إلى طاعتك.

منهنَّ جزءاً، ثمَّ ادعهنَّ يأتينك سعياً واعلم أنَّ الله عزيز حكيم﴾ [البقرة: ٢٦٠]. .

لقد أمره أن يختار أربعة من الطير، فيقربهنَّ منه ويميلهنَّ إليه، حتى يتأكد من شياتهنَّ ومميزاتهنَّ التي لا يخطىء معها معرفتهنَّ. وأن يذبحهنَّ ويمزق أجسادهنَّ، ويفرق أجزاءهنَّ على الجبال المحيطة. ثمَّ يدعوهنَّ فتجمع أجزاؤهنَّ مرة أخرىٰ، وترتد إليهنَّ الحياة، ويعدن إليه ساعيات. . وقد كان طبعاً. .

ورأىٰ إبراهيم السر الإلـهي يقع بين يديه. وهو السر الذي يقع في كل لحظة. ولا يرىٰ الناس إلَّا آثاره بعد تمامه. إنَّه سر هبة الحياة. الحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن؛ والتي تنشأ مرات لا حصر لها في كل حي جديد. رأىٰ إبراهيم هذا السر يقع بين يديه. . طيور فارقتها الحياة، وتفرقت مزقها في أماكن متباعدة. تدب فيها الحياة مرة أخرىٰ، وتعود إليه سعياً!

كيف؟ هذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشري إدراكه. إنَّه قد يراه كما رآه إبراهيم. وقد يصدق به كما يصدق به كل مؤمن. ولكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته. إنَّه من أمر الله. والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلَّا بما شاء. وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه، لأنَّه أكبر منهم، وطبيعته غير طبيعتهم. ولا حاجة لهم به في خلافتهم.

إنَّه الشأن الخاص للخالق. الذي لا تتطاول إليه أعناق المخلوقين. فإذا تطاولت لم تجد إلَّا الستر المسدل على السر المحجوب. وضاعت الجهود سدىٰ، جهود من لا يترك الغيب المحجوب لعلَّام الغيوب!

إنَّ القرآن الكريم يستعرض في هذه الآيات دلائل القدرة في بيان حقيقة الحياة والموت. . فالحياة ونشوئها معجزة، تتجدد. . وسرها اللطيف ما يزال غيباً يحار العقل البشري في تصور كنهه. . وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر. . والموت سر آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه، وهو يتم

في لحظة خاطفة، والمسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة عريضة ضخمة.. وفيه مجال فسيح للتأمّل والتدبر.. وإعادة الحياة بعد الموت - وهي غيب من الغيب - سر خفي من أمر الله رآه إبراهيم يقع في بساطة ووضوح.. وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر..

إنَّها المعجزة التي لا يدري سرها أحد؛ فضلاً على أن يملك صنعها أحد! معجزة الحياة نشأة وحركة. سر مكنون، لا يعلم حقيقته إلاَّ الله؛ ولا يعلم مصدره إلاَّ الله.. وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها.. تقف أمام السرّ المغيب كما وقف الإنسان الأول، تدرك الوظيفة والمظهر، وتجهل المصدر والجوهر. والمعجزة تقع في كل لحظة!!!

دعوة إبراهيم إلى العقيدة المستقيمة الناصعة :

قام إبراهيم يدعو قومه إلى العقيدة الصادقة القوية، عقيدة التوحيد. قام يخلصهم من وهدة الشرك، وحمأة الضلال، وتأليه الأوثان، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده، وقد أُعطي الرشد والحجة القوية الدامغة التي يرد بها أباطيل قومه.. **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل، وكنَّا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه: ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾** [الأنبياء: ٥١ - ٥٢]..

ونمضي في حلقة الرسالة إلى قومه، وحواره معهم حول العقيدة، وإنكار الآلهة المدّعاة، والاتجاه بالعبادة إلى الله سبحانه فالحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة. وهي مقسمة إلى مشاهد متتابعة، بينها فجوات صغيرة. وهي تبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد. ويعني به الهداية إلى التوحيد. فهذا هو الرشد الأكبر الذي تنصرف إليه لفظة «الرشد» في هذا المقام.

آتيناه رشده، وكنا عالمين بحاله وباستعداده لحمل الأمانة التي يحملها المرسلون.

﴿**إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟**﴾..

فكانت قولته هذه دليل رشده.. سمّىٰ تلك الأحجار والخشب باسمها: «هذه التماثيل» ولم يقل: إنَّها آلهة، واستنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة. وكلمة «عاكفون» تفيد الانكباب الدائم المستمر. وهم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها. ولكنهم يتعلقون بها. فهو عكوف معنوي لازمني. وهو يستخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين أبداً على هذه التماثيل!

وبالقلب السليم، استنكر ما عليه قومه واستبشعه. استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك: ﴿**إذ قال لأبيه وقومه: ماذا تعبدون؟ أإفكاً آلهة دون الله تريدون؟ فما ظنكم برب العالمين؟**﴾ [الصافَّات: ٨٥ ـ ٨٧]..

وهو يراهم يعبدون أصناماً وأوثاناً. فيهتف بهم هتاف الفطرة السليمة في استنكار شديد ﴿**ماذا تعبدون؟**﴾ ماذا؟ فإنَّ ما تعبدون ليس من شأنه أن يُعبد، ولا أن يكون له عابدون! وما يعبده الإنسان في شبهة من حق. إنَّما هو الإفك المحض. والافتراء الذي لا شبهة فيه. فهل أنتم تقصدون إلى الإفك قصداً وإلى الافتراء عمداً: ﴿**أإفكاً آلهة دون الله تريدون؟**﴾.

وما هو تصوركم لله؟ وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوىٰ الذي تنكره الفطرة لأول وهلة: ﴿**فما ظنكم برب العالمين؟**﴾.. وهي كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة، وهي تطلع على الأمر البيِّن الذي يصدم الحس والعقل والضمير.

ويؤمر الرسول ﷺ أن يتلو قصة إبراهيم على المشركين. ذلك أنَّهم يزعمون أنَّهم ورثة إبراهيم، وأنَّهم على دينه القديم، وهم يُشركون بالله، ويقيمون الأصنام لعبادته في بيته الحرام، الذي بناه إبراهيم خالصاً لله..

فاتل عليهم نبأ إبراهيم ليتبينوا منه حقيقة ما يزعمون.

﴿واتـل عليهم نبأ إبـراهيم، إذ قال لأبيـه وقومـه: مـا تعبـدون؟﴾ [الشعراء: ٦٩، ٧٠]..

اتل عليهم نبأ إبراهيم الذين يزعمون أنَّهم ورثته، وأنَّهم يتَّبعون ديانته. اتله عليهم وهو يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من أصنام كهذه الأصنام التي يعبدها المشركون في مكة؛ وهو يخالف أباه وقومه في شركهم، ويُنكر عليهم ما هم عليه من ضلال، ويسألهم في عجب واستنكار: **﴿ما تعبدون؟﴾**..

﴿قالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ [الشعراء: ٧١]..

وهم كانوا يسمون أصنامهم آلهة: فحكاية قولهم: إنَّها أصنام. تنبىء بأنَّهم لم يكونوا يملكون إنكار أنَّها أصنام منحوتة من الحجر، وأنَّهم مع ذلك يعكفون لها، ويدأبون على عبادتها. وهذه نهاية السخف. ولكنَّ العقيدة متى زاغت لم يفطن أصحابها إلى ما تنحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم!

ويأخذ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يوقظ قلوبهم الغافية، وينبـه عقولهم المتبلدة، إلى هذا السخف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير: **﴿قال: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟﴾** [الشعراء: ٧٢، ٧٣]..

فأقل ما يتوفر لإلـه يُعبد أن يكون له سمع كعابده الذي يتوجه إليـه بالعبادة والابتهـال! وهذه الأصنـام لا تسمع عبـادها وهم يتـوجهون إليهـا بالعبادة، ويدعونها للنفع والضر. فإن كانت صماء لا تسمع فهل هي تملك النفع والضر؟ لا هذا ولا ذاك يمكن أن يدعوه! ولم يجب القوم بشيء عن هذا فهم لا يشكون في أنَّ إبراهيم إنَّما يتهكم ويستنكر؛ وهم لا يملكون حجة لدفع ما يقول. فإذا تكلموا كان عن التحجر الذي يصيب المقلدين بلا وعي ولا تفكير:

﴿قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ [الشعراء: ٧٤]..

إنَّ هذه الأصنام لا تسمع ولا تضر ولا تنفع. ولكنا وجدنا آباءنا يعكفون عليها، فعكفنا عليها وعبدناها!

وهو جواب مخجل. ولكنَّ المشركين لم يخجلوا أن يقولوه، كما لم يخجل المشركون في مكة أن يفعلوه. فقد كان فعل الآباء لأمر كفيلاً باعتباره دون بحث؛ بل لقد كان من العوائق دون الإسلام أن يرجع المشركون عن دين آبائهم، فيخلُّوا باعتبار أولئك الآباء، ويقروا أنَّهم كانوا على ضلال. وهذا ما لا يجوز في حق الذاهبين!

وهكذا تقوم مثل هذه الاعتبارات الجوفاء في وجه الحق، فيؤثرونها على الحق، في فترات التحجر العقلي والنفسي والانحراف التي تصيب الناس، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر والانطلاق والتفكير.

لقد كان جوابهم وحجتهم أن ﴿**قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين**﴾ [الأنبياء: ٥٣]..

وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية. فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل:

﴿**قال: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين**﴾ [الأنبياء: ٥٤]..

وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها. فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم، إنَّما تنبع من التقويم المتحرر الطليق.

وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة في التقدير، وبهذه الصراحة في الحكم، راحوا يسألون:

﴿**قالوا: أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟**﴾ [الأنبياء: ٥٥]..

وهو سؤال المزعزع العقيدة، الذي لا يطمئن، إلى ما هو عليه، لأنَّه لم يتدبره ولم يتحقق منه. ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد. فهو لا يدري أي الأقوال حق. والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى دليل! وهذا هو التيه الذي يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل والضمير.

فأمَّا إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه، متمثل له في خاطره وفكره، يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه:

﴿قال: بل ربُكم ربُّ السَّماوات والأرض الذي فطرهنَّ، وأنا على ذلكم من الشَّاهدين﴾ [الأنبياء: ٥٦]..

فهو رب واحد. رب الناس ورب السَّماوات والأرض. ربوبيته ناشئة عن كونه الخالق. فهما صفتان لا تنفكان: **﴿بل ربكم رب السَّماوات والأرض الذي فطرهنَّ﴾**..

فهذه هي العقيدة المستقيمة الناصعة، لا كما يعتقد المشركون أنَّ الآلهة أرباب، في الوقت الذي يقرّون أنَّها لا تخلق، وأنَّ الخالق هو الله. ثمَّ هم يعبدون تلك الآلهة لتي لا تخلق شيئاً وهم يعلمون!

إنَّه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه: **﴿وأنا على ذلكم من الشَّاهدين﴾**.. وإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لم يشهد خلق السَّماوات والأرض، ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه.. ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين..

إنَّ كل ما في الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر. وإن كل ما في كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبر، وبوحدة الناموس الذي يدبر الكون ويصرفه.

وفي قصة إبراهيم مع قومه يتبدّى سوء الجزاء وطغيان الضلال. فقد

حاول هُداهم ما استطاع، وجادلهم بالحجة والمنطق.. **﴿وإبراهيم إذ قال لقومه: اعبدوا الله واتَّقوه..﴾** [العنكبوت: ١٦]..

لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض، وهي مرتبة في عرضها ترتيباً دقيقاً يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات.. لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها: **﴿اعبدوا الله واتَّقوه﴾**..

ثُمَّ ثنىٰ بتحبيب هذه الحقيقة إليهم، وما تتضمنه من الخير لهم، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير:

﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾..

وفي هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفي الجهل عنهم، واختيار الخير لأنفسهم. وهو في الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهييج خطابي!

وفي الخطوة الثالثة بَيَّن لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه: أولها أنَّهم يعبدون من دون الله أوثاناً ـ والوثن: التمثال من الخشب ـ وهي عبادة سخيفة وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله..

وثانيها: أنَّهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل، وإنَّما يخلقون إفكاً وينشئون باطلاً، ويخلقونه خلقاً بلا سابقة أو مقدمة، وينشئونه إنشاءً من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة..

وثالثها: أنَّ هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعاً، ولا ترزقهم شيئاً: **﴿إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾** [العنكبوت: ١٧]..

وفي الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق. الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم:

﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾..

والرزق مشغلة النفوس، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان.

ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس.

وفي النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم، ليعبدوه ويشكروه: ﴿واعبدوه واشكروا له﴾..

وأخيراً يكشف لهم أنَّه لا مفر من الله، فمن الخير أن يثوبوا إليه.مؤمنين عابدين شاكرين: ﴿إليه ترجعون﴾ [العنكبوت: ١٧].. فإن كذبوا ـ بعد ذلك كله ـ فما أهون ذلك! فلن يضر الله شيئاً، ولن يخسر رسوله شيئاً. فقد كذب الكثيرون من قبل، وما على الرسول إلاَّ واجب التبليغ:

﴿وإن تكذبوا فقد كذب أُمم من قبلكم، وما على الرسول إلاَّ البلاغ المبين﴾ [العنكبوت: ١٨]..

وهكذا يأخذهم خطوة خطوة، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها، ويوقع على أوتارها في دقة عميقة، وهذه الخطوات تعد نموذجاً لطريقة الدعوة جديراً بأن يتملاه أصحاب كل دعوة، لينسجوا على منواله في مخاطبة النفوس والقلوب.

وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم ـ على حلمه وأناته ـ إلاَّ أن يهزهم بعنف، ويعلن عداوته للأصنام، وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات!

﴿قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فإنَّهم عدو لي إلاَّ رب العالمين﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧﴾..

وهكذا لم يمنعه أنَّ أباه وأنَّ قومه يعبدون ما يعبدون، أن يفارقهم بعقيدته، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم، هم وآباؤهم ـ وهم آباؤه ـ الأقدمون!

وكذلك يُعلِّم القرآن المؤمنين أنَّ لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا

لقوم، وأنَّ الرابطة الأُولىٰ هي رابطة العقيدة، وأنَّ القيمة الأُولىٰ هي قيمة الإيمان. وأنَّ ما عداه تبع له يكون حيث يكون.

واستثنىٰ إبراهيم «رب العالمين» من عدائه لما يعبدون وآباؤهم الأقدمون: ﴿فإنَّهم عدو لي إلاَّ رب العالمين﴾..

فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عَبَد الله، قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف؛ وقد يكون من عبد الله ولكن أشرك معه آلهة أُخرىٰ مدَّعاة. فهو الاحتياط إذن في القول، والدقة الواعية في التعبير، الجديران بإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق.

ثمَّ يأخذ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في صفة ربه. رب العالمين. وصلته به في كل حال وفي كل حين. فنحس القربىٰ الوثيقة، والصلة الندية. والشعور بيد الله في كل حركة ونأمة، وفي كل حاجة وغاية.

﴿الذي خلقني فهو يهدين..﴾ [الشعراء: ٧٨]..

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه، واسترساله في تصوير صلته به، أنَّه يعيش بكيانه كله مع ربه. وأنَّه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجه إليه في حب؛ وأنَّه يصفه كأنَّه يراه، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه.. والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل، بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد..

الذي خلقني.. الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني، ووظائفي ومشاعري، وحالي ومآلي: ﴿فهو يهدين﴾ إليه، وإلى طريقي الذي أسلكه، وإلى نهجي الذي أسير عليه. وكأنَّما يحس إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنَّه عجينة طيِّعة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد. إنَّه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين.

﴿والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء: ٧٩ ـ ٨٠].. فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية، الرفيقة الودود، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض. ويتأدب بأدب النبوة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربه ـ وهو يعلم أنَّه بمشيئة ربه يمرض ويصح ـ إنَّما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه.. ويشفيه.. ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه.

﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾.. فهو الإيمان بأنَّ الله هو الذي يقضي الموت، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضىً عميق.

﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء: ٨٢].. فأقصىٰ ما يطمع فيه إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ النبيِّ الرسول، الذي يعرف ربه هذه المعرفة، ويشعر بربه هذا الشعور، ويحس في قرارة نفسه هذه القربىٰ.. أقصىٰ ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين. فهو لا يبرىء نفسه، وهو يخشىٰ أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرىٰ أنَّه يستحق بعمله شيئاً، إلَّا أنَّه يطمع في فضل ربه، ويرجو في رحمته، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة.

إنَّه شعور التقوىٰ، وشعور الأدب، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل.

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله ربِّ العالمين. والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض. والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد. وهي العناصر التي ينكرها قومه، وينكرها المشركون.

عزم وحسم:

لقد كشف إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ زيف عبادة قومه وانحرافهم، كشف

سخف وضلال القوم بالبراهين الناصعة والبينـات الواضحـة الكاشفـة عن الحق، حتى ليوقنه ويبصره كل من له قلب وعينان، وأسقط ما في أيديهم من حجة، واستيقنت أنفسهم الحق الذي يقوله ويدعو إليه إبراهيم أنَّ الله هو رب العـالمين، رب السَّماوات والأرض الـذي فطرهنَّ، المـالك الـرازق بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير. .

لقـد استيقنت نفوسهم الحق المبين الـذي لا شبهة فيـه. . إنَّهم لا يريدون الإيمان، ولا يطلبون البرهان فهم يردُّون جحوداً ومكابـرة، فقالـوا وجدنا آباءنا قائمين على عبادة هذه الأوثان، وسؤالها وتقديسها والتمرغ على أعتابها، وتقديم القرابين لها. . هكذا أعلنوا في عبارة واهنة وكلمة واهية. لقد ساروا على الخط الذي درج عليه أسلافهم من الباطل. واعترفوا أنَّ ما هم عليه إن هو إلَّا تقليد وكفىٰ! فما أقبح ما اعترفوا به، وما أوهن ما نطقوا به!!!

ورأىٰ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنَّه لما كان المنطق السليم لا يثمر ثمرتَه مع النفوس السقيمة والقلوب الصلدة المظلمة، أن يلجأ إلى طريقة عملية يفضح بها بهتان هذه العبادة وفسادهـا. فدبَّـر المكيدة المحكمـة لآلهتهم الصمَّاء الخرساء حتى يلمسوا بأيديهم ضعفها وذلَّتها، وحتى يروا أنَّها فعلاً لا تملك دفع الأذىٰ عن نفسها، ولا تلحق بهم ضـراً إذا تركـوا عبادتهـا، أو تكسبهم خيراً إذا عكفوا عليها وأخلصوا لها.

وها هو ذا إبراهيم يعلن لمن كان يواجههم من قومه بالحوار حول هذه الأصنام أنَّه قد اعتزم في شأن آلهتهم أمراً لا رجعـة فيه: **﴿وتـالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾** [الأنبياء: ٥٧]. .

ويترك ما اعتزمه من الكيد للأصنام مبهماً لا يفصح عنه. . ولا يذكر القرآن كيف ردُّوا عليه. ولعلَّهم كانوا مطمئنين إلى أنَّه لن يستطيع لآلهتهم كيداً. فتركوه!

ويمضي سياق القصة مباشرة في المشهد التالي إلى عزيمته التي قررها في نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف:

﴿فنظر نظرة في النجوم. فقال: إنِّي سقيم. فتولوا عنه مدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال: ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ [الصافَّات: ٨٨ ـ ٩٣]..

ويُروىٰ أنَّه كان للقوم عيد ـ ربما كان هو عيد النيروز ـ يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات، بعد أن يضعوا الثمار في بيت العبادة بين يدي آلهتهم لتباركها. ثمَّ يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك!

وأنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ بعد أن يئس من استجابتهم له؛ وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا صلاح له، اعتزم أمراً. وانتظر هذا اليوم الذي يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتزم. وكان الضيق بما فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه، فلمَّا دُعي إلى مغادرة المعبد، قَلَّب نظره في السماء، وقال: **﴿إنِّي سقيم﴾**.. لا طاقة لي بالخروج إلى المتنزهات والخلوات. فإنَّما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع، أخلياء القلوب من الهم والضيق ـ وقلب إبراهيم لم يكن في راحة ونفسه لم تكن في استرواح. قال ذلك معبراً عن ضيقه وتعبه. وأفصح عنه ليتركوه وشأنه. ولم يكن هذا كذباً منه. إنَّما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم. وإنَّ الضيق ليمرض ويسقم ذويه!

يقول العلامة الشيخ الدكتور فضل حسن عباس عن يقظة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ورجاحة عقله، وبُعد تفكيره، وحسن تخلصه، وشدة حرصه على دينه، وشدة قوته في محاربة الباطل «فلقد أراد أن يُشاغل قومه حتى لا يسير معهم إلى حيث يريدون فيحملهم على تركه لينفذ أمراً عزم عليه، لذلك نظر نظرة في علم النجوم وقد كانوا يعولون على هذا العلم، فأخبرهم أنَّ به سقماً يمنعه من أن يشاركهم مسيرتهم، ولا يظنَّنَّ ظان أنَّ ذلك كذب من

إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ، وإنَّما ذلك من باب التعريض والتعدية؛ فهو سقيم لعدم إيمانهم وتصديقهم بالحق وعبادتهم الباطلة، وهذا شأن الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ، بل هو شأن الدُّعاة والمصلحين، وقد حدثنا القرآن الكريم عما كان يختلج في نفس النبي ﷺ من ألم، وما يشعر به من حسرة حتى لقد كان ربه تبارك وتعالىٰ يهوِّن عليه ذلك ويسليه في كثير من آياته فيقول له: **﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾** كما يقول له: **﴿لعلَّك باخع نفسك ألاَّ يكونوا مؤمنين﴾** وفي آية أخرىٰ: **﴿فلعلَّك تارك بعض ما يُوحىٰ إليك وضائق به صدرك﴾** والآيات كثيرة، تلك التي جاءت تبدد الألم الذي كان يساور النَّبي ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ من عدم إيمان قومه به، وكذلك إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ؛ فهو سقيم حقاً..»[1]. وكان القوم معجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم في ذلك العيد، فلم يتلبثوا ليفصحوا عن أمر إبراهيم، وما به من سقم، بل تولوا عنه مدبرين مشغولين بما هم فيه. وكانت هذه هي الفرصة التي يريد.

وذهب الناس وبقي إبراهيم في بيت الأصنام.. وأسرع إلى آلهتهم المدَّعاة. وأمامها أطايِب الطعام وبواكير الثمار. فقال في تهكم: **﴿ألا تأكلون؟﴾**.. ولم تُجبه الأصنام بطبيعة الحال. فاستطرد في تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية: ألا تتكلمون؟ ألا تسمعون؟ **﴿ما لكم لا تنطقون﴾**..

وهي حالة نفسية معهودة، أن يوجه الإنسان كلامه إلى ما يعلم حقيقته، ويستيقن أنَّه لا يسمع ولا ينطق! إنَّما هو الضيق بما وراء الآلهة المزعومة من القوم وتصورهم السخيف!..

وسكتت الأصنام وما نطقت فلم تجبه الآلهة المدَّعاة مرة أُخرىٰ!! وهنا فراغ شحنة الغيظ المكتوم حركة وقولاً: **﴿فراح عليهم ضرباً باليمين﴾**

(١) القصص القرآني: ١٤٨ ـ ١٤٩.

[الصافَّات: ٩٣]. . وبكل قوة شدة يأخذ بتحطيم هذه الأصنام فكسَّرها، وتـرك إبراهيم الصنم الأكبـر ﴿فجعلهم جُـذاذاً إلاَّ كبيـراً لهم لعلَّهم إليـه يرجعون﴾ [الأنبياء: ٥٨]. .

وهكذا شفىٰ إبراهيم نفسه من السقم والهم والضيق. . . ! وغادر بيت الأصنام بعد أن تركها مبعثرة محطمة. . انصرف عنها وهو مـرتاح البـال. مطمئن القلب لعمله الذي استأصل به جذور الشرك، وطمس معالم الشر، فقـد تحولت الآلهـة المعبـودة إلى حـطام من قـطع صغيـرة من الحجـارة والأخشاب المهشمة. . إلاَّ كبير الأصنام فقـد تركـه إبراهيم ﴿لعلَّهم إليـه يرجعون﴾ فيسألونه كيف وقعت الواقعة. ونزلت هذه النازلة الماحقـة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة! ولعلَّهم حينئذٍ يراجعون القضية كلها، فيرجعون إلى صـوابهم، ويدركـون منه مـا في عبادة الأصنـام من سخـف وتهافت. وينتهي هذا المشهد فيليه مشهد جديد. وقد عاد القوم فـاطّلعوا على جذاذ الآلهة!

ولمَّا رجع القوم من عيدهم، ودخلوا إلى معبدهم. وشاهدوا ما حَلَّ بمعبوداتهم فَذُهِلُوا وفزعوا، فوجئوا بآلهتهم أنقاضاً متفرقة، وأشلاء ممزقة. .

لقد عادوا ليروا الآلهة جذاذاً إلاَّ ذلك الكبير! ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلىٰ أنفسهم يسألونها: إن كانت هذه آلهة فكيف وَقَعَ لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئاً. وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها؟

لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال، لأنَّ الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير، ولأنَّ التقليد قد غَلَّ أفكارهم عن التأمُّل والتدبر. فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حَطَّم آلهتهم، وصنع بها هذا الصنيع ﴿قالوا: من فَعَل هـٰذا بآلهتنا إنَّه لمن الظَّالمين﴾ [الأنبياء: ٥٩]. .

مَن الذي عَدا على آلهتنا فأوردها موارد الهلكة؟ وتساءل القوم عمَّن

قَوي على الآلهة فَدمرهاً. . إنَّه لمن الظالمين وإنَّه لا بد أن يلقى جزاء فعله وعاقبة مكره. .

عندئذٍ تذكر الذين سمعوا إبراهيم يُنكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها!

﴿قالوا: سمعنا فتىً يذكرهم يُقال له إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٠]. .

ويبدو من هذا أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كان شاباً صغير السن، حين آتاه الله رشده، فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطيم.

ولكن أكان قد أُوحي إليه بالرسالة في ذلك الحين؟ أم هو إلهام هداه الله إلى الحق قبل الرسالة. فدعا إليه أباه، واستنكر على قومه ما هم فيه؟ ولعلَّ هذا هو الأرجح. .

وهناك احتمال أن يكون قولهم: ﴿سمعنا فتىً﴾ يُقصد به إلى تصغير شأنه بدليل تجهيلهم لأمره في قولهم: ﴿يقال له إبراهيم﴾! للتقليل من أهميته، وإفادة أنَّه مجهول لا خَطَر له؟ قد يكون. ولكننا نرجح أنَّه كان فتىً حديث السن في ذلك الحين.

لقد عرفوا من المجترىء على آلهتهم، المتطاول على مقام معبوداتهم. فاعتزموا أن ينزلوا به أشد العقاب، وثار القوم في غضب وكيد ﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾ [الصافَّات: ٩٤]. . أقبلوا إليه يسرعون الخُطىٰ ويحدثون حوله زفيفاً. . وهم جمع كثير غاضب هائج، وهو فرد واحد، ولكنه فرد مؤمن. فرد يعرف طريقه. فرد واضح التصور لإلـٰهه. عقيدته معروفة له محدودة. يدركها في نفسه، ويراها في الكون من حوله. فهو أقوىٰ من هذه الكثرة الهائجة المائجة، المدخولة العقيدة، المضطربة التصور. .

وقصد القوم التشهير بإبراهيم، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد ﴿قالوا: فأتوا به على أعين الناس لعلَّهم يشهدون﴾ [الأنبياء: ٦١]. .

وسمع الناس النداء فتقاطرت وفودهم. وتكاثرت جموعهم. وفي نفوس القوم رغبة متأججة لمشاهدة القصاص من ذلك الفتىٰ الذي حطّم آلهتهم المدَّعاة، وشذَّ عن التقاليد الفاسدة والعادات الموروثة.

ولا شك أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لم يكن أقل منهم رغبة في عقد هذا المشهد على أعين الناس. فهي أُمنية الداعية الواثق بربه أن يحتشد هذا الجمع الغفير. ليقيم حجة الله عليهم جميعاً على بطلان ما ورثوا من عقائد زائفة، وليؤكد لهم فساد ما هم عليه من خرافة وتقليد.

المحاكمة والكيد الضعيف:

وجاؤوا به على أعين الناس ليشهدوا مصيره وعاقبته. وابتدأت المحاكمة، ﴿قالوا: أأنتَ فعلتَ هـٰذا بآلهتنا يَـا إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٢]. .

فهم ما يزالون يصرون على أنَّها آلهة وهي جذاذ مهشمة. فأمَّا إبراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم، وهو فرد وحده وهم كثير. ذلك أنَّه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلاَّ أن يهزأ بهم ويسخر، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوىٰ العقلي الدون في هدوء وبساطة لا يبالي كثرتهم وهياجهم وزفيفهم:

﴿قال: بل فعله كبيرهم هـٰذا. فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ [الأنبياء: ٦٣]. .

والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر. فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ والبحث عن تعليلها بشتَّىٰ العلل التي اختلف عليها المفسرون. فالأمر أيسر من هذا بكثير! إنَّما أراد أن يقول لهم: إنَّ هذه التماثيل لا تدري من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكاً. فهي جماد لا إدراك لـه أصلاً. وأنتم كـذلك مثلهـا مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل. فلا تعرفون إن كنت أنا الذي

حطمتها أم إن هذا التمثال هو الذي حطمها: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾!

ويبدو أنَّ هذا التهكم الساخر قد هزَّهم هزاً، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: إنَّكم أنتم الظالمون﴾ [الأنبياء: ٦٤].. وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم. وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون.

ولكنهم لم تكن إلَّا ومضة واحدة أعقبها الظلام، وإلَّا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود:

﴿ثمَّ نُكسوا على رؤوسهم. لقد علمت ما هٰؤلاء ينطقون﴾ [الأنبياء: ٦٥]..

وحقاً لقد كانت الأُولىٰ رجعة إلى النفوس، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس؛ كما يقول التعبير القرآني المصور العجيب.. كانت الأُولىٰ حركة في النفس للنظر والتدبر. أمَّا الثانية فكانت انقلاباً على الرأس فلا عقل ولا تفكير. وإلَّا فإنَّ قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم. وأية حجة لإبراهيم أقوىٰ من أنَّ هؤلاء لا ينطقون؟!

ثمَّ يواجههم إبراهيم بالحق الفطري البسيط: ﴿قال: أتعبدون ما تنحتون؟ والله خلقكم وما تعملون؟﴾ [الصافَّات: ٩٥، ٩٦]..

إنَّه منطق الفطرة يصرخ في وجههم ﴿أتعبدون ما تنحتون؟﴾.. والمعبود الحق ينبغي أن يكون هو الصانع لا المصنوع ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾. فهو الصانع الوحيد الذي يستحق أن يكون المعبود.

ومع وضوح هذا المنطق وبساطته، إلَّا أنَّ القوم في غفلتهم وفي اندفاعهم لم يستمعوا له ـ ومتى استمع الباطل إلى صوت الحق البسيط؟ ـ،

ومن ثمَّ يجبههم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم. لأنَّ السخف هنا يجاوز صبر الحليم: ﴿**قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟ أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون**﴾؟ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]..

وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر، وغيظ النفس، والعجب من السخف الذي يتجاوز كل مألوف. عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل، فيلجأون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ: ﴿**قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم**﴾ [الصافَّات: ٩٧]..

إنَّه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطقاً سواه؛ عندما تعوزهم الحجة وقد سُدَّ عليهم السبيل إلى دليل: ﴿**قالوا: حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**﴾ [الأنبياء: ٦٨]..

وهكذا اندفع أصحاب الأمر والنهي فيهم يزاولون طغيانهم في صورته الغليظة، لجأوا إلى القوة والبطش، وكذلك أهل الباطل في كل زمان حينما يعجزون عن مجابهة الحجج، وحينما يدركون أنَّهم في عماية ولجج، فإنَّهم يعمدون إلى النكاية المادية ومحاولة التصفية الجسدية، ذلك ما تحدَّثنا عنه قصص الرَّحمـٰن وشواهد التاريخ قديماً وحديثاً، بل ذلك ما يشهد به الواقع حينما لا يجد الحق عنه أي مدافع، كذلك قوم إبراهيم، فما وجدوا غير البطش الشديد. فتواصوا ببنيان يبنونه، وكيد لإبراهيم يريدونه، فليسعروا ذلك البنيان بالنار حتى تصير جحيماً، فليلقوا فيها إبراهيم.. ﴿**قالوا: حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**﴾..

فيا لها من آلهة ينصرها عبادها، وهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرّاً؛ ولا تحاول لها ولا لعبادها نصراً!

﴿**قالوا: حرِّقوه**﴾ ولكن كلمة أُخرىٰ قد قيلت.. فأبطلت كل قول،

وأحبطت كل كيد. ذلك أنَّها الكلمة العليا التي لا تُرد: ﴿قلنا﴾ : ﴿يَا نار كوني برداً وَسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩]. .

ها هو ذا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في وسط النار المتأججة. . وبقدرة العلي القدير تذهب عن النار فاعليتها وحدتها. وتخمد منها حرارتها، فيحفظ الله نبيه إبراهيم من فعلها، وينقذه من لظاها وسعيرها، ويجعلها برداً وسلاماً. . فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم.

كيف؟

ولماذا نسأل عن هذه وحدها. و « كوني » هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان، وتنشأ بها عوالم، وتخلق بها نواميس: ﴿إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون﴾ [يٓس: ٨٢]. .

فلا نسأل: كيف لم تحرق النار إبراهيم، والمشهود المعروف أنَّ النار تحرق الأجسام الحية؟ فالذي قال للنار: كوني حارقة. هو الذي قال لها: كوني برداً وسلاماً. وهي الكلمة الواحدة التي تنشىء مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول. مألوفاً للبشر أو غير مألوف. إنَّ الذين يقيسون أعمال الله ـ سبحانه ـ إلى أعمال البشر هم الذين يسألون: كيف كان هذا؟ وكيف أمكن أن يكون؟ فأمَّا الذين يدركون اختلاف الطبيعتين، واختلاف الأداتين، فإنَّهم لا يسألون أصلاً، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلاً علمياً أو غير علمي. فالمسألة ليست في هذا الميدان أصلاً. ليست في ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر. وكل منهج في تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه، لأنَّ أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود.

إنَّ علينا فقط أن نؤمن بأنَّ هذا قد كان، لأنَّ صانعه يملك أن يكون. أمَّا كيف صنع بالنار فإذا هي برد وسلام؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار. فذلك ما سكت عنه النص القرآني لأنَّه لا سبيل إلى إدراكه بعقل

البشر المحدود. وليس لنا سوىٰ النص القرآني من دليل.

وما كان تحويل النار برداً وسلاماً على إبراهيم إلاَّ مثلاً تقع نظائره في صور شتّىٰ. ولكنها قد لا تهز المشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر. فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية، وإن هي إلاَّ لفتة صغيرة، فإذا هي تحيي ولا تميت، وتنعش ولا تخمد، وتعود بالخير وهي الشرّ المستطير.

إنَّ ﴿يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ لتتكرر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم؛ وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات. وإن هي إلاَّ رمز للكلمة التي تبطل كل قول، وتحبط كل كيد، لأنَّها الكلمة العليا التي لا ترد!

﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ [الأنبياء: ٧٠]..

وقد روي أنَّ الملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب «بالنمرود» وهو ملك الآراميين بالعراق. وأنَّه قد أُهلك هو والملأ من قومه بعذاب من عند الله. تختلف الروايات في تفصيلاته، وليس لنا عليها من دليل. المهم أنَّ الله قد أنجىٰ إبراهيم من الكيد الذي أُريد به، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد!

وهكذا كما بطلت حجة القوم الكافرين من قبل فلم يستطيعوا أن يقابلوا إبراهيم بمنطق.. أبطل الله كيدهم الذي أرادوه كذلك ﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: اقتلوه أو حرِّقوه. فأنجاه الله من النار. إنَّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ [العنكبوت: ٢٤]..

وقد كشف القرآن عن هذا الجواب الغريب العجيب الذي يحمل تبجح الكفر والطغيان، بما يملك من قوة وسلطان..

لقد كان رد القوم على دعوة التوحيد ومنطق الفطرة الفريد: اقتلوه أو

حرِّقوه. . جواباً على تلك الدعوة الواضحة البسيطة المرتبة التي خاطب بها إبراهيم قلوبهم وعقولهم على النحو الذي بينًا. .

وإذ إنَّ الطغيان أسفر عن وجهه الكالح؛ ولم يكن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يملك له دفعاً، ولا يستطيع منه وقاية. وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول. . فهنا تتدخل القدرة سافرة كذلك. تتدخل بالمعجزة الخارقة لمألوف البشر فأنجاه الله من النار. . وكانت نجاته من النار على النحو الخارق ـ كما تقدَّم ـ الذي تمَّت به آية لمن تهيأ قلبه للإيمان. ولكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه الآية الخارقة، فدلَّ هذا على أنَّ الخوارق لا تهدي القلوب، إنَّما هو الاستعداد للهدىٰ والإيمان: **﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾** . .

الآية الأُولىٰ هي تلك النجاة من النار. والآية الثَّانية هي عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة. . والآية الثالثة هي أنَّ الخارقة لا تهدي القلوب الجاحدة. ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات، وتصريف القلوب، وعوامل الهدى والضلال. ثمَّ يمضي القرآن في توكيد وحسم أخير: **﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾** [الصافَّات: ٩٨]. .

إنَّه يعرض العاقبة التي تُحقِّق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائه المكذبين. . **﴿فجعلناهم الأسفلين﴾** وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد؟ وماذا يملك أُولئك الضعاف المهازيل ـ من الطغاة والمتجبرين وأصحاب السلطان وأعوانهم من الكبراء ـ إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين؟. .

ويمضي القرآن الكريم في القصة بعد نجاة إبراهيم من النار. . **﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: اقتلوه أو حرِّقوه. فأنجاه الله من النار. إنَّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. . . وقال: إنَّما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا، ثمَّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم**

بعضاً، ومأواكم النار، وما لكم من ناصرين﴾ [العنكبوت: ٢٤، ٢٥]..

لقد يئس إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ من إيمان القوم الذين لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة. فإذا هو يجبههم بحقيقة أمرهم، قبل أن يعتزلهم جميعاً: **﴿وقال: إنَّما اتَّخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا..﴾**..

إنَّه يقول لهم: إنَّكم اتخذتم الأوثان من دون الله، لا اعتقاداً واقتناعاً بأحقية هذه العبادة؛ إنَّما يجامل بعضكم بعضاً. ويوافق بعضكم بعضاً، على هذه العبادة؛ ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه ـ حين ظهر الحق له ـ استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة! وإنَّ هذا ليقع في الجماعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجدّ، فيسترضي الصاحب صاحبه على حساب العقيدة؛ ويرى أمرها أهون من أن يُخالف عليه صديقه! وهي الجدّ كل الجدّ، الجد الذي لا يقبل تهاوناً ولا استرخاءً ولا استرضاءً.

ثمَّ يكشف لهم عن صفحتهم في الآخرة، فإذا المودة التي يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة، والتي يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليها.. إذا هي يوم القيامة عداء ولعن وانفصام:

﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾..

يوم يتنكر التابعون للمتبوعين، ويكفر الأولياء بالأولياء، ويتهم كل فريق صاحبه أنَّه أضله، ويلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه!

ثمَّ لا يجدي ذلك الكفر والتلاعن شيئاً، ولا يدفع عن أحد عذاباً:

﴿ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾..

النار التي أرادوا أن يحرقوه بها، فنصره الله منها ونجاه. فأمَّا هم فلا نصرة لهم ولا نجاة!

النار التي أرادوا أن يعذبوه بها، فجعلها الله برداً وسلاماً عليه. فأمَّا هم

فسيلاقون النار التي وقودها الناس والحجارة. . النار التي يقيمون عليها فهم فيها خالدون في عذاب أليم. . النار التي هي طعامهم وشرابهم. . شراباً حميماً ساخناً يقطع أمعاءهم ويحرق كيانهم، يشوي الحلوق والبطون. . هؤلاء يقذفون في النار يتكدسون فيها وهي تتلمظ وتتحرق وتحرقهم. . النار التي يواجهون لا يملكون دفعها أبداً، فهم في أمر داهم قاصم، ليس منه واق ولا عاصم. . النار التي جعلها الله للطاغين مآباً، لابثين فيها أحقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلَّا حميماً وغسّاقاً جزاءً وفاقاً. . النار التي خُلقت ووجدت تنتظرهم وتترقبهم فإليها يَنتهون. . النار للإقامة الطويلة المتجددة أحقاباً بعد أحقاب. . نار الله الموقدة التي تطَّلع على الأفئدة. إنَّها عليهم مؤصدة في عَمَدٍ ممددة. . النار تحرق تلك الأفئدة المنكوسة المطموسة التي خربها العمىٰ والهوىٰ. . النار جزاء للرؤوس التي انحنت للأوثان بعد نداء العقيدة بأوضح بيان. . النار مغلقة عليهم، لا ينقذهم منها أحد، ولا يسأل عنهم فيها أحد. . **﴿ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾**. .

الحلقة الثانية:

الهجرة إلى الله:

ثمَّ تجيء الحلقة الثانية من قصة إبراهيم. . لقد انتهىٰ أمره مع أبيه وقومه. لقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين؛ ونجَّاه من كيدهم أجمعين.

عندئذٍ استدبر مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة؛ وطوىٰ صفحة لينشر صفحة:

﴿وقال: إنِّي ذاهب إلىٰ ربِّي سيهدين﴾ [الصافَّات: ٩٩]. .

هكذا. . إنِّيَ ذاهب إلى ربِّي. . إنَّها الهجرة. . وهي هجرة نفسية قبل

أن تكون هجرة مكانية. هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته. يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس. ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل. ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شيء، طارحاً وراءه كل شيء، مسلماً نفسه لربه لا يستبقي منها شيئاً. موقن أن ربه سيهديه، وسيرعىٰ خطاه، وينقلها في الطريق المستقيم.

إنَّها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن أواصر شتىٰ إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء. إنَّه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين.

لقد ذهب إبراهيم إلى الله حقاً، وقد خلص قلبه من أوهاق الأرض وتعلق بالسماء، ترف أشواقه حولها، يتطلع إلى خالقه في علاه، بلا عائق يحول بين قلبه وبين الانطلاق إلى ربه ﴿إنِّي ذاهب إلىٰ ربِّي سيهدين﴾..

هاجر إلى الله وهو مطمئن باليقين الذي يُحيي القلب فيرىٰ ويدرك.. لقد بَيَّنَ هذا النبي المصطفىٰ المختار المقصود من خلافة الأرض وتعميرها. بيَّن ذلك سلوكاً، فكان قدوة وإماماً كما عَلَّمه الله، لقد أوضح بسيرته الشريفة أنَّ المقصود ليس هو إهمال الأرض وأسبابها، إنَّما المقصود هو ألاَّ يُعلِّق نفسه بها، وألا يغفل عن الله في عمارتها. ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء، وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنَّ الله وراءها، فالأمر كله بيد الله رب العالمين يعطي ويهب، ويأخذ ويدع، متى يشاء وحين يشاء.. كلمته قادرة وحكمه نافذ قاهر، وما وَعَدَ الله لا بد أن يكون..

لقد انطلق إبراهيم من إسار الأسباب الظاهرة في الأرض، وكان يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت الله، يرىٰ في الأسباب آيات تنطق وتدل على خالق الأسباب، فعاش موصولاً قلبه بالله.. قدماه ثابتتان على الأرض وروحه موصولة برب السماء.

لقد ذهب إبراهيم إلى ربه متجرداً من كل ما يثقل روحه ويقيدها،

موحداً لله، مسلماً للذي خلقَ كل شيء وحده لا شريك له. له الحكم وإليه المرجع والمآب.

هاجر إبراهيم وفي النفس معنى العبودية لله واقعاً وشعوراً. وقد استقرَّ في كيانه أنَّ هناك في هذا الوجود عبداً ورباً. عبداً يَعبد. ورباً يُعبد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأن ليس هناك إلَّا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس في هذا الكون إلَّا عابد ومعبود؛ وإلَّا رب واحد والكل له عبيد.

ذهب إبراهيم إلى ربه وتوجَّه إليه بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، توجه بكل شيء إلى الله خالصاً، تجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله..

بهذا وذاك بلغ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ما بلغ من إكرام ومكانة عند الله في الأرض وفي السماء.. لقد صبر على الشدائد ورضي بِقَدَر الله فكانت حياته كلها طاعة لله وعبادة له، لا أرب له فيها، ولا غاية له من ورائها، إلَّا الطاعة والاستسلام ﴿**إذ قال له ربه أسلم. قال: أسلمتُ لله رب العالمين**﴾ [البقرة: ١٣١]..

لقد وجد إبراهم الطمأنينة والرضىٰ في نفسه وروحه، وجد أُنساً برضىٰ الله عنه، ورعايته له ولذريته، ثمَّ يجد في هذا الإسلام لله، في الآخرة، تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

إنَّ مدلول قول إبراهيم ﴿**إنِّي ذاهب إلى ربِّي سيهدين**﴾ لمدلول عظيم. يتجلىٰ في قوله كل معاني العبودية والاستسلام، والثقة المطلقة واليقين الجازم بالله.. فقد جاهد طويلاً ليصل إلى الله ويتصل به، احتمل في جهاده ما احتمل، فلم ينكص ولم ييأس، صبر على فتنة النفس ورغائبها، وعلى فتنة أبيه وتهديده، وعلى فتنة الناس عبدة الأوثان، الذين واجههم بالكلمة المطمئنة الهادئة ثمَّ بالحسم والعزم الشديد.. سار في دعوته في طريق شاق طويل وغريب، في بيئة منتكسة العقل ومرتكسة

التفكير . . حتى ألقوه في النار فنجاه الله برحمة منه ورضوان .

ذهب إبراهيم إلى الله صدقاً . . ذهب مهاجراً من أوهاق الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة. فقد اعتزل أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم، وهجر أهله ودياره . . تحرر من الأوهاق الأرضية والأثقال النفسية، وخلص لله فكان عبداً له، جاء إلى ربه بقلب منيب سليم، فقام بما خُلق له، وحقق غاية وجوده، ونهض بأمر رب العالمين يدعو إليه برضىً واستسلام .

وهو مع هذا لم يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه وآماله حدود العبد. فهو يعلم أنَّ الله ربه، فلم يتقحم فيما هو من شؤون الرب، واستقرت مشاعره عند هذا الحد، ورضي الله عنه، ورضي هو عن الله .

وهكذا تتجلىٰ جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة التي تقررها آية واحدة: ﴿**إنِّي ذاهب إلىٰ ربِّي سيهدين**﴾ . . وهي حقيقة كفيلة أن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر في الضمير . .

وهكذا لمَّا ضاقت الحياة بإبراهيم مع هؤلاء الوثنيين الجاحدين اعتزلهم وما يعبدون من دون الله، فرَّ بدينه متنقلاً من مكان إلى مكان، فرحل من العراق إلى الشام، ومعه زوجه سارة، وابن أخيه لوط. يقول سبحانه وتعالىٰ عن ذلك: ﴿**فآمن له لوط. وقال: إنِّي مهاجر إلى ربِّي إنَّه هو العزيز الحكيم**﴾ [العنكبوت: ٢٦] . .

لقد انتهت دعوة إبراهيم لقومه، والمعجزة التي لا شك فيها. انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط. ابن أخيه فيما تذكر بعض الروايات. وهاجر معه من أور الكلدانيين في العراق إلى ما وراء الأردن حيث استقرَّ بهما المقام . . ﴿**ونجَّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**﴾ [الأنبياء: ٧١] . .

وهي أرض الشام التي هاجر إليها هو وابن أخيه لوط. فكانت مهبط

الـوحي فتـرة طـويلة، ومبعث الـرسـل من نسـل إبـراهيم. وفيهـا الأرض المقدسة. وثالث الحرمين. وفيها بركة الخصب والرزق، إلى جانب بركة الوحي والنبوة جيلاً بعد جيل.

وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة ـ حين اعتزل أباه وقومه ـ وحيداً لا عقب له؛ وهو يترك وراءه أواصر القربىٰ والأهل، والصحبة والمعرفة. وكل مألوف له في ماضي حياته، وكل ما يشده إلى الأرض التي نشأ فيها، والتي انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه في الجحيم! فاتجه إلى ربه الـذي أعلن أنه ذاهب إليه. اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح: **﴿ربِّ هب لي من الصالحين﴾** [الصافَّات: ١٠٠]..

حقيقة الإيمان. وجمال الطاعة. وعظمة التسليم:

لقد ترك إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وطناً وأهلاً وقوماً. فعوَّضه الله الأرض المباركة وطناً خيراً من وطنه وعوَّضه أهلاً خيراً من أهله. وعوَّض من ذريته أُمة عظيمة العدد قوماً خيراً من قومه. وجعل من نسله أئمَّة يهدون الناس بـأمر الله، وأوحىٰ إليهم أن يفعلوا الخيـرات على اختلافهـا، وأن يقيمـوا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. وكانوا طائعين لله عابـدين.. فَنِعْمَ العوض، ونعم الجزاء، ونعمت الخاتمـة التي قسمها الله لإبـراهيم. لقد ابتلاه بالضـراء فصبر، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل..

وهكذا اعتزل إبراهيم أهله وقومه الوثنيـين وخرج فارّاً بدينه إلى ربه يسأله الهدىٰ والذرية المسلمة وقد عاش ـ عليه السَّلام ـ مدة طويلة دون أن يرزقه بولد من زوجته سارة، وكانت سارة حزينة من أجـل ذلك، فـوهبت لزوجها إبراهيم جاريتها هاجر فتزوجها.. وها هـوذا إبراهيم العبـد الأوَّاه المنيب يسأل ربه الذرية الصالحة:

﴿ربِّ هب لي من الصالحين﴾ [الصافَّات: ١٠٠]..

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد، الذي ترك وراءه كل شيء، وجاء إليه بقلب سليم..

﴿فبشَّرناه بغلام حليم﴾ [الصافَّات: ١٠١]..

هو إسماعيل - كما يرجح سياق السيرة وسورة الصافَّات وسنرىٰ آثار حلمه الذي وصفه ربه وهو غلام. ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته. لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام، الذي يصفه ربه بأنَّه حليم.

والآن آن أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم. بل في حياة البشر أجمعين. وآن أن نقف من سياق القصة في القرآن أمام المَثَل الموحي الذي يعرضه الله للأُمَّة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم..

﴿فلمَّا بلغ معه السعي. قال: يَـا بنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك، فانظر ماذا ترىٰ. قال: يَـا أبتِ افعل مـا تؤمر: ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين﴾ [الصافَّات: ١٠٢]..

يا لله! ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم..

هذا إبراهيم الشيخ. المقطوع من الأهل والقرابة. المهاجر من الأرض والوطن. ها هو يرزق في كبرته وهرمه بغلام. طالما تطلع إليه. فلمَّا جاءه جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنَّه حليم. وها هو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه ينفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة.. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرىٰ في منامه أنَّه يذبحه. ويدرك أنَّها إشارة من ربه بالتضحية. فماذا؟

إنَّه لا يتردد، ولا يخالجه إلاَّ شعور الطاعة، ولا يخطر إلاَّ خاطر التسليم.. نعم إنَّها مجرد إشارة.. مجرد إشارة.. وليست وحياً صريحاً، ولا أمراً مباشراً. ولكنها إشارة من ربه.. وهذا يكفي.. هذا يكفي ليلبي

ويستجيب. ودون أن يعترض. ودون أن يسأل ربه. . لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد؟!

ولكنه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب. . كلا إنَّما هو القبول والرضىٰ والطمأنينة والهدوء. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب:

﴿قال: يَـا بنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك. فانظر ماذا ترىٰ﴾. .

فهي كلمات المالِك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يواجهه، الواثق بأنَّه يؤدي واجبه. وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه، في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي، ويستريح من ثقله على أعصابه!

والأمر شاق ـ ما في ذلك شك ـ فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة. ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته. . إنَّما يطلب إليه أن يتولىٰ هو بيده. يتولىٰ ماذا؟ يتولىٰ ذبحه. . وهو ـ مع هذا ـ يتلقىٰ الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض؛ ويطلب إليه أن يتروّىٰ في أمره، وأن يرىٰ فيه رأيه!

إنَّه لا يأخذ ابنه على حين غرة لينفذ إشارة ربه. وينتهي. إنَّما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر. فالأمر في حسه هكذا. ربه يريد. فليكن ما يريد. على العين والرأس. وابنه ينبغي أن يعرف. وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً، لا قهراً واضطراراً. لينال هو أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم! إنَّه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها؛ وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقىٰ من الحياة وأفنىٰ. .

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح، تصديقاً لرؤيا رآها أبوه؟

إنَّه يرتقي إلى الأُفق الذي ارتقىٰ إليه من قبل أبوه:

﴿قال: يَـا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ـ إن شاء الله من الصَّابرين﴾..

إنَّه يتلقىٰ الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب، ولكن في رضىٰ كذلك وفي يقين..

﴿يَـا أبت﴾.. في مودة وقربىٰ. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته.

﴿افعل ما تؤمر﴾.. فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه. يحس أنَّ الرؤيا إشارة. وأنَّ الإشارة أمر. وأنَّها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب.

ثمَّ هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرتـه وطاقتـه في الاحتمال؛ والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعـانته على التضحيـة، ومساعدته على الطاعة:

﴿ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين﴾..

ولم يأخذها بطولة.. ولم يأخذها شجاعة. ولـم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة. ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجماً ولا وزناً.. إنَّما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به..

يا للأدب مع الله! ويا لروعة الإيمان. ويا لنبل الطاعة.. ويا لعظمة التسليم!

ويخـطو المشهد خـطوة أُخرىٰ وراء الحـوار والكلام.. يخـطو إلى التنفيذ:

﴿فلمَّا أسلما وتلَّه للجبين﴾ [الصَّافات: ١٠٣]..

ومرة أُخرىٰ يرتفع نبل الطاعة.. وعظمة الإيمان.. وطمأنينة الرضىٰ وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان..

إنَّ الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً. وإنَّ الغلام يستسلم

فلا يتحرك اقتناعاً. وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً. لقد أسلما.. فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضىً وتسليم.. وتنفيذ.. وكلاهما لا يجد في نفسه إلَّا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم..

إنَّها ليست الشجاعة والجراءة. وليس الاندفاع والحماسة. لقد يندفع المجاهد في الميدان، يَقتل ويُقتل. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنَّه قد لا يعود. ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر.. ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص!

إنَّما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضىٰ الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أدّيا. كانا قد أسلما. كانا قد حقّقا الأمر والتكليف.. ولم يكن باقياً إلَّا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه.. وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما..

كان الابتلاء قد تمَّ. والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت. وغاياته قد تحققت. ولم يعد إلَّا الألم البدني. وإلَّا الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء. ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء. ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف، وقد جازوا الامتحان بنجاح.

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما. فاعتبرهما قد أدَّيا وحقَّقا وصدقا:

﴿ونـادينـاه أن يَـا إبـراهيم قد صـدقت الرؤيـا. إنّا كـذلـك نجـزي المحسنين. إنَّ هـذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم﴾ [الصافَّات: ١٠٤ - ١٠٧]..

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلاً. فالله لا يريد إلاَّ الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقىٰ في النفس ما تكنّه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ولـو كان هـو الابن فلذة الكبد. ولـو كـانت هي النفس والحيـاة. وأنت - يا إبراهيم - قد فعلت. جدت بكل شيء، وبأعز شيء. وجدت به في رضىٰ وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين. فلم يبق إلاَّ اللحم والدم. وهذا ينوب عنه ذبح. أي ذبح من دم ولحم! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدّت. يفديها بذبح عظيم. قيل: إنّه كبش وجده إبراهيم مهيَّأ بفعل ربه وإرادتـه ليذبحه بدلاً من إسماعيل! وقيل له: ﴿إنَّا كذلك نجزي المحسنين﴾..

نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء. ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوىٰ الوفاء. ونجزيهم بإقدارهم وإصبـارهم على الأداء. ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء!

ومضت بـذلك سنـة النحر في الأضحىٰ(١)، ذكـرىٰ لهذا الحـادث

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما عمِل آدميّ من عملٍ يوم النّحر أحبُّ إلى الله من إهراقِ الدَّم، وإنَّه لَتَأتي يومَ القيامة في قَرْنِه بقُرونها وأشْعارها وأظلافها، وإنْ الـدَّم لَيَقعُ مِنَ الله بمَكـان قبل أن يَقَـع من الأرض، فَطِيبُـوا بها نَفْسـاً» رواه ابن مـاجـة، والترمذي، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
عن زيد بن أرقم قال: قال أصحابُ رسول الله ﷺ: يا رَسولَ الله ما هذه الأضاحي؟ قال: سُنَّةُ أبيكم إبراهيم - صلوات الله عليه وسلامه -. قالوا: فما لنا يا رسولَ الله؟ قال: بكل شَعْرَة من الصوف حسنة. قالوا: فالصوفُ قال: بكل شَعْرة من الصوف حسنة». رواه الترمـذي وابن ماجة والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في يوم أضحىٰ: «ما عَمِل آدمي في هذا اليوم أفضل من دَم يُهراق إلاَّ أن يكون رَحماً تُوصل». رواه الطبراني في الكبير. =

العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان. وجمال الطاعة. وعظمة التسليم. والذي ترجع إليه الأمَّة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم، الذي تتبع ملته، والذي ترث نسبه وعقيدته. ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنَّها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه. ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلاَّ كما يطلب هو إليها أن تقدم!

ثمَّ لتعرف أنَّ ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء؛ ولا أن يؤذيها بالبلاء،

= وروى عن علي رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يَا أيها النَّاسُ ضحُّوا، واحتسبوا بدمائها، فإنَّ الدم وإن وَقَعَ في الأرض، فإنَّه يقعُ في حرز الله عزَّ وجلّ». رواه الطبراني في الأوسط.

وروي عن الحسين بن عليّ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضَحّىٰ طَيِّبَةً نَفْسه محتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار» رواه الطبراني في الكبير.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ما أُنفِقَت الوَرِق في شيء أحبُّ إلى الله من نَحْرٍ يُنْحَر في يوم عيد». رواه الطبراني في الكبير والأصبهاني.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة قُومي إلى أضحِيَتك فاشهديها، فإنَّ لكِ بأوَّل قطرة تقطُر من دمها أن يُغفر لَكِ ما سَلَف من ذُنُوبك، قالت: يا رسول الله أَلَنا خاصَّةً أهل البيت، أو لنا وللمسلمين؟ قال: بل لنا وللمسلمين». رواه البزار، وأبو الشيخ بن حبان في كتاب الضحايا وغيره، وفي إسناده: عطية بن قيس وُثِّق وفيه كلام. ورواه أبو القاسم الأصبهاني عن علي ولفظه: «أنَّ رسول الله ﷺ قال: يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك، فإنَّ لك بأول قطرة تَقْطُر من دمها مغفرةً لكل ذنب، أَمَا إنَّه يُجاء بلحمها ودَمِها تُوضع في ميزانك سَبعين ضعفاً. قال أبو سعيد: يا رسول الله هذا لآل محمَّد خاصة، فإنَّهم أَهْلٌ لما خُصُّوا به من الخير، أو للمسلمين عامة؟ قال: لآلِ محمَّد خاصة، وللمسلمين عامة». قال المنذري: وقد حسَّن بعض مشايخنا حديث عليٍّ هذا، والله أعلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن وَجَدَ سَعَةً لأن يُضَحِّي فلم يُضَحِّ: فلا يحضر مُصلَّانا». رواه الحاكم مرفوعاً هكذا، وصححه، وموقوفاً ولعلَّه أشبه.

والمعنىٰ: الذي يجد مالاً يشتري به أضحيته ويبخل فلا يقرب المصلَّىٰ الذي يجتمع به المسلمون لصلاة العيد، لأنَّه ناقص الثواب، شحيح في طلب زيادة الأجر. وفيه الترغيب في الأضحية، والحث على فعلها.

إنَّما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية مستسلمة لا تقدم بين يديه، ولا تـتألىٰ عليه، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام. واحتسبها لها وفاء وأداء. وقبل منها وفدّاها. وأكرمها كما أكرم أباها. .

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ [الصافَّات: ١٠٨]. .

فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون. وهو أُمَّة. وهو أبو الأنبياء. وهو أبو هذه الأُمَّة المسلمة. وهي وارثة ملته. وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم. فجعلها الله له عقباً ونسباً إلى يوم الدين.

﴿سلام على إبراهيم﴾ [الصافَّات: ١٠٩]. .

سلام عليه من ربه. سلام يسجل في كتابه الباقي. ويرقم في طوايا الوجود الكبير.

﴿كذلك نجزي المحسنين﴾. . كذلك نجزيهم بالبلاء. . والـوفاء. والذكر. والسلام. والتكريم. .

﴿إنَّه من عبادنا المؤمنين﴾ [الصافَّات: ١١١]. . وهذا جزاء الإيمان. وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين.

بشرىٰ ورحمة واطمئنان:

ثمَّ يتجلىٰ الله سبحانه على عبده إبراهيم بفضله مرة أُخرىٰ ونعمتـه فيهب له إسحاق في شيخوخته. ويباركه ويبارك إسحاق. ويجعل إسحاق نبياً من الصالحين: **﴿وبشَّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾** [الصافَّات: ١١٢، ١١٣]. .

وكان إبراهيم ـ كما تقدم بيانه ـ قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه في العراق، وعَبَر الأُردن، وسكن في أرض كنعان في البادية يتابع نشر الدعوة إلى الله، ويقوم بأداء رسالته. . ثمَّ جاءته البشرىٰ والرحمة: **﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرىٰ قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. .﴾** [هود: ٦٩]. .

لقد ظنَّ إبراهيم أنهم ضيوف: **﴿ونبِّئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا: سلاماً. .﴾** [الحجر: ٥١]. . **﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟! إذ دخلوا عليه، فقالوا: سلاماً. قال: سلام قوم مُنْكَرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. .﴾** [الذَّاريات: ٢٤ ـ ٢٦]. .

ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال: **﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾**. . تنويهاً بهذا الحديث، وتهيئة للأذهان. مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين؛ إمَّا لأنَّهم كذلك عند الله، وإمَّا إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد في القصة.

وعلى عادة البدو في إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفاً ـ كما قلنا ـ، ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحاً. فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون: سلاماً. ويرد عليهم السَّلام، وهو ينكرهم ولا يعرفهم. ما كاد يتلقىٰ السَّلام ويرده حتى يذهب إلى أهله ـ أي زوجه ـ مسارعاً ليهيِّىء لهم الطعام. **﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾** [هود: ٦٩]. . أي سمين مشوي على حجارة الرضف المحماة. . ها هو ذا إبراهيم يجيء به طعاماً وفيراً يكفي عشرات: **﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾**. . وهم كانوا ثلاثة فيما يُقال. . تكفيهم كتف من هذا العجل السمين!

﴿فلمَّا رأىٰ أيديهم لا تصل إليه﴾ أي لا تمتد إليه **﴿نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾** [هود: ٧٠]. . فالذي لا يأكل الطعام يريب، ويشعر بأنَّه ينوي خيانة أو غدراً بحسب تقاليد أهل البدو. . وأهل الريف عندما يتحرجون من خيانة الطعام، أي من خيانة من أكلوا معه طعاماً! فإذا امتنعوا عن طعام أحد فمعنىٰ هذا أنَّهم ينوون به شراً، أو أنَّهم لا يثقون في نياته لهم. .

﴿فقرَّبه إليهم. قال: ألا تأكلون﴾؟ [الذَّاريات: ٢٧]. . وجاء هذا السؤال بعد أن رأىٰ أيديهم لا تصل إليه، ولا يبدو عليهم أنَّهم سيأكلون

طعامه، فالملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض.. **﴿فأوجس منهم خيفة﴾** [الذَّاريات: ٢٨].. إمَّا لأنَّ الطارىء الذي لا يأكل طعام مضيفه يُنبىء عن نية شر وخيانة. وإمَّا لأنَّه لمح أنَّ فيهم شيئاً غريباً! **﴿قال إنَّا منكم وجلون﴾** [الحجر: ٥٢]..

عندئذٍ كشفوا له عن حقيقتهم ومهمتهم: قالوا: **﴿إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾**.. **﴿قالوا: لا تخف إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾** [هود: ٧٠].. وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط! ولكن حدث في هذه اللحظة ما غيَّر مجرىٰ الحديث:

﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾.. وربما كان ضحكها ابتهاجاً بهلاك القوم الملوثين..

﴿فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: ٧١]..

وهكذا كشف رُسل الله عن حقيقتهم ثمَّ طمأنوه وبشَّروه: **﴿قالوا: لا تخف وبشَّروه بغلام عليم﴾** [الذَّاريات: ٢٨]. وهي البشارة بإسحاق من زوجه العقيم..

إنَّها بشرىٰ الحق:

﴿ونبِّئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا: سلاماً. قال: إنَّا منكم وجلون. قالوا: لا توجل إنَّا نبشِّرك بغلام عليم. قال: أبشَّرتموني على أن مسَّنيَ الكبر؟ فبِمَ تُبشِّرون؟ قالوا: بشَّرناك بالحق فلا تكن من القَّانطين. قال: ومن يقنط من رحمة ربِّه إلاَّ الضالُّون؟﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦]..

لقد عجَّل الملائكة لإبراهيم البشرىٰ.. وقد استبعد - عليه السَّلام - في أول الأمر أن يرزق بولد (وزوجته كذلك عقيم) فردته الملائكة إلى اليقين:

﴿.. قالوا: بشَّرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾..

أي من اليائسين. فآب إبراهيم سريعاً، ونفىٰ عن نفسه القنوط من رحمة الله:

﴿قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلاَّ الضالُّون؟﴾..

وبرزت كلمة الرحمة في حكاية قول إبراهيم، وبرزت معها الحقيقة الكلية: أنَّه لا يقنط من رحمة ربه إلاَّ الضالون. الضالون عن طريق الله، الذين لا يستروحون روحه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأمَّا القلب الندي بالإيمان، المتصل بالرَّحمٰن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمَّت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبَّد، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر.. فإنَّ رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين. وقدرة الله تنشىء الأسباب كما تنشىء النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود.

وهنا اطمأنَّ إبراهيم إلى الملائكة، وثابت نفسه واطمأنَّت للبشرىٰ.

هذا ما كان من أثر البشرىٰ العجيبة المدهشة على إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

أمَّا زوجته سارة وقد سمعت الخبر: **﴿فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** [هود: ٧١]. وكانت عقيماً لم تلد وقد أصبحت عجوزاً.. ففاجأتها البشرىٰ بإسحاق. وهي بشرىٰ مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب.

والمرأة ـ وبخاصة العقيم ـ يهتز كيانها كله لمثل هذه البشرىٰ **﴿فأقبلت امرأته في صرّة فصكَّت وجهها. وقالت عجوز عقيم﴾** [الذَّاريات: ٢٩].. وقد سمعت البشرىٰ، فبغتت وفوجئت، فندت منها صيحة الدهش، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها. وقالت: عجوز عقيم. تُنبىء عن دهشتها لهذه البشرىٰ وهي عجوز. وقد كانت من الأصل عقيماً.

لقد هزَّتها المفاجأة وأربكتها **﴿قالت: يَا ويلتا! أألد وأنا عجوز وهٰذا**

بعلي شيخاً؟ إنَّ هذا لشيء عجيب﴾ [هود: ٧٢]. .

لقد أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تـتوقعها أبداً، فنسيت أنَّ البشرىٰ تحملها الملائكة. . **﴿إنَّ هـٰذا لشيء عجيب﴾**. . وهو عجيب حقاً. فالمرأة ينقطع طمثها عادة في سن معينة فلا تحمل ولكن لا شيء بالقياس إلى قدرة الله عجيب:.

﴿قالوا: أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت. إنَّه حميد مجيد﴾ [هود: ٧٣]. .

ولا عجب من أمر الله. فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنىٰ هذا أنَّها سنة لا تـتبدل. وعندما يشاء الله لحكمة يريدها ـ وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه ـ يقع ما يخالف العادة، مع وقوعه وفق السنة الإلـٰهية التي لا نعلم حدودها، ولا نحكم عليها بما تجـري به العادة في أمد هو على كل حال محدود، ونحن لا نستقرىء جميع الحوادث في الوجود.

والَّذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله سبحانه في كتابه ـ وقوله الفصل وليس للعقل البشري قول في ذلك القول ـ وحتى الذين يقيدون مشيئة الله بما يقرر الله ـ سبحانه ـ أنَّه ناموسه، لا يدركون حقيقة الألوهية كذلك! فمشيئة الله ـ سبحانه ـ طليقة وراء ما قرره الله ـ سبحانه ـ من نواميس. ولا تـتقيد هذه المشيئة بالنواميس.

نعم إنَّ الله ـ سبحانه ـ يجري هذا الكون وفق النواميس التي قدَّرها له. . ولكن هذا شيء والقول بتقيد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر!

إنَّ الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها. فهو لا يجري ولا ينفذ آلياً. فإذا قدر الله في مرة أن يجري الناموس بصورة أُخرىٰ غير التي جرىٰ بها في مرات سابقة كان ما قدَّره الله ولم يقف الناموس في

وجه هذا القدر الجديد. . ذلك أنَّ الناموس الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق.

لقد ردّها الملائكة المرسلون إلى الحقيقة الأُولىٰ. حقيقة القدرة التي لا يُقيدها شيء، والتي تُدبر كل أمر بحكمة وعلم: **﴿قالوا: كذلك قال ربك، إنَّه هو الحكيم العليم﴾** [الذَّاريات: ٣٠]. .

وكل شيء يكون إذا قيل له: كن. وقد قال الله. فماذا بعد قوله؟

إنَّ الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري، وتحدَّان من تصوراته. فيدهش إذ يرىٰ ما يخالف المألوف له؛ ويعجب كيف يكون؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون! والمشيئة المطلقة ماضية في طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود؛ تبدع ما تشاء، بغير ما حدود أو قيود!

وإلى هنا كان إبراهيم وزوجه قد اطمأنَّا إلى رُسل الله، وسكن قلبهما بالبشرىٰ التي حملوها إليهما.

وبعد. . نقف بخشوع وتَبَتُّل أمام قَدَر الله ورحمته. . رحمة الله التي غمرت عبده إبراهيم الحليم الأوَّاه المنيب. . الذي اعتزل أباه وأهله ووطنه وما يعبدون من دون الله. . فهَجَر دياره وقومه فاراً من الخضوع لعبادة الأوثان وعبادة العباد إلى الاستسلام لرب العباد.

هجر كل شيء حنيفاً مسلماً لله رب العالمين. فلم يتركه ربه وحيداً. بل وَهَبَ له ذرية وعوَّضه خيراً:

﴿فلمَّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب. وكلًّا جعلنا نبيّاً. ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠]. .

وإسحاق بن إبراهيم، رزقه من سارة ـ وكانت قبله عقيماً، كما تقدَّم ـ

ويعقوب هو ابن إسحاق: ولكنه يحسب ولداً لإبراهيم لأنَّ إسحاق رُزِقَه في حياة جَدِّه، فنشأ في بيته وحجره، وكان كأنَّه ولده المباشر؛ وتعلَّم ديانته ولقَّنها بنيه. وكان نبياً كأبيه.

﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾.. إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم.. والرحمة تُذكر هنا لأنَّها السمة البارزة في حياة إبراهيم، وهي هبة الله التي تعوض إبراهيم عن أهله ودياره، وتُؤنسه في وحدته واعتزاله.

﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾.. فكانوا صادقين في دعوتهم. مسموعي الكلمة في قومهم. يُؤخذ قولهم بالطاعة والتبجيل..

لقد عَوَّض الله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله ـ وطناً وأهلاً وقوماً ـ عَوَّضه عن هذا كله ذرية تمضي فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت في ذريته[1]. وهو عوض ضخم في الدنيا وفي الآخرة:

---

(١) يعرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل من ذرية إبراهيم من النبيين: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب ـ كُلّاً هدينا ـ ونوحاً هدينا من قبل ـ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون.. وكذلك نجزي المحسنين.. وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ والياس.. كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً.. وكُلّاً فضَّلنا على العالمين.. ومن آبائهم وذرِّياتهم وإخوانهم.. واجتبيناهم وهديناهم إلىٰ صراط مستقيم.. ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده﴾ [الأنعام: ٨٥ ـ ٨٨]. هذا الرهط من الرسل يعرضه السياق القرآني رحمة، ولا يراعي التسلسل التاريخي في هذا العرض، لأنَّ المقصود هنا الموكب بجملته من ذرية أبي الأنبياء عليه السَّلام، لا تسلسله التاريخي..

لقد أكرم الله نبيه إبراهم فجعل من ذريته الأنبياء: إسحاق ويعقوب.. ثمَّ ذكر أربعة عشر نبياً في مجموعات ثلاث كما تقدم في الآيات السابقة. يقول صاحب المنار رحمه الله عن سر الجمع بين هذه الفئات الثلاث. قال الشيخ رشيد رضا: «فالقسم الأول: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون، والمعنىٰ الجامع بين هؤلاء أنَّ الله تعالىٰ آتاهم الملك والأمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة، وقد قدَّم ذكر داود وسليمان لأنَّهما كانا مَلكين غنيين مُنعمين وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميراً غنياً عظيماً محسناً، والثاني وزيراً عظيماً حاكماً متصرفاً، ولكن كُلّاً منهما قد ابتُلي بالضرّاء، فصبر كما ابتلي بالسراء =

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب. وجعلنا في ذريته النبوَّة والكتاب. وآتيناه أجره في الدنيا وإنَّه في الآخرة لمن الصَّالحين﴾ [العنكبوت: ٢٧]. .

وهو فيض من العطاء جزيل، يتجلّىٰ فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذي يتمثل فيه الخلوص لله بكليته، والذي أجمع الطغيان على حرقه بالنار، فكان كل شيء من حوله برداً وسلاماً، وعطفاً وإنعاماً. جزاءً وفاقاً.

وهكذا تتجلىٰ رحمة الله بعبده إبراهيم وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة. . تتلاحق من بعده، تنسل أمة كبيرة فيها الأنبياء وفيها الصالحون ولكن وراثة هذه الذرية لإبراهيم وبنيه من الأنبياء ليست

= فشكر، وأمَّا موسىٰ وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا مَلكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة تمتاز بفرية، والترتيب بين الأزواج على طرق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين؛ فداود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسىٰ وهارون، والظاهر أنَّ موسىٰ وهارون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف، وإنَّ هذين أفضل من داود وسليمان بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء ـ والله أعلم ـ وقد قال تعالىٰ بعد ذكر هؤلاء: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها وهداية الدين وإرشاد الخلق وهذا كما قال الله تعالىٰ عن أحدهم وهو يوسف: ﴿ولمَّا بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾. . [كذلك قال الله عن موسىٰ: ﴿فلمَّا بلغ أشدَّه واستوىٰ آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾. . فهو جزاء خاص بعضه مُعجل في الدنيا، أي ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا قبل الآخرة ومنهم من يُرجىء الله جزاءه إلى الآخرة.

والقسم الثَّاني: زكريا ويحيىٰ وعيسىٰ والياس وهؤلاء قد امتازوا ـ عليهم السَّلام ـ بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زينتها وَجاهها وسلطانها ولذلك خصَّهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم وإن كان كل نبي صالحاً ومحسناً على الإطلاق.

والقسم الثَّالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، وأخَّر ذكرهم لعدم الخصوصية؛ إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا، أو سلطانها ما كان للقسم الأول ولا يد من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثَّاني، وقد قفىٰ على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذي جعله الله تعالىٰ لكل نبي على عالمي زمانه». [تفسير المنار، جـ ٧، ص ٥٨٧]. .

وراثة الدم والنسب! إنَّما هي وراثة الملة والمنهج: فمن اتَّبع فهو محسن. ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد فهو ـ سبحانه ـ يقرر هذه الحقيقة في حكايته عن إبراهيم: **﴿وبشَّرناه بإسحاق نبيـاً من الصَّالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾**. . **﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾** [الصافَّات: ١١٢، ١١٣]. .

لقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصَّلاة واتَّبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذي سنَّه لهم أبوهم إبراهيم. . هم هؤلاء المشركون. .

﴿ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ٨٨]. .

وبعد. . فقد قرر القرآن ينبوع الهدىٰ في هذه الأرض، ملّة إبراهيم، كلمـة التوحيـد التي جعلها الله في ذريتـه من الأنبياء والصـالحين. . **﴿إنَّ إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلىٰ صراط مستقيم، وآتيناه في الدنيـا حسنة وإنَّـه في الآخرة لمن الصالحين﴾** [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢]. .

والقرآن الكريم يرسم إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ نموذجاً للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله. ويقول عنه هنا: إنَّه كان أمة. واللفظ يحتمل أن يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة. ويحتمل أنَّه كان إماماً يُقتدىٰ به في الخير. وورد في التفسير المأثور هذا المعنىٰ وذاك. وهما قريبان فـالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته فكأنَّه أُمَّة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد.

﴿قانتاً لله﴾ طائعاً خاشعاً عابداً **﴿حنيفاً﴾** متجهاً إلى الحق مائلاً إليه **﴿ولم يك من المشركين﴾** فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون!

﴿شـاكراً لأنعمـه﴾ بـالقـول والعمـل. لا كهؤلاء المشـركين الـذين يجحدون نعمة الله قولاً، ويكفرونها عملاً، ويشركون في رزقه لهم ما يدعون

من الشركاء، ويُحرمون نعمة الله عليهم اتباعاً للأوهام والأهواء.

﴿اجتباه﴾ اختاره ﴿وهداه إلىٰ صراط مستقيم﴾ هو صراط التوحيد الخالص القويم.

ذلك شأن إبراهيم الذي يتعلق به اليهود ويتمسح به المشركون.

﴿ثمَّ أوحينا إليك أن اتَّبع ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ فكان ذلك وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد، ويؤكدها النص من جديد على أنَّ إبراهيم **﴿ما كان من المشركين﴾** [النحل: ١٢٣]..

ذلك بيان المشتبهات في العلاقة بين عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم من قبل، وكملت في الدين الأخير، والعقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود. وهو بعض ما جاء هذا الكتاب لتبيانه.

إنَّ وراثة إبراهيم ليست وراثة الدم والنسب إنَّما هي وراثة العقيدة والتوحيد، وقصته ـ عليه السَّلام ـ تكشف عمَّا في عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال كذلك.. وإبراهيم الذي ينتسب إليه العرب. ويقول المشركون: إنَّهم سدنة البيت الذي بناه هو وإسماعيل.. وإبراهيم الذي يدَّعي اليهود أنَّهم من ذريته وهم على انحرافهم وضلالهم.. هؤلاء وأولئك فسقوا وأشركوا **﴿ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾**..

فَهُدىٰ الله الذي جاء به إبراهيم وذريته من الأنبياء هو الهدىٰ الذي يجب اتباعه، وهو المصدر الواحد، الذي يقرر الله ـ سبحانه ـ أنَّه هو هدىٰ الله.. ولو أنَّ هؤلاء العباد من ذرية إبراهيم حادوا عن توحيد الله، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي، فإنَّ مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي يذهب ضياعاً، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعىٰ نبتاً مسموماً فتنتفخ ثمَّ تموت.. وهذا هو الأصل اللغوي للحبط!

المقام العظيم وإمام الصراط المستقيم :

ويمضي القرآن الكريم في الحـديث عن إبراهيم، فقـد اختبره الله تبارك وتعالىٰ، وابتلاه، بأوامر ونواه فأقام بحقهنَّ وأتمَّهنَّ فاستحق أن يكون إماماً للهدىٰ والرشاد:

﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربه بكلمات فأتمَّهنَّ. قال: إنِّي جاعلك للناس إماماً. قال: ومن ذرِّيتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة: ١٢٤]. .

يذكر البيان القرآني ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهنَّ وفاءً وقضاءً. . وقد شهد الله لإبراهيم بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضىٰ الله عنه فيستحق شهادته الجليلة **﴿وإبراهيم الذي وفّىٰ﴾** [النجم: ٣٧]. . وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم. مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عزَّ وجلّ. والإنسان بضعفه ومصوره لا يوفي ولا يستقيم!

عنـدئذٍ استحقَّ إبـراهيم تلك البشرىٰ. أو تلك الثقـة: **﴿قال: إنِّي جاعلك للناس إماماً﴾**. .

إمـاماً يتخـذونه قـدوة، ويقودهم إلى الله، ويقـدمهم إلى الخير[1]،

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ـ فقال: يا خير البرية. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم ـ عليه السّلام ـ». أخرجه مسلم.
يقول الإمام النووي في «شرح مسلم» ٢/١٢١: «قال العلماء إنَّما قال ﷺ هـذا تواضعاً واحتراماً لإبراهيم ﷺ لِخلّته وأبوّته، وإلاَّ فنبينا ﷺ أفضل كما قال ﷺ «أنا سيد ولد آدم» ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول على مَن تَقَدَّمه بل قاله بياناً لما أُمر ببيانه وتبليغه ولهـذا قال ﷺ: «ولا فَخْر» لِيَنفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة. وقيل يُحتمل أنَّه ﷺ قال: «إبراهيم خير البرية» قبل أن يعلم أنَّه سيد ولد آدم، فإن قيل التأويل المذكور ضعيف لأنَّ هذا خبر فلا يدخله خلف ولا نسخ، فالجواب أنَّه لا يمتنع أنَّه أراد أفضل البرية الموجودين في عصره، وأطلق العبارة الموهومة للعموم لأنَّه أبلغ في التواضع، وقد جزم صاحب التحرير بمعنى هذا فقال: المراد أفضل برية عصره، وأجاب القاضي بأنَّه وإن كان =

ويكون لهم تبعاً، وتكون له فيهم قيادة. عندئذٍ تدرك إبراهيم فطرة البشر: الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد. وذلك الشعور الفطري العميق، الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضي في طريقها المرسوم، ويكمل اللاحق ما بدأه السابق، وتتعاون الأجيال كلها وتتساوق.. ذلك الشعور الذي يحاول بعضهم تحطيمه أو تعويقه وتكبيله، وهو مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدىٰ. وعلى أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث، تلبية لتلك الفطرة، وتنشيطاً لها لتعمل، ولتبذل أقصىٰ ما في طوقها من جهد. وما المحاولات التي تبذل لتحطيم هذه القاعدة إلاَّ محاولة لتحطيم الفطرة البشرية في أساسها؛ وإلاَّ تكلُّف وقصر نظر واعتساف في معالجة بعض عيوب الأوضاع الاجتماعية المنحرفة.

وكل علاج يصادم الفطرة لا يفلح ولا يصلح ولا يبقىٰ. وهناك غيره من العلاج الذي يصلح الانحراف ولا يحطم الفطرة. ولكنه يحتاج إلى هدىٰ وإيمان، وإلى خبرة بالنفس البشرية أعمق، وفكرة عن تكوينها أدق، وإلى نظرة خالية من الأحقاد الوبيلة التي تنزع إلى التحطيم والتنكيل، أكثر ممَّا ترمي إلى البناء والإصلاح:

﴿قال: ومن ذرِّيَّتي؟﴾..

وجاءه الرد من ربه الذي ابتلاه واصطفاه، يقرر القاعدة الكبرىٰ التي أسلفنا..

إنَّ الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب. فالقربىٰ ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي وشيجة دين وعقيدة. ودعوىٰ القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلاَّ دعوىٰ الجاهلية، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح:

= خبراً فهو ممَّا يدخله النسخ من الأخبار لأنَّ الفضائل يمنحها الله تعالىٰ لمن يشاء فأخبر بفضيلة إبراهيم إلى أن عَلِم تفضيل نفسه فأخبر به».

﴿قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾ . .

والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي . . والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة . . وكل معنىً من معاني الإمامة والقيادة.

فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظلم ـ أيّ لون من الظلم ـ فقد جرَّد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها؛ بكل معنىً من معانيها.

وهذا الذي قيل لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة بما ظلموا، وبما فسقوا، وبما عتوا عن أمر الله، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم . .

وهذا الذي قيل لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم. بما ظلموا، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم . . ودعواهم الإسلام، وهم يُنحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة، دعوىٰ كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله.

إنَّ التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل. ولا يعترف بقربىٰ ولا رحم إذا انبتَّت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل . . وهو يفصل بين جيل من الأُمَّة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر في عقيدته، بل يفصل بين الوالد والولد، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة. فعرب الشرك شيء وعرب الإسلام شيء آخر. ولا صلة بينهما ولا قربىٰ ولا وشيجة. والذين آمنوا من أهل الكتاب شيء، والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ شيء آخر، ولا صلة بينهما ولا قربىٰ ولا وشيجة.

إنَّ الأُسرة ليست آباء وأبناء وأحفاداً. . إنَّما هي هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة. وإنَّ الأُمَّة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين. . إنَّما هي مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم. . وهذا التصور الإيماني، الذي ينبثق من خلال هذا البيان الرباني، في كتاب الله الكريم.

ويتحدث القرآن الكريم عن البيت في مكة، وكيف أنَّ الله جعله مثابة للناس وأمناً يرجعون إليه، ويأمنون عنده، وخصَّه بآيات فليتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلّىٰ.

﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً، واتَّخذوا من مقام إبراهيم مُصلّىٰ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود﴾ [البقرة: ١٢٥]. .

هذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فَرَوَّعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره. . لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعاً، فلا يروعهم أحد، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم. فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام.

ولقد أُمروا أن يتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلّىٰ ـ ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره ـ فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً. وهو أَوْلىٰ قبلة يتوجه إليها المسلمون، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح، بما أنَّه بيت الله، لا بيت أحد من الناس.

وقد عهد الله ـ صاحب البيت ـ إلى عبدين من عباده صالحين، أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود ـ أي للحجاج الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما، فيورث بالنسب عنهما،

إنّما كانا سادنين له بأمر ربهما، لإعداده لقصاده وعباده من المؤمنين.

وتمضي عجلة التاريخ، فيظللنا عهد إبراهيم - عليه السَّلام - أبو الأنبياء. وهو النموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر:

﴿وإذ قال إبراهيم: ربِّ اجعل هـٰذا البلد آمناً، واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام..﴾ [إبراهيم: ٣٥]..

إنَّ السياق يصور إبراهيم - عليه السَّلام - إلى جوار بيت الله الذي بناه في البلد الذي آل إلى قريش، فإذا بها تكفر فيه بالله، مرتكنة إلى البيت الذي بناه بانيه لعبادة الله! فيصوره في هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر، ويرد الشاردين من أبنائه إلى مسيرة أبيهم لعلَّهم يقتدون بها ويهتدون.

ويبدأ إبراهيم دعاءه: **﴿ربِّ اجعل هـٰذا البلد آمناً﴾**..

فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان، عظيمة الوقع في حسه، متعلقة بحرصه على نفسه. والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمناً، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم، فكفروا النعمة، وجعلوا لله أنداداً، وصدوا عن سبيل الله. ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن: **﴿واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام﴾**..

ويبدو في دعوة إبراهيم الثَّانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه، والتجاؤه إليه في أخص مشاعر قلبه. فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه. ثمَّ ليبرز أنَّ هـذه نعمة أُخرىٰ من نعم الله.

وإنَّها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده. فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود، إلى

المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء. ويخرج من الدينونة المذلـة لشتّىٰ الأرباب، إلى الدينونة الكريمة العـزيزة لـرب العباد.. إنَّهـا لنعمة يـدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه. فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام.

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهـذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيـال التي قبله؛ ومن فتنوا بهـا ومن افتـتنوا وهم خلق كثير: ﴿ربِّ إنَّهنَّ أضللن كثيراً من النَّاس﴾..

ثمَّ يتابع الدعاء.. فـأمَّا من تبـع طريقي فلم يفتـتن بهـا فهو مني، ينتسبِ إليَّ ويلتقي معي في الآصرة الكبرىٰ، آصرة العقيدة: **﴿فمن تبعني فإنَّه منِّي﴾**..

وأمَّا من عصاني منهم فأُفوض أمره إليك: **﴿ومن عصاني فإنَّك غفور رحيم﴾** [إبراهيم: ٣٦]..

وفي هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأوَّاه الحليم؛ فهـو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه، ولا يستعجـل لهم العذاب، بل لا يذكر العذاب، إنَّما يكلهم إلى غفران الله ورحمته. ويلقي على الجو ظلال المغفرة والرحمة؛ وتحت هذا الظل يتوارىٰ ظل المعصية، فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم!

ها هو ذا إبـراهيم ـ عليه السَّـلام ـ يقف بخشوع يـدعو بقلب مفعم الإيمان بربه، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرة خالقه.. يدعو ربه الكريم الذي يجيب الدعاء، السميع العليم:

﴿وإذ قـال إبراهيم: ربِّ اجعـل هـٰذا بلداً آمنـاً، وارزق أهله من الثَّمرات.. من آمن منهم بالله واليوم الآخر.. قال: ومن كفر فأُمتِّعه قليلاً، ثم أضطرُّه إلىٰ عذاب النَّار، وبئس المصير﴾ [البقرة: ١٢٦]..

ومرة أُخرىٰ يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت. ومرة أُخرىٰ يؤكّد معنىٰ الوراثة للفضل والخير.

إنَّ إبراهيم قد أفاد من عظة ربه له في الأُولىٰ. لقد وعىٰ منذ أن قال له ربه: ﴿لا ينال عهدي الظَّالمين﴾..

وعىٰ هذا الدرس.. فهو هنا، في دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات، يحترس ويستثني ويحدد من يعني:

﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾..

إنَّه إبراهيم الأوَّاه الحليم القانت المستقيم، يتأدب بالأدب الذي علَّمه ربه، فيراعيه في طلبه ودعائه.. وعندئذٍ يجيئه ردُّ ربه مكملاً ومبيناً عن الشطر الآخر الذي سكت عنه. شطر الذين لا يؤمنون، ومصيرهم الأليم:

﴿قال: ومن كفر فأُمتِّعه قليلاً، ثم أضطرُّه إلىٰ عذاب النَّار، وبئس المصير﴾..

ثمَّ يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقَّياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود.. يرسمه مشهوداً كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعها في آن:

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل: ربنا تقبل منا إنَّك أنت السميع العليم..﴾ [البقرة: ١٢٧]..

إنَّ التعبير يبدأ بصيغة الخبر.. حكاية تحكىٰ:

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾..

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما، ويرينا إياهما، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال. إنَّهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان..

فنغمة الدعاء، وموسيقىٰ الدعاء، وجو الدعاء.. كلها حاضرة كأنَّها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة.. وتلك إحدىٰ خصائص التعبير القرآني الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يُسمع ويُرىٰ، ويتحرك

ويشخص، وتفيض منه الحياة. . إنَّها خصيصته «التصوير الفني» بمعناه الصادق، اللائق بالكتاب الخالد.

وماذا في ثنايا الدعاء؟ إنَّه أدب النبوة، وإيمان النبوة، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود. وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء:

﴿ربَّنا تقبل منا. إنَّك أنت السميع العليم﴾ . .

إنَّه طلب القبول. . هذه هي الغاية. . فهو عمل خالص لله. الاتجاه به في قنوت وخشوع إلى الله. والغاية المرتجاة من ورائه هي الرضىٰ والقبول. . والرجاء في قبوله متعلق بأنَّ الله سميع للدعاء. عليم بما وراءه من النية والشعور.

﴿ربَّنا واجعلنا مسلمَين لك، ومن ذريتنا أُمَّة مسلمة لك. وأرنا مناسكنا وتب علينا إنَّك أنت التوَّاب الرَّحيم﴾ [البقرة: ١٢٨] . .

إنَّه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام؛ والشعور بأنَّ قلبيهما بين أصبعين من أصابع الرَّحمن؛ وأنَّ الهدىٰ هداه، وأنَّه لا حول ولا قوة إلَّا بالله، فهما يتجهان ويرغبان، والله المستعان.

ثمَّ هو طابع الأُمَّة المسلمة. . التضامن. . تضامن الأجيال في العقيدة: **﴿ومن ذرِّيَّتنا أُمَّةً مسلمة لك﴾** . .

وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن. إنَّ أمر العقيدة هو شغله الشاغل، وهو همّه الأول. وشعور إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما. . نعمة الإيمان. . تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما، وإلى دعاء الله ربهما ألَّا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام. .

لقد دعوا ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان؛ وأن يريهم جميعاً مناسكهم، ويبيِّن لهم عباداتهم، وأن يتوب عليهم. بما أنَّه هو التوَّاب الرَّحيم.

ويمضي إبراهيم في دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادي المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم، ويذكر الوظيفة التي أسكنهم في هذا القفر الجدب ليقوموا بها:

﴿ربَّنا إنِّي أسكنت من ذرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرَّم﴾ . . لماذا؟ **﴿ربَّنا ليقيموا الصَّلاة﴾** . .

فهذا هو الذي من أجله أسكنهم هناك، وهذا هو الذي من أجله يحتملون الجدب والحرمان.

﴿فاجعل أفئدة من النَّاس تهوي إليهم﴾ . .

وفي التعبير رقة ورفرفة، تصور القلوب رفافة مجنحة، وهي التي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب. إنَّه تعبير نديّ يندِّي الجدب برقة القلوب . .

﴿وارزقهم من الثَّمرات﴾ . .

عن طريق تلك القلوب التي ترف عليهم من كل فج . . لماذا؟

أليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا؟ نعم! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور: **﴿لعلَّهم يشكرون﴾** [إبراهيم: ٣٧] . .

وهكذا يبرز السياق هدف السكنىٰ بجوار البيت الحرام . . إنَّه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله. ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويِّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض . . إنَّه شكر الله المنعم الوهاب.

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة

البيت المحرم.. فلا صلاة قائمة لله، ولا شكر بعد استجابة الدعاء، وهويّ القلوب والثمرات!

ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله.. يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكز ودعاء. فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء. إنَّما هو توجه القلب إلى الله الذي يعلم السر والجهر ولا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء:

﴿ربَّنا إنَّك تعلم ما نخفي وما نعلن: وما يخفىٰ على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ [إبراهيم: ٣٨]..

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر.

﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إنَّ ربِّي لسميع الدعاء﴾ [إبراهيم: ٣٩]..

وهبة الذرية على الكبر أوقع في النفس. فالذرية امتداد. وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد. وإنَّ إبراهيم ليحمد الله، ويطمع في رحمته: **﴿إنَّ ربِّي لسميع الدعاء﴾**..

ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديماً للشكر. الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق، أو يصرفه عنها صارف، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه:

﴿ربِّ اجعلني مقيم الصَّلاة. ومن ذرِّيَّتي. ربَّنا وتقبل دعاء﴾ [إبراهيم: ٤٠]..

ثمَّ يمضي إبراهيم بدعائه ألاَّ يترك ذريته بلا هداية في أجيالهم البعيدة:

﴿ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم. إنَّك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٩]..

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون. بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل(١)، يتلو عليهم آيات الله، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويطهِّرهم من الأرجاس والأدناس.

إنَّ الدعوة المستجابة تستجاب، ولكنها تتحقق في أوانها الذي يُقدِّره الله بحكمته. غير أنَّ الناس يستعجلون! وغير الواصلين يملّون ويقنطون!

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أُخرىٰ في موقف جيرة البيت من قريش. وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصَّلاة رجاء يرجوه، ويدعو الله ليوفقه إليه. وهم ينأون عنها ويعرضون، ويكذبون الرسول الذي يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده!

ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً، يوم يقوم الحساب، فلا ينفع إنساناً إلاَّ عمله؛ ثمَّ مغفرة الله في تقصيره: ﴿ربَّنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ [إبراهيم: ٤١]..

وينتهي المشهد الطويل: مشهد الدعاء الخاشع الضارع. ومشهد تعداد النعم والشكر عليها.. في إيقاعٍ موسيقي متموج رخي.. ينتهي بعد أن يخلع على الموقف كله ظلاً وديعاً، تهفو القلوب معه إلى جوار الله، وتذكر القلوب فيه نعم الله. ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجاً للعبد الصالح

---

(١) لقد اصطفىٰ الله جلّ وعلا نبيه محمَّد ﷺ من بين ولد إسماعيل ـ صلوات الله عليه..
عن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله اصطفىٰ كِنَانَة من وَلَد إسماعيل، واصطفىٰ من كِنَانة قريشاً، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». أخرجه مسلم وابن حبان. انظر تخريجه في الإحسان (رقم ٦٣٣٤) و (٦٤٧٥).

الذاكر الشاكر، كما ينبغي أن يكون عباد الله، الذين وجّه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء . .

ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة: « ربَّنا » أو « ربِّ ». فإنَّ لهجان لسانه يذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزىً . .

إنَّه لا يذكر الله ـ سبحانه ـ بصفة الألوهية، إنَّما يذكره بصفة الربوبية. فالألوهية قلَّما كانت موضع جدال في معظم الجاهليات ـ وبخاصة في الجاهلية العربية ـ إنَّما الذي كان دائماً موضع جدل هو قضية الربوبية. قضية الدينونة في واقع الحياة الأرضية. وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان. والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك في عالم الواقع . . فإمَّا أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإمَّا أن يدينوا لغير الله فيكون غير ربهم . . وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية في واقع الحياة. والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء!

وحين يستيقظ ضمير الإنسان، ويتطلع إلى الكون من حوله، فإذا هو مسخر له، إمَّا مباشرة، وإمَّا بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم؛ ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله، معين بقدرة الله، ذلول له بتسخير الله . . حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر. لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر. ويتطلع دائماً إلى ربه المنعم، حين يكون في الشدة ليبدله منها يسراً، وحين يكون في الرخاء ليحفظ عليه النعماء.

وإبراهيم الذي يظلل سمته ظلال النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران . . نراه العبد الخاشع، يظلله الشكر، وتشيع فيه الضراعة، ويتجاوب فيه الدعاء في نغمة رخية متموجة، ذاهبة في السماء.

وبعـد فإنَّ لهـذا الدعـاء دلالته ووزنـه فيما كـان يشجر بين اليهـود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف.

إنَّ إبـراهيم وإسماعيـل اللذين عهد الله إليهمـا برفـع قواعـد البيت وتـطهيره للطائفين والعـاكفين والمصلِّين، وهمـا أصـل سـادني البيت من قريش.. إنَّهما يقولان باللسان الصريح: ﴿ربَّنا واجعلنا مسلمين لك﴾.. ﴿ومن ذرِّيَّتنـا أمة مسلمـة لك﴾ [البقـرة: ١٢٨].. كما يقـولان باللسـان الصريح: ﴿ربَّنـا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيـاتك، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم﴾..

وهما بهذا وذاك يقرران وراثة الأُمَّة المسلمة لإمامة إبراهيم، ووراثتها للبيت الحرام سواء. وإذن فهو بيتها الـذي تَـتَّجه إليـه، وهي أَولىٰ به من المشركين. وهو أولىٰ بها من قبلة اليهود والنصارىٰ!

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارىٰ، ويـدعي دعاواه العريضة في الهدىٰ والجنة بسبب تلك الوراثة، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش.. فليسمع:

إنَّ إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة، قال له ربه: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾.. ولمَّا أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خصَّ بدعوته ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾..

وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهمـا في بناء البيت وتـطهيره كـانت دعوتهما: أن يكونا مسلمين لله، وأن يجعل الله من ذريتهما أُمة مسلمة، وأن يبعث في أهل بيته رسولاً منهم.. فاستجـاب الله لهما، وأرسـل من أهل البيت محمَّد بن عبد الله، وحقق على يديه الأُمَّة المسلمة القائمة بأمر الله الوارثة لدين الله.

حجج واهية ودعاوىٰ ساقطة :

وقصة إبراهيم تؤدِّي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف.

إنَّ أهل الكتاب ليرجعون بأُصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق - عليهما السَّلام - ويعتزّون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده. ومن ثمَّ يحتكرون لأنفسهم الهدىٰ والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيّاً كان ما يعملون!

وإنَّ قريشاً لترجع بأُصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل - عليهما السَّلام - وتعتز بنسبتها إليه، وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام؛ وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب، وفضلها وشرفها ومكانتها.

والقرآن يسير بنا في قصة إبراهيم خطوة خطوة، منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه، وتنصيبه للناس إماماً. . إلى أن نشأت الأُمَّة المسلمة المؤمنة برسالة محمَّد ﷺ استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام؛ فاستحقَّت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعاً، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة. . سبب الإيمان بالرسالة، وحسن القيام عليها، والاستقامة على تصورها الصحيح.

وفي ثنايا العرض التاريخي في القرآن يبرز: أنَّ الإسلام - بمعنىٰ إسلام الوجه لله وحده - كان هو الرسالة الأُولىٰ، وكان هو الرسالة الأخيرة. . هكذا اعتقد إبراهيم، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسىٰ وعيسىٰ. . ثمَّ آلت أخيراً إلى ورثة إبراهيم من المسلمين. . فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها، ووريث عهودها وبشاراتها. ومن فسق عنها، ورغب

بنفسه عن ملة إبراهيم، فقد فسق عن عهد الله، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته.

عندئذٍ تسقط كل دعاوىٰ اليهود والنصارىٰ في اصطفائهم واجتبائهم، لمجرد أنَّهم أبناء إبراهيم وحفدته، وهم ورثته وخلفاؤه! لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة.. وعندئذٍ تسقط كذلك كل دعاوىٰ قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارتـه، لأنَّهم قد فقـدوا حقهم في وراثة بـاني هذا البيت ورافـع قـواعـده بـانحـرافهم عن عقيدته.. ثمَّ تسقط كل دعاوىٰ اليهود فيما يختص بـالقبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون. فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم..

لقد كان اليهود يُبدئون ويعيدون في مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة، بعد أن صلّىٰ رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس حتى الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة..

إنَّ اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأَوْلىٰ، وأنَّ اتخاذ بيت المقدس هذه الفترة كان لحكمة معينة بيَّنها الله في حينها.. مع هذا فقد ظل اليهود يبدئون في هذا الموضـوع ويعيدون، ابتغـاء البلبلة والتشكيك واللبس الحق الصريح ـ على مثال ما يصنع اليوم أعـداء هذا الـدين بكل موضوع من موضوعات هذا الدين! وهنا يرد الله عليهم كيدهم ببيان جديد. **﴿قل: صدق الله، فاتَّبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. إنَّ أول بيت وضع للناس للذي ببكَّة مباركاً وهدىً للعالمين. فيه آيات بيِّنات. مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. ولله على النَّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾** [آل عمران: ٩٥ ـ ٩٧]..

ولعلَّ الإشارة هنا في قوله: **﴿قل صدق الله﴾**.. تعني ما سبق تقريره في هذا الأمر، من أنَّ هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأمناً، وليكون للمؤمنين بـدينه قبلة ومصلىً: ومن ثمَّ يجيء الأمـر باتبـاع

إبراهيم في ملته. وهي التوحيد الخالص المبرأ من الشرك في كل صوره.

واليهود كانوا يزعمون أنَّهم هم ورثة إبراهيم. فها هو ذا القرآن يدلهم على حقيقة دين إبراهيم، وأنه الميل عن كل شرك. ويؤكد هذه الحقيقة مرتين: مرة بأنَّه كان حنيفاً. ومرة بأنَّه ما كان من المشركين. فما بالهم هم مشركين!!

ثمَّ يقرر أنَّ الاتجاه للكعبة هو الأصل. فهو أول بيت وضع في الأرض للعبادة وخصص لها مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود. وجعله مباركاً. وجعله هدىً للعالمين، يجدون عنده الهدىٰ بدين الله ملة إبراهيم. وفيه علامات بيِّنة على أنَّه مقام إبراهيم.. (ويقال: إنَّ المقصود هو الحجر الأثري الذي كان إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يقف عليه أثناء البناء، وكان ملصقاً بالكعبة فأخَّره عنها الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه حتى لا يشوش الذين يطوفون به على المصلين عنده. وقد أمر المسلمون أن يتخذوه مصلىٰ بقوله تعالىٰ: **﴿واتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلّىٰ﴾** [البقرة: ١٢٥]..

فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة.. هو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة. وهو أول بيت أُقيم في الأرض للعبادة. وهو بيت أبيهم إبراهيم، وفيه شواهد على بناء إبراهيم له. والإسلام هو ملَّة إبراهيم. فبيته هو أَولىٰ بيت بأن يتجه إليه المسلمون. وهو مثابة الأمان في الأرض. وفيه هدى للناس، بما أنَّه مثابة هذا الدين.

ثَمَّ يقرر أنَّ الله فرض على الناس أن يحجوا إلى هذا البيت ما تيسَّر لهم ذلك: **﴿ولله على النَّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾**.

ويواجه القرآن الذين ينازعون الأُمَّة المسلمة الإمامة؛ وينازعون الرسول ﷺ النبوّة والرسالة؛ ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة:

﴿ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاَّ من سفه نفسه؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنَّه في الآخرة لمن الصالحين، ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يَا بنيَّ إنَّ الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢]..

هذه هي ملة إبراهيم.. الإسلام الخالص الصريح.. لا يرغب عنها وينصرف إلاَّ ظالم لنفسه، سفيه عليها، مستهتر بها.. إبراهيم الذي اصطفاه ربه في الدنيا إماماً، وشهد له في الآخرة بالصلاح.. اصطفاه **﴿إذ قال له ربُّه أسلم﴾**.. فلم يتلكَّأ، ولم يرتب، ولم ينحرف، واستجاب فور تلقي الأمر. **﴿قال: أسلمت لرب العالمين﴾**..

هذه هي ملة إبراهيم.. الإسلام الخالص الصريح.. ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنَّما تركها في عقبه، وجعلها وصيته في ذريته، ووصىٰ بها إبراهيم بنيه كما وصّىٰ بها يعقوب بنيه. ويعقوب هو إسرائيل الذي ينتسبون إليه، ثمَّ لا يلبون وصيته، ووصية جده، وجدهم إبراهيم!

ولقد ذكّر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم:

﴿يَا بنيَّ إنَّ الله اصطفىٰ لكم الدين﴾..

فهو من اختيار الله. فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه. وأقل ما توجبه رعاية الله لهم، وفضل الله عليهم، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه، والحرص على ما اختاره لهم، والاجتهاد في ألاَّ يتركوا هذه الأرض إلاَّ وهذه الأمانة محفوظة فيهم: **﴿فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾**..

وها هي ذي الفرصة سانحة، فقد جاءهم الرسول الذي يدعوهم إلى الإسلام، وهو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوه إبراهيم..

في ظل هذا البيان التاريخي الحاسم، لقصة العهد مع إبراهيم: وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين؛ ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين؛ يناقش

ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم، فيبدو هذا كله ضعيفاً شاحباً، كما يبدو فيه العنت، والادّعاء بلا دليل: كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلاَّ المتعنتون:

﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارىٰ تهتدوا. قل: بل ملَّة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. قولوا: آمنَّا بالله، وما أُنزل إلينا، وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ، وما أُوتي النبيُّون من ربِّهم، لا نفرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنَّما هم في شقاق فسيكفيكهم الله، وهو السميع العليم﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٧]. .

وإنَّما كان قول اليهود: كونوا يهوداً تهتدوا؛ وكان قول النصارىٰ: كونوا نصارىٰ تهتدوا. فجمع الله قوليهم ليوجه نبيه ﷺ أن يواجههم جميعاً بكلمة واحدة:

﴿قل: بل ملَّة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين﴾ . .

قل: بل نرجع جميعاً، نحن وأنتم إلى ملة إبراهيم، أبينا وأبيكم، وأصل ملة الإسلام، وصاحب العهد مع ربه عليه. . **﴿وما كان من المشركين﴾** . . بينما أنتم تشركون. .

ثمَّ يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرىٰ للدين، من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسىٰ بن مريم، إلى الإسلام الأخير. . ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد:

﴿قولوا: آمنَّا بالله، وما أُنزل إلينا، وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل. . .﴾ . .

تلك الوحدة الكبرىٰ بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً، هي قاعدة التصور الإسلامي وهي التي تجعل من الأُمَّة المسلمة، الأُمَّة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل

العريق، السائرة في الدرب على هدىً ونور. والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد. والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام.

لقد كان الحديث عن المسجد الحرام: بنائه وعمارته، وما أحاط بهما من ملابسات؛ والجدل مع أهل الكتاب والمشركين حول إبراهيم وبنيه ودينه وقبلته، وعهده ووصيته.. كان هذا الحديث خير تمهيد للحديث عن تحويل قبلة المسلمين من المسجد الأقصىٰ إلى المسجد الحرام بعد هذه الفترة. فتحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، ودعوا ذلك الدعاء الطويل.. يبدو في هذا السياق هو الاتجاه الطبيعي المنطقي مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده مع ربه فهو الاتجاه الحسي المتساوق مع الاتجاه الشعوري، الذي ينشئه ذلك التاريخ.

لقد عهد الله إلى إبراهيم أن يكون من المسلمين؛ وعهد إبراهيم بهذا الإسلام إلى بنيه من بعده، ولقد علم إبراهيم أنَّ وراثة عهد الله وفضله لا تكون للظالمين.

ولقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت الحرام.. فهو تراث لهما، يرثه من يرثون عهد الله إليهما.. والأُمَّة المسلمة هي الوارثة لعهد الله مع إبراهيم وإسماعيل ولفضل الله عليهما؛ فطبيعي إذن ومنطقي أن ترث بيت الله في مكة، وأن تتخذ منه قبلة.

فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصىٰ، الذي يتجه إليه اليهود والنصارىٰ، فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة هي التي أشار إليها القرآن[1].. وقد شاء أن يعهد بالوراثة إلى الأُمَّة المسلمة، وقد أبىٰ أهل

(١) راجع سورة البقرة، الآيات: ١٤١ ـ ١٥٠.

الكتـاب أن يفيئوا إلى دين إبـراهيم ـ وهو الإسـلام ـ فيشـاركـوا في هـذه الوراثة . .

وحين شاء الله تحويل القبلة في أوانه. . . تحويلها إلى بيت الله الأول الذي بناه إبراهيم. لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة. حسياً وشعورياً، وراثة الدين، ووراثة القبلة، ووراثة الفضل من الله جميعاً.

ويمضي القرآن الكريم في مواجهة أهل الكتاب ـ اليهود والنصارىٰ ـ بسخف موقفهم وهم يحاجون في إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فيزعم اليهود أنَّه كان يهودياً، ويزعم النصارىٰ أنَّه كان نصرانياً. على حين أنَّ إبراهيم سابق لليهودية والنصرانية، سابق للتوارة والإنجيل. والحجاج فيه على هذا النحو مراء لا يستند إلى دليل. . ويقرر مـا كان عليـه إبراهيـم. . لقـد كان على الإسلام. . دين الله القويم. وأولياؤه هم الذين يسيـرون على نهجه. والله ولي المؤمنين أجمعين. . ومن ثمَّ تسقط ادّعاءات هؤلاء وهؤلاء، ويتبين خط الإسلام الواصل بين رسل الله والمؤمنين بهم على توالي القرون. .

﴿يَا أهـل الكتاب لِمَ تحـاجُّون في إبـراهيم، ومـا أُنـزلت التـوراة والإنجيل إلَّا من بعده؟ أفلا تعقلون؟﴾ [آل عمران: ٦٥]. .

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي ـ مولىٰ زيد بن ثابت ـ حدَّثني سعيد بن جبير ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس رضي الله عنهمـا قال: اجتمعت نصارىٰ نجران وأحبار يهود عنـد رسول الله ﷺ فتنـازعوا عنـده. فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلَّا يهودياً. وقالت النصارىٰ: ما كان إبراهيم إلَّا نصـرانيـاً. فـأنـزل الله تعـالىٰ: **﴿يَا أهـل الكتـاب لِمَ تحـاجُّـون في إبراهيم﴾**. . الآية.

وسواء كانت هذه هي مناسبة نزول الآية أو لم تكن، فظاهر من نصها أنَّها نزلت رداً على ادعاءات لأهل الكتاب، وحجاج مـع النبي ﷺ أو مع

بعضهم البعض في حضرة الرسول ﷺ والهدف من هذه الادّعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم - عليه السَّلام - أن يجعل في بيته النبوة؛ واحتكار الهداية والفضل كذلك.

ثمَّ - وهذا هو الأهم - هو تكذيب دعوىٰ النبي ﷺ أنَّه على دين إبراهيم، وأنَّ المسلمين هم ورثة الحنيفية الأُولىٰ؛ وتشكيك المسلمين في هذه الحقيقة، أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل..

ومن ثمَّ يندد الله بهم هذا التنديد؛ ويكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليل. فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل. فكيف إذن يكون يهودياً؟ أو كيف إذن يكون نصرانياً؟ إنَّها دعوىٰ مخالفة للعقل، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأُولىٰ إلى التاريخ.

ثمَّ يمضي في التنديد بهم، وإسقاط قيمة ما يدلون به من حِجج، وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار: **﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون؟﴾** [آل عمران: ٦٦].. وقد جادلوا في أمر عيسىٰ - عليه السَّلام -، كما يبدو أنَّهم جادلوا في بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثمَّ تولوا وهم معرضون.. وكان هذا وذاك في دائرة ما يعلمون من الأمر. أمَّا أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم، ووجود كتبهم ودياناتهم.. فهو الأمر الذي لا سند له ولو كان سنداً شكلياً. فهو الجدل إذن لذات الجدل. وهو المراء الذي لا يسير على منهج، وهو الغرض إذن والهوىٰ.. ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول. بل غير جدير بالاستماع أصلاً لما يقول! حتى إذا انتهىٰ السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه، ونزع الثقة منهم وممَّا يقولون، عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها الله. فهو - سبحانه - الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد؛ وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزله على عبده إبراهيم.

وقوله الفصل الذي لا يبقىٰ معه لقائل قول؛ إلاَّ أن يجادل ويماري بلا سلطان ولا دليل:

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً. ولـكن كان حنيفاً مسلماً. وما كان من المشركين﴾ [آل عمران: ٦٧]. .

فيؤكد ما قرره من قبل ضمناً من أن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ما كان يهودياً ولا نصرانياً. وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلاَّ من بعده. ويقرر أنَّه كان مائلاً عن كل ملة إلاَّ الإسلام. فقد كان مسلماً. . مسلماً بالمعنىٰ الشامل للإسلام الذي مرَّ تفصيله وبيانه. .

﴿وما كان من المشركين﴾. .

وهذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها **﴿ولـكن كان حنيفاً مسلماً﴾**. . ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير:

ـ يشير أولاً إلى أنَّ اليهود والنصارىٰ ـ الذين انتهىٰ أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة ـ مشركون. . ومن ثمَّ لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً. ولكن حنيفاً مسلماً!

ـ ويشير إلى أنَّ الإسلام شيء والشرك شيء آخر. فلا يلتقيان. الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه، وكل مقتضياته ومن ثمَّ لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلاً.

ـ ويشير ثالثاً إلى إبطال دعوىٰ المشركين من قريش كذلك أنَّهم على دين إبراهيم، وسدنة بيته في مكة. . فهو حنيف مسلم، وهم مشركون **﴿وما كان من المشركين﴾**!

وما دام أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، فليس لأي من اليهود أو النصارىٰ ـ أو المشركين أيضاً ـ أن يدَّعي وراثته، ولا الولاية على دينه، وهم بعيدون عن عقيدته.

والعقيدة هي الوشيجة الأولىٰ التي يتلاقىٰ عليها الناس في الإسلام. حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض. إذا انبتّت تلك الوشيجة التي يتجمع عليها أهل الإيمان. فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه. بالنفخة التي جعلت منه إنساناً. ومن ثمَّ فهو يتلاقىٰ على العقيدة أخص خصائص الروح فيه. ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعىٰ والحدّ والسياج!

والولاية بين فرد وفرد، وبين مجموعة ومجموعة، وبين جيل من الناس وجيل، لا ترتكن إلى وشيجة أخرىٰ سوىٰ وشيجة العقيدة، يتلاقىٰ فيها المؤمن والمؤمن. والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة. والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان، ومن وراء فواصل الدم والنسب، والقوم والجنس، ويتجمعون أولياء ـ بالعقيدة وحدها ـ والله من ورائهم ولي الجميع:

﴿إنَّ أَولىٰ الناس بإبراهيم للَّذين اتَّبعوه، وهذا النَّبي، والَّذين آمنوا. والله ولي المؤمنين﴾ [آل عمران: ٦٨]..

فالَّذين اتَّبعوا إبراهيم ـ في حياته ـ وساروا على منهجه، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه. ثمَّ هذا النبي الذي يلتقي معه في الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين. ثمَّ الذين آمنوا بهذا النَّبيِّ ﷺ فالتقوا مع إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في المنهج والطريق.

﴿والله ولي المؤمنين﴾..

فهم حزبه الذين ينتمون إليه، ويستظلون برايته، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره. وهم أسرة واحدة. وأُمَّة واحدة. من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان؛ ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت!

وهذه الصورة هي أرقىٰ صورة للتجمع الإنساني تليق بالكائن

الإنساني. وتميزه من القطيع! كما أنَّها هي الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود. لأنَّ القيد الواحد فيها اختياري يمكن لكل من يشاء أن يفكّه عن نفسه بإرادته الذاتية. فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهي الأمر.. على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه ـ إن كانت رابطة التجمع هي الجنس ـ ولا يملك أن يغير قومه ـ إن كانت رابطة التجمع هي القوم ـ ولا يملك أن يغير لونه ـ إن كانت رابطة التجمع هي اللون ـ ولا يملك بيسر أن يغير لغته ـ إن كانت رابطة التجمع هي اللغة ـ ولا يملك بيسر أن يغير طبقته ـ إن كانت رابطة التجمع هي الطبقة ـ بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلاً إن كانت الطبقات وراثة كما في الهند مثلاً. ومن ثمَّ تبقىٰ الحواجز قائمة أبداً دون التجمع الإنساني، ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور.. الأمر المتروك للاقتناع الفردي، والذي يملك الفرد بذاته، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره، وأن ينضم إلى الصف على أساسه.

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان، يجعل رابطة تجمعه مسألة تتعلق بأكرم عناصره، المميزة له من القطيع!

والبشرية إمَّا أن تعيش ـ كما يريدها الإسلام ـ أناسيّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور.. وإمَّا أن تعيش قطعاناً خلف سياج الحدود الأرضية، أو حدود الجنس واللون.. وكلها حدود ممَّا يقام للماشية في المرعىٰ كي لا يختلط قطيع بقطيع!!!

أُمَّة التوحيد وقافلة الإيمان:

إنَّ دعوة التوحيد هي دعوة إبراهيم: **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه: إنَّني براء ممَّا تعبدون، إلَّا الذي فطرني فإنَّه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلَّهم يرجعون﴾** [الزُّخرف: ٢٦ ـ ٢٨]..

هذه الدعوة هي التي واجَه بها أباه وقومه مخالفاً بها عقيدتهم الباطلة،

غير منساق وراء عباداتهم الموروثة، ولا مستمسك بها لمجرد أنَّه وجد أباه وقومه عليها؛ بل لم يجاملهم في إعلان تبرُّئه المطلق منها في لفظ واضح صريح، يحكيه القرآن الكريم بقوله: **﴿إنَّني براء ممَّا تعبدون، إلاَّ الَّذي فطرني فإنَّه سيهدين﴾**..

ويبدو من حديث إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وتَبَرُّئه ممَّا يعبدون إلاَّ الذي فطره أنَّهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلاً؛ إنَّما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه، فتبرَّأ من كل ما يعبدون، واستثنىٰ الله؛ ووصفه بصفته التي تستحق العبادة ابتداء، وهو أنَّه فطره وأنشأه، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنَّه الموجد. وقرر يقينه بهداية ربه له، بحكم أنَّه هو الذي فطره؛ فقد فطره ليهديه؛ وهو أعلم كيف يهديه.

قال إبراهيم هذه الكلمة التي تقوم بها الحياة. كلمة التوحيد التي يشهد بها الوجود. قالها:

﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلَّهم يرجعون﴾..

ولقد كان لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده، عن طريق ذريته وعقبه. ولقد قام بها من بنيه رسل، كان منهم ثلاثة من أُولي العزم: موسىٰ وعيسىٰ ومحمَّد ـ خاتم الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه. واليوم بعد عشرات القرون يقوم في الأرض أكثر من ألف مليون، من أتباع الديانات الكبرىٰ يدينون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم، الذي جعل هذه الكلمة باقية في عقبه، يضل منهم عنها من يضل، ولكنها هي باقية لا تضيع، ثابتة لا تتزعزع، واضحة لا يتلبس بها الباطل **﴿لعلَّهم يرجعون﴾**.. يرجعون إلى الذي فطرهم فيعرفوه ويعبدوه. ويرجعون إلى الحق الواحد فيدركوه ويلزموه.

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم. ولكن هذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلاَّ من بعد إبراهيم. عرفتها على لسان نوح وهود وصالح

وإدريس، وغيرهم من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة، ويعيش بها، ولها. فلمّا عرفتها على لسان إبراهيم ظلّت متصلة في أعقابه؛ وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون، حتى إذا كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل، وأشبه أبنائه به(١): محمَّد ﷺ ـ خاتم الرسل ـ، وقائل كلمة التوحيد في صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة، التي تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة، وتجعل لها أثراً في كل نشاط للإنسان وكل تصور.

فهذه هي قصة التوحيد منذ أبيهم إبراهيم الذي ينتسبون إليه؛ وهذه هي كلمة التوحيد التي جعلها إبراهيم باقية في عقبه، هذه هي تأتي إلى هذا الجيل على لسان واحد من عقب إبراهيم فكيف يستقبلها من ينتسبون إلى إبراهيم، وملة إبراهيم؟

لقد بَعُدَ بهم العهد؛ ومتعهم الله جيلاً بعد جيل، حتى طال عليهم العمر، ونسوا ملة إبراهيم، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالمقاييس الأرضية فاختلَّ في أيديهم كل ميزان.

إنَّ الجولة في قصة إبراهيم تصل المسلمين بأول هذه الأُمة الواحدة: أُمَّة التوحيد. وهذه القافلة الواحدة: قافلة الإيمان. فإذا هي ممتدة في

---

(١) عن جابر عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «عرض عليَّ الأنبياء، فإذا موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ رجل ضربٌ من الرجال كأنَّه من رجال شنوءة، فرأيت عيسىٰ ابن مريم ـ عليه السَّلام ـ، فإذا أقرب من رأيت به شَبَهاً عروة بن مسعود. ورأيت إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فإذا أقرب من رأيت به شَبَهاً صاحبكم ـ يعني نفسه ـ..». أخرجه مسلم (٢٣٦٦) و(١٤٧) وابن حبان في صحيحه. انظر تخريجه في الإحسان (رقم ٦٢٣٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أُسري بي... ورأيت إبراهيم وأنا أشبهُ وَلَده به..».

رواه ابن حبان بإسناد صحيح. انظر الإحسان رقم (٥١).

الزمان، متميزة بالإيمان، متبرئة من كل وشيجة تنافي وشيجة العقيدة. . إنَّها الأُمَّة الممتدة منذ إبراهيم. أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأُولىٰ. وفيه أُسوة لا في العقيدة وحدها، بل كذلك في السيرة، وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها؛ ثمَّ خلص منها هو ومن آمن معه، وتجرد لعقيدته وحدها:

﴿قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ [الممتحنة: ٤]. .

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وماض طويل، وأُسوة ممتدة على آماد الزمان. وإذا هو راجع إلى إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك. فيشعر أنَّ له رصيداً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه.

إنَّ هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرت بمثل ما يمرّ به، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته. فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على المؤمنين. . ثمَّ إنَّ له لأُمَّة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها، إذا انبتَّت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال. . الشجرة التي غرسها أول المسلمين. . إبراهيم. .

مرَّ إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيها المسلمون المهاجرون. وفيهم أُسوة حسنة: ﴿إذ قالوا لقومهم: إنَّا بُرآءُ منكم وممَّا تعبدون من دون الله، كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّىٰ تؤمنوا بالله وحده إلَّا قول إبراهيم لأبيه لأَستغفرنَّ لك﴾ [الممتحنة: ٤]. .

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر والإيمان بالله. وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده. وهي

المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل. وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين.

ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه ـ وهو مشرك ـ ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين. فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: **﴿لأستغفرنَّ لك﴾**..

فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك. قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: **﴿فلمَّا تبيَّن له أنَّه عدو لله تبرَّأ منه﴾** كما جاء في فصل سابق في سياق القصة[1].

ويثبت هنا أنَّ إبراهيم فوَّض الأمر كله لله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال:

﴿وما أملك لك من الله من شيء. ربَّنا عليك توكَّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ [الممتحنة: ٤]..

وهذا التسليم المطلق لله، هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين. كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه، وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم.

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه: **﴿ربَّنا لا تجعلنا فتنة للَّذين كفروا﴾**..

فلا تسلِّطهم علينا. فيكون في ذلك فتنة لهم، إذ يقولون: لو كان

---

(١) انظر فصل «برّ وود ورحمة» في قصة إبراهيم في هذا الكتاب.

الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم! وهي الشبهة التي كثيراً ما تحيك في الصدور، حين يتمكن الباطل من الحق، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان ـ لحكمة يعلمها الله ـ في فترة من الفترات. والمؤمن يصبر للابتلاء، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألاَّ يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور.

وبقية الدعاء: ﴿**واغفر لنا**﴾..

يقولها إبراهيم خليل الرَّحمٰن. إدراكاً منه لمستوىٰ العبادة التي يستحقها منه ربه، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوىٰ الذي يكافىء به نِعَم الله وآلاءه، ويمجد جلاله وكبرياءه فيطلب المغفرة من ربه، ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده.

ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء: ﴿**ربَّنا إنَّك أنت العزيز الحكيم**﴾ [الممتحنة: ٥]..

العزيز: القادر على الفعل، الحكيم: فيما يمضي من تدبير.

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه، وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها، مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين:

﴿**لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغني الحميد**﴾ [الممتحنة: ٦]..

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدي. فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة.. وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين.

فأمَّا من يريد أن يتولىٰ عن هذا المنهج. من يريد أن يحيد عن طريق

القافلة. من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق. فما بالله من حاجة إليه ـ سبحانه ـ **﴿فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد﴾**..

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض؛ وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة، ورأوا القرار الذي انتهىٰ إليه من مروا بهذه التجربة؛ ووجدوها طريقاً معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها.

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين، فلا يشعر بالغربة أو الوحشة سالك ـ ولو كان وحده في جيل! ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون معه في الطريق!

إنَّ دين الله منهج عريق أصيل في ماضي البشرية، موصول الماضي بالحاضر: **﴿ملَّة أبيكم إبراهيم﴾** وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فلم تنقطع من الأرض، ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

وقد سمّىٰ الله هذه الأُمَّة الموحدة بالمسلمين سماها كذلك من قبل وسمّاها كذلك في القرآن: **﴿هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هٰذا﴾** [الحج: ٧٨]..

والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك. فكانت الأُمَّة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات. حتى انتهىٰ بها المطاف إلى أُمَّة محمَّد ﷺ وحتى سلمت إليها الأمانة، وعهد إليها بالوصاية على البشرية. فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله: **﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾**.. فالرسول ﷺ يشهد على هذه الأُمَّة، ويحدد نهجها واتجاهها، ويقرر صوابها وخطأها. وهي تشهد على الناس بمثل هذا. فهي القوّامة على البشرية بعد

نبيها؛ وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة. ولن تكون كذلك إلاَّ وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج، المختار من الله.

ولقد ظلَّت هذه الأُمَّة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلـهي وطبَّقته في حياتها الواقعية. حتى إذا انحرفت عنه، وتخلَّت عن تكاليفه، ردّها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة. وما تزال. ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له الله.

هذا الأمر يقتضي الاحتشاد والاستعداد.. ومن ثمَّ يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله: **﴿فأقيموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة واعتصموا بالله. هو مولاكم. فنعم المولىٰ ونعم المصير﴾** [الحج: ٧٨]..

فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد. والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد. والاعتصام بالله العروة الوثقىٰ التي لا تنفصم بين المعبود والعباد.

بهذه العدة تملك الأُمَّة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها الله. وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنَّها مصادر القوة في الأرض. والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها، بل يدعو إلى إعدادها. ولكن مع حشد القوىٰ والطاقات والزاد الذي لا ينفد، والذي لا يملكه إلاَّ المؤمنون بالله. فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء.

إنَّ قيمة المنهج الإلـهي للبشرية أنَّه يمضي بها قدماً إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض، ولا يكتفي بأن يقودها للذائذ والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام.

وإنَّ القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية، ولكنها لا

تقف عند هذه المدارج الأُولىٰ. وكذلك يريدها الإسلام في كنف الوصاية الرشيدة، المستقيمة على منهج الله في ظل الله.

معالم في رحلة الإيمان والتوحيد:

لقد كانت مسيرة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ متعددة الجوانب، تحمل العِبَر والعظات الحكيمة الرشيدة.. كانت مَعْلَماً وسلوكاً، ونبراساً وَضَّاءً في حياة الدعاة إلى الله تعالىٰ. يقول الأُستاذ الشيخ أبو الحسن الندوي: «وقصة إبراهيم في القرآن أعظم تحدٍّ لتأثير الأسباب واستقلالها، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها، وكان إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مأموراً بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلين بها، المقدسين لها، العاكفين على عبادتها والاعتماد عليها، وكأنَّه ـ وهو رسول التوحيد وإمام الموحدين في عصره ـ كانت لذته وشفاء نفسه وغذاء روحه وقرّة عينه في الاستهزاء بهذه الأسباب، وعدم الاحتفال بها، والتغلب عليها بنصر الله، وإبطال خواصها وطبائعها المودعة فيها، وكأنَّه كان يلتزم في كل خطوة من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة الموفقة، أن يدوسها بقدمه، ويسخر منها بعزمه ويسجل انتصاراً جديداً للإيمان على الشك، والروح على المادة، والتوحيد على نظام الشرك، وقد عاش طول حياته ثائراً على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المادة والمعدة والآلهة الزائفة، والقوىٰ المخيفة.

والسر في ذلك أنَّ العالم في عصر إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كان خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنَّها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أُخرىٰ، غير الوثنية التي أُغرقوا فيها، وغلوا في عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيتين، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيقاً

لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء، وأنَّه يخلق الأشياء من عدم، وأنَّه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينتزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء.

أشعل الناس له النيران وقالوا: **﴿حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾** وكان إبراهيم يؤمن بأنَّ النار خاضعة لإرادة الله تعالىٰ، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها، إنَّما هي طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحوَّلها إلى برد وسلام؛ فخاض فيها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان: **﴿قلنا يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾** [الأنبياء: ٦٩]..

واعتقد الناس أنَّه لا حياة إلَّا بالخصب والميرة والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه، ويتوفر فيها الخصب، وتسهل فيها التجارة والصناعات، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة، والعرف الشائع والاعتماد على الأسباب، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ومواضع الرخاء والثراء، ودعا الله تعالىٰ أن يوسع لهم الرزق، ويعطف إليهم القلوب، ويُجبي إليهم الثمرات، من غير سبب وطريق معروف فقال: **﴿ربنا إنِّي أسكنتُ من ذرِّيَّتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربَّنا ليقيموا الصَّلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثَّمرات لعلَّهم يشكرون﴾** [إبراهيم: ٣٧]..

وأجاب الله دعاءه، فضمن له الرزق والأمن، جعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات: **﴿أوَلَم نمكِّن لهم حرماً آمناً يُجبىٰ إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنَّا ولـٰكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾** [القصص: ٥٧]، **﴿فليعبدوا ربَّ**

﴿هـذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ [قريش: ٣، ٤]..

تركهم في أرض لا أثر فيها لماء يروي الغلة، ويبلّ الحلقوم، فإذا بماء يفور من الرمال، ويفيض من غير انقطاع، يشربه الناس في سخاء ويحملونه إلى بلادهم، ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه، فإذا به يصبح مكاناً يؤمّه الناس من كل صوب، ويأتون إليه من كل فج عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم عليه السَّلام؛ تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره وعبادة الأسباب، واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأنَّ إرادته فوق كل شيء؛ وهكذا كانت سنة الله معه يُخضع له الأسباب، ويخلق له ما تحار فيه الألباب»[1].

هذه قصة إبراهيم.. من القرآن الكريم تتناول موضوعاً واحداً متصل الفقرات، يحدث فيها عن قضية واحدة. قضية واحدة لا تتغير. ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر. ذلك أنَّ الأُسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، في فقرة فريدة عجيبة..

لقد كانت القصة تعالج القضية الأُولىٰ، والقضية الكبرىٰ، والقضية الأساسية في الإسلام، «قضية العقيدة» ممثلة في قاعدتها الرئيسية.. الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة.

لقد كانت تخاطب بهذه القضية الفطرة الإنسانية. الإنسان بما أنَّه إنسان.. وفي هذا المجال يستوي الإنسان الكلداني في ذلك الزمان الذي كان يخاطبه إبراهيم والإنسان في كل زمان وفي كل مكان! إنَّه طريق الفطرة البديهي العميق:

﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السَّماوات والأرض وليكون من

---

(١) كتاب «النبوة والأنبياء»، ص ٩٠ - ٩٣، وقد نشرها سابقاً في مجلة «المسلمون»، العددان ٧، ٨ سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م، ص ١٨٠ - ١٨١.

الموقنين. فلمَّا جنَّ عليه الليل رأىٰ كوكباً قال: هـٰذا ربِّي فلمَّا أفل قال: لا أُحبُّ الآفلين. فلمَّا رأىٰ القمر بازغاً قال: هـٰذا ربِّي فلمَّا أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين. فلمَّا رأىٰ الشمس بازغة قال: هـٰذا ربِّي هـٰذا أكبر فلمَّا أفلت قال: يَا قوم إنِّي بريءٌ ممَّا تشركون. إنِّي وجَّهتُ وجهي للذي فطر السَّماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجَّهُ قومه قال: أتحاجُّونِّي في الله وقد هدان ولا أخاف ما تُشركون به إلاَّ أن يشاء ربِّي شيئاً وسع ربِّي كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكَّرون؟﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٨٠]. .

إنَّها قضية «الإنسان» التي لا تتغير، لأنَّها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره. قضية علاقته بهـذا الكون وبهؤلاء الأحياء، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء. . وهي قضية لا تتغير، لأنَّها قضية الوجود والإنسان!

لقد كان القرآن يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله. . كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء، وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟. . وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسّه ويراه، والذي يحسّ أنَّ وراءه غيباً يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟. .

وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضاً، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد.

وكانت هذه هي القضية الكبرىٰ التي يقوم عليها وجود «الإنسان» وستظل هي القضية الكبرىٰ التي يقوم عليها وجوده، على توالي الأزمان. .

وأصحاب الدعوة إلى دين الله، خليقون أن يقفوا طويلاً أمام قصة أبي الأنبياء التي هي صورة لتقرير هـذه العقيدة. . فهو القدوة المباركة والأسوة الحسنة:

﴿قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والَّذين معه إذ قالوا لقومهم: إنَّا برآء منكم وممَّا تعبدون من دون الله، كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّىٰ تؤمنوا بالله وحده﴾ [الممتحنة: ٤]..

﴿لقد كان لكم فيهم أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد﴾.. ﴿ومن يرغب عن ملَّة إبراهيم إلَّا من سَفِهَ نَفْسَهُ ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنَّه في الآخرة لمن الصَّالحين. إذ قال له رَبُّه أسلم قال أسلمتُ لربِّ العالمين. ووصَّىٰ بها إبراهيمُ بَنِيهِ ويعقوب إنَّ الله اصطفىٰ لكُمُ الدين فلا تموتُنَّ إلَّا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢]..

والقصة بطولها كله لتقرير: «لا إلـه إلَّا الله» في القلوب والعقول.. فكل حياة الإنسان تنبثق من هذا الأصل الكبير..

لقد كان إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ الصورة الإنسانية لاستقرار عقيدة: «لا إلـه إلَّا الله».. استقرارها في الأعماق الوجدانية الغائرة البعيدة.. الصورة الإنسانية للاستسلام المطلق الراضي لهذه العقيدة، لا تعترض على شيء ممَّا يصدر إليها من الله؛ ولا تتلكَّأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له[1]..

لقد كانت حياة إبراهيم فتنة إثر فتنة، ومحنة تتلوها محنة.. ها هو ذا

(١) أمره الله بالاختتان وقد قطع في الشيخوخة دهراً طويلاً فامتثل أمر ربه.. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «اختَتَنَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُوم». أخرجه مسلم (٢٣٧٠)، والبخاري (٣٣٥٦). انظر الإحسان رقم (٦٢٠٤).
قال النووي في «شرح مسلم» ١٥/١٢٣: رواة مسلم متفقون على تخفيف القدوم. ووقع في روايات البخاري الخلاف في تشديده وتخفيفه، قالوا: وآلة النجار يقال لها: قدوم بالتخفيف لا غير، وأمَّا القدوم مكان بالشام، ففيه التشديد والتخفيف، فمن رواه بالتشديد أراد القرية، ومن رواه بالتخفيف يحتمل القرية والآلة، والأكثرون على التخفيف، وعلى إرادة الآلة.
وقال النووي: «وهذا الذي وقع وهو ابن ثمانين سنة هو الصحيح، ووقع في «الموطأ»: وهو ابن مئة وعشرين سنة موقوفاً على أبي هريرة، وهو متأول أو مردود».

شيخ هرم، جالد الأيام، وعرك الدهر، وأحنتهُ السنون؛ قد كان طول حياته يأمَل الولد، حتى إذ بلغ من الكبر عتياً، رزقه الله بغلام وحيد قرَّت به عينه، وأشرقت له نفسه، ثمَّ أمِرَ بأن يُسكنه بوادٍ غير ذي زرع، ويتركه وأُمَّه في مكان قفر، ليس به بشر ولا شجر، وامتثل لأمر الله، وتركهما هناك ثقة بالله، وإيماناً به، وإطاعة لأمره.. ثمَّ جعل الله لهما سبيلاً من رحمته.. وبعد سنين حين كَبُر الغلام وأطاق السعي والعمل رأىٰ أبوه إبراهيم أنَّ الله يأمره بذبحه: ﴿يَا بنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك فانظر ماذا ترىٰ﴾ فأجابه إسماعيل في بِرٍّ وإيمان وصبر جميل: ﴿يَا أَبَتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين﴾..

وامتثل إبراهيم مسلّماً لأمر ربه: ﴿فلمَّا أسلما وتلَّه للجبين. وناديناه أن يَا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هٰذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم﴾ [الصافَّات: ١٠٣ ـ ١٠٧]..

هٰذه القصة تعالج قضية العقيدة الأساسية.. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العباد برب العباد.. من هو؟ ما مصدر هذا الوجود؟ ماذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشأهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يرزقهم؟ وماذا بعد الابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء؟؟؟

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتَّقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً. فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧]..

﴿قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنَّهم عدوٌّ لي إلَّا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضتُ فهو يشفين. والذي يميتني ثمَّ يُحيين. والذي أطمع أن يغفر

لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٢]. .

هكذا تطوّف القصة بالقلب البشري فهي تُعرف الناس بربهم الحق؛ لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق. تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم، وتعبيد شعائرهم وحياتهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد.. سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء..

ويكاد اتجاه القصة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد.. من أولها إلى آخرها.. فالله هو الخالق الذي فطر السَّماوات والأرض.. والله هو الرازق. والله هو المالك. والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان. قدرته مطلقة وإرادته فوق كل شيء.

إنَّ قصة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ترسم نموذجاً كاملاً لعقيدة التوحيد بصورة فريدة.. إنَّها في كل فقرة وفي كل موقف، وفي كل مشهد، تمثل «الروعة الباهرة».. الروعة التي تُبده النفس، وتُشده الحس، وتبهر النَّفَس أيضاً، وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعاتها وصورها وموحياتها مبهوراً!

نعم! هذه حقيقة! حقيقة يجدها المؤمن في نفسه وحسّه وهو يتابع مشاهدها الخالدة العجيبة.. إنَّ الروعة فيها تبلغ فعلاً حدّ البهر. حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلَّا مبهوراً مبدوهاً!

﴿... قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا: يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين..﴾ [إبراهيم: ٦٨ ـ ٧٠]..

الإعجاز الرائع:

والقصة في كل صورة من صورها المتلاحقة تمثل لحمة واحدة، تبلغ حد «الروعة الباهرة» التي وصفنا ـ مع تناسق منهج العرض في شتى

المشاهد ـ وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة، وبالحيوية الدافقة، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة!

إنَّ سياق القصة يعرض المشاهد والمواقف منوعة؛ ولكنها تلتقي في ظاهرة واحدة.. إنَّه في كل مشهد أو موقف كأنَّما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه، وأمام الموقف يتدبره.. يقفه أمامه بحركة تكاد الألفاظ تُجسّمها! كما أنَّ المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون، يراهم السامع في وقفتهم، والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم!

فها هي ذي فقرة من القصة يحيلها العرض الرائع إلى تمثيلية. فتذكر فقط من الألفاظ ما يُنبه إلى ابتداء العرض، ثمَّ يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة رجالها.. فالمشهد الذي عرضه القرآن من قصة إبراهيم، وهو يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل، وكأنَّما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان.

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل. ربَّنا تقبل منا، إنَّك أنتَ السميع العليم. ربَّنا واجعلنا مُسلمَين لك، ومن ذرِّيَّتنا أُمَّةً مسلمةً لك، وأرنا مناسكنا وتُبْ علينا، إنَّك أنت التوَّاب الرَّحيم. ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويزكِّيهم. إنَّك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩]..

لقد انتهىٰ الدعاء، وانتهىٰ المشهد، وسدل الستار.

هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد وَرَدَّته حاضراً. فالخبر: **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾**.. كان كأنَّما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت، وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل.

وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، يزيد

وضوحاً لو فرضت استمرار الحكايـة، ورأيت كم كانت الصـورة تنقص لو قيل: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا.. إلخ، إنّها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة. وهذا هو الفارق الكبير.

إنَّ الحياة في النص لتثب متحركة حاضرة. وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة.. وذلك هو الإعجاز.

إنَّ قوله تعالىٰ: ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾ هذه إشارة البدء.

أمَّا ما يلي فمتروك لإبراهيم وإسماعيل: ﴿**ربَّنـا تقبَّل منَّـا إنَّك أنت السميع العليم..**﴾.. إلى نهاية المشهد الطويل[1]..

إنَّ هذا العرض القرآني الرائع يجعل ورود القصة إلى النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق.

ولهذا نظائره في قصة إبراهيم، وفي كثير من قصص القرآن الكريم.

وبعد.. هذه قصة سيدنا إبراهيم ترد في حوالي العشرين موضعاً في كتاب الله، ثمَّ يكون آخر موضع ترد فيه هو «سورة الحج» (السـورة ١٠٣ حسب ترتيب النزول)، فتعرض منها الفقرة التاليـة: ﴿**وإذ بوَّأنـا لإبراهيم مكان البيت أن لا تُشرك بي شيئاً؛ وطَهِّر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكَّع السجود، وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كُلِّ فجٍّ عميق**﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧]..

فهنا ـ من الوجهة الدينية ـ ربط بين شعائر الحج في الإسلام وشعائره في دين إبراهيم: وذلك غرض مقصود؛ وقد ورد في ختام السورة نفسها آخر ذكر لإبراهيم في قوله: ﴿**ملَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل**﴾..

ولكن لننظر من الوجهة الفنية البحتة. أكان هناك مشهد تختم به

قصة إبراهيم، أليق من مشهده يُؤذن في الناس للحج؛ وهو باني البيت، ومودع طفله إسماعيل هناك قبل البناء؟ إنَّه أليق ختام فني بلا جدال، ولو لم يكن الغرض الديني هو الذي اقتضاه(١).

لقد حرص إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ على أن يستمر بنيان الإسلام عالياً وضَّاءً، فقد وضع لبنة في هذا البنيان، لبنة مميَّزة باهرة.. فالمشاهد والمواقف التي صورها القرآن الكريم عن حياته ـ عليه السَّلام ـ ترسم صورة واضحة لـ ﴿ملة إبراهيم﴾ ترسم عقيدة صلبة. تصور ضآلة كل شيء أمام الإيمان، التضحية بكل غال ونفيس في سبيل العقيدة، هذا فضلاً عمَّا سجَّله القرآن له من حمد وشكر للنعمة وجزاء الشاكرين عند الله عظيم.. ﴿سلام على إبراهيم إنَّا كذلك نجزي المحسنين إنَّه من عبادنا المؤمنين﴾ ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنَّه في الآخرة لمن الصالحين﴾..

هذا وقصة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ تحتاج إلى مؤلف كبير لن يكون كثيراً على خبر هذا الإنسان العظيم الذي وصفه ربه: ﴿إنَّ إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين﴾..

وقد رسم القرآن في القصة شخصيته ـ عليه السَّلام ـ، إنَّه نموذج الهدوء والتسامح والحلم:

﴿إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاه منيب﴾.

فها هو ذا في صباه يخلو إلى تأملاته، ويبحث عن إلـهه:

﴿فلمَّا جنَّ عليه الليلُ رأىٰ كوكباً، قال: هـٰذا ربِّي. فلمَّا أفل، قال: لا أُحبُّ الآفلين. فلمَّا رأىٰ القمر بازغاً، قال: هـٰذا ربِّي. فلمَّا أفل، قال: لئن لم يهدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضالِّين. فلمَّا رأىٰ الشَّمس بازغةً قال: هـٰذا ربِّي، هـٰذا أكبر، فلمَّا أفلتْ، قال: يَـٰا قوم إنِّي بريءٌ من

---

(١) التصوير الفني، ص ١٤٤.

المشركين. إنِّي وجَّهت وجهي للذي فطر السَّماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجَّه قومه قال: أتحاجُّونِّي في الله وقد هدان؟ ولا أخاف ما تُشركون به إلاَّ أن يشاء ربِّي شيئاً، وسع ربِّي كل شيءٍ علماً. أفلا تـتذكَّرون؟﴾..

وما يكاد يبلغ هذا الأُفق السامي من الإيمان والمعرفة واليقين، حتى نـراه يسعىٰ حُبّاً وحنـانـاً وبـرّاً في أن يهـدي أبـاه إلـى ربّـه الـرَّحمـن رب العالمين، ها هو ذا إبراهيم الشاب في ودّ يتلطف إلى أبيه في أحبِّ لفظ وأحياه:

﴿يَـٰا أَبتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يُغني عنك شيئاً؟ يَـٰا أَبَتِ إنِّي قد جاءني من العلم ما لم يأتِكَ، فاتَّبعني أهدِكَ صراطاً سوياً. يَـٰا أَبتِ لا تعبد الشَّيطان، إنَّ الشيطان كان للرَّحمـٰن عصيّاً. يَـٰا أَبَتِ إنِّي أخاف أن يمسك عذاب من الرَّحمـٰن، فتكون للشَّيطان وليّاً﴾..

ولكنَّ أباه ينكر قوله ويغلظ له في القول، ويهدِّده تهديداً: ﴿قال: أراغب أنتَ عن آلهتي يَـٰا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنَّك. واهجرني مليّاً﴾..

فلا يُخرجه هذا العنف عن أدبه الجمّ، ولا عن طبيعته الودود؛ ولا يجعله ينفض يديه من أبيه. ﴿قال: سلام عليك. سأستغفر لك ربِّي، إنَّه كان بي حفيّاً؛ وأعتزلكم وما تدَّعون من دون الله وأدعو ربِّي، عسىٰ ألاَّ أكون بدعاء ربِّي شقيّاً﴾..

ثمَّ ها هو ذا يحطم أصنامهم ـ ولعلَّه العمل الوحيد العنيف الذي يقوم به ـ ولكن إنَّما تدفعه إلى هذا رحمة أكبر. عسىٰ أن يُؤمن قومه إذا رأوا آلهتهم جُذاذاً، وعلموا أنَّها لا تدفع عن نفسها الأذىٰ. ولقد كادوا يؤمنون فعلاً.. ﴿فرجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: إنَّكم أنتم الظالمون﴾..

ولكنَّهم عادوا فَهَمُّوا بإحراقه، وحينئذٍ ﴿قلنا: يَـٰا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾..

ولقد اعتزلهم عهداً طويلاً مع النفر الذي آمن معه، ومنهم ابن أخيه لوط.

وفي كبرته وهرمه يرزقه الله بإسماعيل؛ ولكن يقع له ما يحتم عليه أن يبعد ابنه وأمه عنه (والقرآن لا يتعرض لهذا الذي وقع) فيغلبه الطبع الرضيُّ على الحنو الأبوي؛ ويدركه إيمانه بربه، فيدعهما بجوار بيته. وهناك ينادي ذلك النداء الخاشع المنيب:

﴿ربَّنا إنِّي أسكنتُ من ذرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرَّم. ربَّنا ليقيموا الصَّلاة، فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثَّمرات لعلَّهم يشكرون﴾..

ثمَّ ما يكاد هذا الطفل يشبّ، ويصبح فتىٰ، حتى يرىٰ في المنام أنَّه يذبحه؛ فيغلبه الإيمان الديني العميق، على الحب الأبوي العميق، ويهم بإطاعة الإشارة، لولا أن يرفق به ربه، فيفديه بذبح عظيم.

وهكذا تتكشف الوقائع في القصة والمحاورات عن شخصية مميزة الملامح واضحة السمات: **﴿إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاهٌ منيب﴾**.. إنَّها الصفات الودودة الرحيمة التي صَفَتْ ورفَّت، وارتقت..

والحليم الذي يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنّىٰ ولا يثور. والأوَّاه الذي يتضرّع في الدعاء من التقوىٰ. والمنيب الذي يعود سريعاً إلى ربه.. وحكمة الله واضحة في أن يختار إبراهيم بهذه العاطفة والشخصية الإنسانية المتميزة.. فتبقىٰ ملَّته، ويبقىٰ ذكره الذي رفعه ربه، وتبقىٰ الصلة بإبراهيم.. الصلة بذريته.. الصلة مع خاتم الأنبياء النَّبيّ محمَّد ﷺ الذي كان أولىٰ الناس بإبراهيم **﴿إنَّ أَوْلىٰ الناس بإبراهيم للَّذين اتَّبعوه وهٰذا النَّبي﴾**..

وكان ﷺ يصلِّي على نفسه مقترناً بأبيه إبراهيم في التشهد في الصلاة، وشرع ذلك لأُمته، حيث أمرهم، وعلَّمهم أنواعاً من صيغ هذا

التكرمة[١] والرحمة التي مَنَّ الله بها، ومنها:

«اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد[٢]، وعلى أهل بيته، وعلى أزواجه وذريته، كما صلَّيت على آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد، وبارك[٣] على محمَّد، وعلى آل بيته، وعلى أزواجه، وذريته، كما باركتَ على آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد». .

وهذا كان يدعو به نفسه ﷺ[٤].

ـ «اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد، وعلى آل محمَّد، كما صلَّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد، وبارك على محمَّد، وعلى آل محمَّد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد»[٥].

---

(١) انظر «صفة صلاة النَّبي ﷺ» للشيخ الأُستاذ ناصر الدين الألباني، الطبعة السادسة، ص ١٧٧ ـ ١٨١.

(٢) أولىٰ ما قيل في معنىٰ الصَّلاة على النَّبي ﷺ قول أبي العالية: «صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه وتعظيمه. وصلاة الملائكة وغيرهم عليه: طلب ذلك له من الله تعالىٰ، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة». ذكره الحافظ في «الفتح»، ورد القول المشهور أنَّ صلاة الرب الرحمة. وفصَّل ذلك ابن القيم في «جلاء الأفهام» بما لا مزيد عليه فراجعه.

(٣) من البركة وهي النماء والزيادة، والتبريك، الدعاء بذلك. فهذا الدعاء يتضمَّن إعطاءه ﷺ من الخير ما أعطاه لآل إبراهيم وإدامته وثبوته له ومضاعفته له وزيادته.

(٤) رواه أحمد والطحاوي بسند صحيح.

(٥) رواه البخاري ومسلم والحميدي وابن منده وقال: «هذا حديث مجمع على صحته».

يقول الشيخ ناصر الدين الألباني: «من الملحوظ أنَّ أكثر هذه الأنواع من صيغ الصَّلاة عليه ﷺ ليس فيه ذكر إبراهيم نفسه مستقلاً عن آله، وإنَّما فيها «كما صليت على آل إبراهيم» والسبب في ذلك أنَّ آل الرجل في اللغة العربية يتناول الرجل كما يتناول غيره ممَّن يؤوله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الله اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ وقوله: ﴿إلَّا آل لوط نجَّيناهم بسحر﴾ وكذلك لفظ أهل البيت كقوله تعالىٰ: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ فإنَّ إبراهيم داخل فيهم.

قال «شيخ الإسلام»: «ولهذا جاء في أكثر الألفاظ: «كما صليت على آل إبراهيم» و«كما باركت على آل إبراهيم» وجاء في بعضها «إبراهيم» نفسه لأنَّه هو الأصل في الصلاة =

. . . .

= والزكاة، وسائر أهل بيته إنَّما يحصل لهم ذلك تبعاً، وجاء في بعضها ذكر هذا وهذا تنبيهاً على هذين».

إذا علمت ذلك فقد اشتهر التساؤل بين العلماء عن وجه التشبيه في قوله: «كما صلَّيت» إلخ لأنَّ المقرر أنَّ المُشَبَّه دون المشبه به، والواقع هنا عكسه إذ أنَّ محمَّداً ﷺ أفضل من إبراهيم، وقضية كونه أفضل، أن تكون الصلاة المطلوبة أفضل من كل صلاة حصلت أو تحصل. وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة كثيرة تراها في «الفتح» و«الجلاء» وقد بلغت نحو عشرة أقوال بعضها أشد ضعفاً من بعض، إلاّ قولاً واحداً فإنَّه قوي واستحسنه شيخ الإسلام وابن القيم وهو قول من قال: «إنَّ آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمَّد مثلهم، فإذا طلب للنَّبيِّ ﷺ ولآله من الصَّلاة عليه مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء، حصل لآل محمَّد من ذلك ما يليق بهم، فإنَّهم لا يبلغون مراتب الأنبياء وتبقىٰ الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمَّد ﷺ، فيحصل له من المزية ما لا يحصل لغيره».

قال ابن القيِّم: «وهذا أحسن من كل ما تقدم، وأحسن منه أن يُقال: محمَّد ﷺ هو من آل إبراهيم، بل هو خير آل إبراهيم كما روىٰ علي بن طلحة عن ابن عبَّاس رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الله اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ قال ابن عباس: «محمَّد من آل إبراهيم» وهذا نص، إذا دخل غيره من الأنبياء الذين هم من ذرية إبراهيم في آله، فدخول رسول الله ﷺ أَوْلَىٰ، فيقول قولنا: «كما صلَّيت على إبراهيم» متناولاً للصَّلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم، ثمَّ قد أمرنا الله تعالىٰ أن نصلي عليه وعلى آله خصوصاً بقدر ما صلَّينا عليه مع سائر آل إبراهيم عموماً وهو فيهم، ويحصل لآله من ذلك ما يليق بهم ويبقىٰ الباقي كله له ﷺ قال: ولا ريب أنَّ الصلاة الحاصلة لآل إبراهيم ورسول الله ﷺ معهم، أكمل من الصلاة الحاصلة له دونهم، فيطلب له من الصلاة هذا الأمر العظيم الذي هو أفضل ممَّا لإبراهيم قطعاً، ويظهر حينئذٍ فائدة التشبيه وجريه على أصله، وأنَّ المطلوب له من الصلاة بهذا اللفظ أعظم من المطلوب له بغيره، فإنَّه إذا كان المطلوب بالدعاء إنَّما هو مثل المشبه به وله أوفر نصيب منه، صار له من المشبه المطلوب أكثر ممَّا لإبراهيم وغيره، وانضاف إلى ذلك ممَّا له من المشبه له من الحصة التي لم تحصل لغيره، فظهر بهذا من فضله وشرفه ما على إبراهيم وعلى كل من آله وفيهم النبيون ما هو اللائق به، وصارت هذه الصلاة دالة على هذا التفضيل وتابعة له، وهي من موجباته ومقتضياته، فصلَّىٰ الله عليه وعلى آله وسلَّم تسليماً كثيراً، وجزاه عنَّا أفضل ما جزىٰ نبياً عن أمته، اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وعلى آل محمَّد، كما صلَّيت على إبراهيم إنَّك حميد مجيد، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد كما باركت على إبراهيم إنَّك حميد مجيد».

إبراهيم وأبوه يوم القيامة

إنَّ التكذيب بيوم الدين هو رأس البلايا، ومن ثم تختل جميع الموازين، وتضطرب جميع القيم، فالذي يُكَذِّب بالآخرة لا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير، يوم يقوم الناس لرَّب العالمين..

تلك الحقيقة يكشف الرسول ﷺ، ببيانه المهيب عن الغَبَش الذي يحيكه الشيطان حولها، حتى نرى الحقيقة جلية واضحة:

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يَلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وَجْه آزر قَتَرة وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: أَلَم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارَبِّ إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يُبعثون، فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد: فيقول الله تعالى: إنِّي حرمت الجنة على الكافرين، ثم يُقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذِيخ مُتَلَطِّخ، فيؤخذ بقوائمه فَيُلْقَى في النار».

إنَّ الغافلين المطموسين لا يدركون حكمة الله في الحياة الكبرى، ودقة التدبير في أطوارها للوصول إلى غايتها البعيدة، هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض. فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الدنيا، والشرّ كذلك. إنَّما يستكمل هذا الجزاء هناك، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى، التي لا خَوف فيها ولا نَصَب، ولا تحُول فيها ولا زوال ـ إلاَّ أن يشاء الله ـ، ويصل المرتكسون المنتكسون

إلى درك الحياة السفلية التي تُهدد فيها آدميتهم، ويرتدون إلى مسخ شنيع ملتطخ، «فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

ترسم القصة النبوية مشهداً من مشاهد القيامة، المشهد متعدد المناظر، متفرد في طريقة العرض والحوار.. وفي هذا المقام يتطلب استخدام الألفاظ الموحية بالبشاعة والتقزز.. ذلك أن القصة بصدد عرض صورة لذلك الكافر «آزر» الذي ضَربَ صفحاً عن دعوة ابنه إبراهيم، وهو يلحّ عليه في أن يستجيب لنداء الحق والانضواء تحت لواء الإيمان، ولكنه أَبَى[1].

فَقَتَرة وَغبَرة، وذَيخ ومُلتطخ، كلها ألفاظ تشيع في النفس إحساساً بالتنفير من هذا البائس الخاسر الذي يستتبعه تنفير من موقفه في الحياة من رفض الإيمان والاستجابة للدعوة..

هناك في ذلك اليوم تُقطع أواصر الرحم والنسب، ويحول بين المولود والوالد، وتقَفَ كل نفس فيه وحيدة فريدة ـ مجردة من كل عون ومن كل سَنَد ـ رهينة لما كسبت.. فلا يجزي أحد عن أحد، ولا ينفع أحد إلاَّ عمله وكسبه..

نحن أمام مشهد حيوي حافل، يصوره الرسول ـ ﷺ ـ في كلمات، ولكنها معبّرة أدقّ ما يكون التعبير عن هذا الموقف الرهيب الذي وقع فيه آزر، إنَّه مشهد في غاية الإثارة، تبرزه الألفاظ بصورة مزرية كريهة.

فما بال آزر؟ إنَّه الهول ليأخذ بحسّه، وإن الرعب ليذهب بنفسه.. ها هو ذا آزر يلقى إبنه إبراهيم يوم القيامة.[2]..

---

(١) انظر فصل «برّ وودّ ورحمة» في قصة إبراهيم عليه السلام.

(٢) روى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حُفاةً عراةً غُرْلاً ثم قرأ ﴿كما بدأنا أول خلق نُعيده وَعْداً علينا إنّا كنا فاعلين﴾ فأوّل من يكسا إبراهيم..»

صورة ترسمها الكلمات بأدق تعبير عن أعماق النفس الإنسانية في ذلك الموقف المروّع: «على وَجْه آزر قَتَرَة وغَبَرة». .

ويبرز من المشهد صورة آزر في هذا الموقف العسير. . صورة للهفة الطاغية، والفَزَع المذهل، والرغبة الجامحة في الإفلات من المصير المنتظر. .

إن الحقيقة وقد تجلّت للقلب المطموس المنكوس، فتأجّجت نَفْسُه، واضطربت في عذاب سميك غليظ. . إن ظل العذاب ليتراءى على وجه آزر، وقد عَلَته الحسرة والضيق والحزن، في لون يُحقق الجو العام ليوم القيامة، هاهو ذا تعلوه سحابه من الكآبة. . ها هو ذا في المشهد في أنين خافت مُرعب، تتزلزل الأرض من رهبته. . ها هو ذا يتذكر صورة عمله في الدنيا. . وأنَّى له الذِّكرى؟ لقد طويت الحياة الدنيا في غمضة عين من مبدئها إلى منتهاها. . ها هو ذا آزر في كبريائه في الدنيا يقول لابنه إبراهيم حين دعاه إلى عبادة الله: ﴿**أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجُمَنَّك واهجرني ملياً**﴾[مريم: ٤٦].

إن القصة تدعو للوقوف والتأمل. . وقفة تأمُّل في نفس آزر يوم القيامة، مشهد تعرضه القصة، ثابت الألوان، ناطق بالحقيقة الثابتة الخالدة. . مشهد ثابت تتحول عنه العين ولا يتحول هو عن العين. . إنَّها الحسّرة والندامة. . يوم تَشْتَدُّ الحسّرة وتطغى الندامة: ﴿**يا حسّرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين**﴾[الزمر: ٥٦].

إنها خطوات الشيطان الذي اتبعها هذا الأبعد الشقي، فقاده إلى هذا المصير البائس، فَتُصَوِّره القصة «وعلى وجه آزر قُتَرة وغَبَرة»[١]. . كأن

---

(١) القَتَرة: ما يغشىٰ الوجه من الكرب.
والغَبَرَة: ما يعلوه من الغبار.
وأحدهما حسِّي والآخر معنوي. وقيل: القَتَرة: شدة الغبرة بحيث يَسْوَدّ الوجه، =

الضباب والقتام الأسود أصاب وجهه، ليس لوناً ولا صبغة، وإنَّما هو تصوير للعذاب المعنوي للمجرم الكافر وهو يواجه هذا اليوم الثقيل بضلاله وجحوده وكبريائه..

وهكذا تعرض القصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ في موقف يحمل العبرة والدرس والتوجيه، حتى يستفيد المسلمون منه في واقع حياتهم، فالقربى من الرسول لا تُغني عن المستكبر عن آيات الله، من ربّ العالمين شيئاً، والرسول ـ ﷺ ـ يعرض ذلك في مشهد مثير بين خليل الرحمن إبراهيم، وبين أبيه آزر يوم القيامة، وهو موقف أكثر دلالة، وأعمق أثراً من مئات التوجيهات والتحذيرات الوعظية المباشرة..

تلك من صور القيامة، ومن هذه الصور الرهيبة المزلزلة، الحوار فيها، بين إبراهيم ﷺ وأبيه آزر، نحسّ أنَّه واقع في الحاضر المشهود، تستعرضه العين، ويتحلاه الخيال في تأمُّل عميق حزين، ونتتبع حركة الصورة المعروضة في ذلك المشهد الرهيب، فتلامس النفس، وتُؤثر في الوجدان..

نقف أمام المشهد فنرى آزر في صورته الكئيبة، وهو في غمّ وكمد، في حواره مع إبنه إبراهيم.. «فيقول له إبراهيم: ألَم أقل لك لا تعصيني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك..».

وينبعث الخيال الإنساني متأملاً في أعماق آزر وهو يتذكر ويستحضر قول إبراهيم له في الدنيا: **﴿يا أبتِ إنِّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً. يا أبتِ لا تعبدا الشيطان. إن الشيطان كان للرحمن عصياً. يا أبتِ إنّي أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾**[مريم: ٤٣ ـ ٤٥].

= وقيل القَتَرة: سواد الدخان فاستعير هنا، والذي يظهر أن الغبرة الغبار من التراب، والقترة: السواد الكائن عن الكآبة «فتح الباري ٨/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦».

ونعود إلى المشهد اللاهث المكروب فنرى القلق والإضطراب وعدم الاستقرار، ونسمع صوت آزر، حزين محشرج مختلط بالعبرات والأنّات، نسمع آزر وهو يقول لابراهيم: «فاليوم لا أعصيك».

إنها كلمات ترسم صوراً مبطنة للهول، مغمورة بالكرب، موشاة بالفَزَع. لقد قال وهو يرى الحقيقة، فتهاوت كبرياء الظالم الجاحد لربّه، وقال ذلك في انكسار مهين.. قال في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة، والإنهيار مع التطلع إلى أية بارقة للخلاص!

إنَّه تعبير عن الشدّة والكرب حين يلاقي المجرم مصيره.. هذا المجرم المتكبر المتبجج.. وبصره خاشعاً والذلة مرهقة، هما المقابلان للهامة الشامخة والكبرياء المنفوخة.. إنَّه موقف مرهق ذليل يشي بالكرب والعجز جزاء ما كان عليه من إعراض واستكبار.

وتبرز المناجاة على ساحة القصة في دعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ بخصوص أبيه، فإبراهيم يدعو رَبّه: «يا ربَّ إنّك وَعَدْتَني أن لا تُخزيني يوم يُبعثون. فأي خزي أخزى من **أبي الأبعد**»[1].

فيقول الله تعالـى: إنّي حرمت الجنة على الكافرين».

ها هوذا آزر يَسمع ما يُيئس ويقّنط من كل بارقة أمل، أوكل حديث خادع من النفس، يسمع كلام ربّ العالمين، وهو القول الفصل «إني حرمت الجنة على الكافرين».

وهنا فجوة في القصة.. فيأخذ الخيال فسحته في تصور ذلك المشهد.. إنَّه موقف يُزلزل الكيان الإنساني، فَتَطير النفس شُعاعاً، بعدما أطبق عليها الحق بكلمة الحق، إنها أُمنية طائرة مُستحيلة.. فلا فَوْت من

---

(١) قال ابن حجر: وصف إبراهيم نفسه بالأبعد عن طريق الفَرَضى إذ لم تُقبل شفاعته في أبيه، وقيل: الأبعد: صفة أبيه، أي أنه شديد البعد من رحمة الله، لأنَّ الفاسق بعيد منها، فالكافر أبعد، وقيل: الأبعد: بمعنى البعيد، والمراد الهالك. «فتح الباري».

العذاب ولا مناص.. فالعلي الأعلى الجبار هو الذي يتولى الحكم والفصل، فالخزي اليوم والسوء على الكافرين، وقد﴿**حقت كلمة العذاب على الكافرين**﴾[الزمر: ٧١]..

ها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم «إنّي حرمت الجنة على الكافرين»، فالعذاب ينتظر الكافر، فلا مراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قُضي الأمر، وما من أحد من العباد يُخفف شيئاً من حكم الله﴿**فما تَنْفَعهم شفاعة الشافعين**﴾[المدثر: ٤٨].. فقد قَضَى الله تبارك وتعالى، وحقَّ القول، وتقرَّر المصير، الذي يليق بالمجرم، فما تنفعه شفاعة، فقد انتهى إلى شرّ كبير فبئس المصير.. «ثم يُقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ[(١)] مُتَلَطِّخ، فيؤخذ بقوائمه فَيُلْقَى في النار».. وفي رواية البخاري في باب﴿**ولا تخزني يوم يُبعثون**﴾،عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه، فيقولُ يا ربّ إنك وعدتني أن لا تحزني يوم يُبعثون. فيقول الله: إني حرمتُ الجنة على الكافرين».

وفي رواية ابن طهمان «فَيُؤْخَذ منه فيقول: يا إبراهيم أين أبوك؟ قال: أنتَ آخذته مني. قال: انظر أسفل فينظر فإذا هو ذيخ يتمَّرغ في نَتَنِه».

---

(١) في تاج العروس للزبيدي «ذيخ»: الذيخ بالكسر: الذئب الجريء بلسان خولان وهم قبيلة باليمن، والذريح: الفرس الحصان بكسر الحاء المهملة.

وفي حديث علي رضي الله عنه: (كان الأشعث ذا ذيخ) وهو الكِبَر، حكاه الهروي في الغريبين...

وفي حديث القيامة: (وينظر الخليل - عليه السلام - إلى أبيه فإذا هو بذيخ متلطخ) وهو ذكر الضباع الكثير الشعر.

وفي حديث خزيرة: (والذيخ محرنجماً) أي أن السَّنة [القحط] تركت ذكر الضباع مجتمعاً منقبضاً من شدة الجدب. والذيخ: ذكر الضباع.. والضبعان: ذكر الضباع والأنثى الضَبع.

وفي حديث أبي سعيد «فيتحَّول في صورة قبيحة وريح مُنْتِنة في صورة ضبعان» زاد ابن المنذر: «فإذا رآه كذا تبرأ منه. قال: لست أبي».

و« الذيخ: بكسرالذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمه: ذَكَر الضباع، وقيل: لا يقال له: ذيخ إلاَّ إذا كان كثير الشعر. والضبعان لغة في الضبع.

وقوله مُتَلَطِّخ: قال بعض الشُرَّاح أي في رجيع أو دم أو طين، وفي رواية «بذيخ أمدر» أي متلطخ بالمَدر، وقد عينت الرواية الأخرى: «فيتمرّغ في نَتَنه».

وفي غريب الحديث للخطابي(١): «وقال أبو سليمان في حديث النبي ﷺ في قصة إبراهيم وشفاعته يوم القيامة لأبيه: قال: «فيمسخه الله ضِبْعَاناً أَمْجَر، ثم يُدخل في النار»، وفي رواية أخرى: «فيحوّله الله ذيخاً»...

قال العلامة ابن حَجَر في تحويل آزر إلى حيوان كريه فَيُلقى في النار: قيلَ الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم منه، ولئلا يبقى في النار على صورته الآدمية فيكون فيه غضاضة على إبراهيم، وقيل الحكمة في مسخه ضبعاً، أن الضبع من أحمق الحيوان، وآزر كان من أحمق البشر لأنَّه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البيِّنات أَصرَّ على الكفر حتى مات. واقتصر في مسخه على هذا الحيوان لأنه وسط في التشويه بالنسبة إلى ما دونه كالكلب والخنزير وإلى ما فوقه كالأسد مثلاً، ولإنَّ إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح، فَأبى واستكبر وأصرَّ على الكفر فعومل بصفة الذل يوم القيامة، ولأنَّ للضبع عُوجاً فأُشيرَ إلى أن آزر لم

(١) غريب الحديث للخطابي، تحقيق الغرباوي: ٥٥٦/١ وفيه أيضاً: الأمجر: العظيم البطن المهزول الجسم. ورواه أبو عبيد (ضبعاناً أمرر) قال والأمرر العظيم البطن المنتفخ الجنبين قال: ويقال الأمرر الذي ترّب جنباه من المرر.

يستقم فيؤمن، بل استمرّ على عوجه في الدين[1].

إنَّه مشهد كريب في ذلك اليوم العصيب حين ينظر إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى أبيه «فإذا هو بذيخ مُتَلَطِّخ، فيؤخذ بقوائمه، فيُلْقَى في النار»..

ونقف قليلاً. يقودنا الخيال إلى صورة صاخَّة في مَشهد مُفزع، لا يَثبت على توَهُّمِه قلب إلاَّ وهو يرتعش ويهتز، وهو يشاهد نهاية هذا الأثيم الذي قادته كبرياء الضلال إلى رَوْع إبراهيم وزَجْره حين دعاه إلى الله ﴿يا إبراهيم لئن لم تَنْتهِ لأرجمنك واهجرني ملياً﴾..

أمر هائل رهيب هذا المتعالي يُمسخ مسخاً ويُلقَى في النار، وذلك جزاء الكفر والضلال. أُلقي في النار كما تُلقى الحجارة. دون اعتبار ولا عناية. وما أفظعها ناراً وما أشدها عذاباً. وفي جانب من جوانب المشهد. يمتد البصر بعين الخيال إلى جهنم تستقبله في تَغَيُّظ وزفير، وفي تأنيب وتزديل. ومن هول ذلك تدمع العيون وترجف القلوب من هذا المصير الأليم..

عرض مفزع مرعب مخيف. هذا المتعالي على ربّه وعلى الرسول الخليل. هذا هو الأمر العالي يصدر بعد أن مَسَخه مسخاً شنيعاً، يصدر الأمر إلى الزبانية ليأخذوه في عنف وتحقير «فيؤخذ بقوائمه».. تحقير يليق بمقامه في الدنيا، وأخذته ملائكة العذاب أَخْذاً مهيناً، وشدوه في إهانة وجفوة «فيُلقَى في النار»..

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٨/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

قصة لوط عليه السلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	١٤٧
ـ انحراف وشذوذ	١٤٩
ـ سَفاهَة وحُمق	١٥٦
ـ يوم عصيب	١٦١
ـ الركن الشديد	١٦٥
ـ العذاب المفزع والهلاك المروّع	١٦٩

لوط عليه السَّلام

انتهت دعوة إبراهيم لقومه الوثنيين بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط. ولوط هو ذو القرابة القريبة لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ، وهو من المقرَّبين إليه كذلك، فهو ابن أخيه أو ابن عمه كما قيل، آمن به وهاجر معه من أور الكلدانيين في العراق، إلى ما وراء الأردن حيث استقرَّ بهما المقام: **﴿فآمن له لوط، وقال: إنِّي مهاجر إلىٰ ربِّي، إنَّه هو العزيز الحكيم﴾** [العنكبوت: ٢٦]. . ونقف أمام قولة لوط: **﴿إنِّي مهاجر إلىٰ ربِّي﴾**. . لنرىٰ فِيمَ هاجر. إنَّه لم يهاجر للنجاة. ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة. إنَّما هاجر إلى ربه. هاجر متقرباً له ملتجئاً إلى حماه. هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه. هاجر إليه ليُخلص له عبادته ويُخلص له قلبه ويخلص له كيانه في مهجره، بعيداً عن موطن الكفر والضلال. بعد أن لم يبق رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدىٰ والإيمان بحال. . **﴿ونجَّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾** [الأنبياء: ٧١]. . وقصة لوط[1] مكانها التاريخي مع

---

(١) وقد وردت الإشارة إلى القصة في بضع عشر سورة.
ونجد في القرآن الكريم إشارات مبكرة من حيث النزول تتحدث عن قوم لوط وما حَلَّ بهم وذلك في الإشارات الكثيرة عن الأمم السالفة التي ذكرها القرآن.
ففي سورة النَّجم: **﴿والمؤتفكة أهوىٰ فغشَّاها ما غشَّىٰ فبأيِّ آلاء ربِّك تتمارَىٰ﴾** [آية: ٥٤]. . وهذه الإشارة تتحدث عن قوم لوط دون أن تذكرهم باسمهم، فهم يُعرفون بهذا الاسم، فقد غشيهم وقراهم من عذاب شديد قلبها رأساً على عقب. . =

. . . .

= وفي سورة (ق) جاءت الإشارة إلى قوم لوط مع أُمم هالكة: ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّسّ وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع كُلّ كذّب الرسل فحقّ وعيد﴾ [الآيات: ١٢ - ٢٤]..
ثمّ تأتي سورة القمر، ولعلّها السورة الأولى التي تتحدث عن قوم لوط وتكذيبهم لنبيهم وبالنُذر التي جاءتهم، كما تتحدث السورة عمّا حَلّ بهم من عذاب، وعمّا أنعم الله به على آل لوط: ﴿كذّبت قوم لوط بالنُذر، إنّا أرسلنا عليهم حاصباً إلاّ آل لوط نَجّيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبّحهم بُكرة عذاب مستقر. فذوقوا عذابي ونُذر، ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مُدّكر﴾ [الآيات: ٣٣ - ٤٠]..
ثمّ تأتي سورة الأعراف وفيها بعض البيان، فهي تبين أخبار الأنبياء: نوح وهود وصالح متتابعة، ثمّ يأتي الحديث عن لوط - عليه السّلام -: [الآيات: ٨٠ - ٨٤]..
ثمّ في سورة الفرقان ورد خبر قوم لوط في معرض التذكير ﴿ولقد أتوا على القرية التي أُمطرت مَطَر السَّوء، أفلم يكونوا يرونها، بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ [الآية: ٤٠]..
ثمّ تأتي سورة الشعراء وفيها الحديث عن القصة من مطلعها إلى نهايتها: [الآيات: ١٦٠ - ١٧٥]..
أمّا في سورة النمل فهي في الآيات: [٥٤ - ٥٨]..
ثمّ جاءت سورة هود وهي أوّل سورة تُذكر فيها قصة لوط عقب قصة إبراهيم - عليهما السّلام -، ففي السُّوَر السّابقة ذكرت وحدها دون قصة إبراهيم، اللّهمّ إلاّ في سورة الشعراء حيث ذكرتا معاً إلاّ أنّه فصل بينهما بعدة قصص: [الذّاريات: ٧٦ - ٨٣]..
ثمّ جاءت سورة الحجر، وتذكر فيها قصة لوط عقب قصة إبراهيم - عليهما السّلام - [الآيات: ٥٧ - ٧٧]..
ثمّ تأتي سورة الصّافات التي تشير إلى ما أُصيب به قوم لوط وتُذكّر العرب الذين يمرون بديارهم ﴿وإنّ لوطاً لمن المرسلين. إذ نجّيناه وأهله أجمعين. إلاّ عجوزاً في الغابرين. ثمّ دمّرنا الآخرين. وإنّكم لتمرُّون عليهم مصبحين. وباللّيل أفلا تعقلون﴾ [الآيات: ١٣٣ - ١٣٨]..
أمّا في سورة الذّاريات التي جاءت بعد ذلك فإنّ الحديث فيها عن قوم لوط جاء في ثنايا حديث إبراهيم حينما جاءه الرسل من الملائكة: ﴿قال: فما خطبكم أيّها المرسلون. قالوا: إنّا أُرسلنا إلىٰ قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ [الآيات: ٣١ - ٣٣]..
وفي سورة الأنبياء جاءت فيها إشارة موجزة مع موضوع سورة الأنبياء ﴿ولوطاً آتيناه حُكماً وعلماً ونجّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنّهم كانوا قوم سَوْء فاسقين. وأدخلناه في =

قصة إبراهيم فقد صَحِبَ عمه من العراق إلى الشام مهاجراً إلى ربه، فنزلا بوادي الأردن، ثمَّ عاش لوط وحده في إحدىٰ القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت فيما بعد. وكانت تسكن مدينة سدوم وعمورية وصار لوط منهم بالصهر والمعيشة.

انحراف وشذوذ:

ثمَّ حَدث أن فشا في القوم شذوذ عجيب، يذكر القرآن أنَّه يقع لأول مرة في تاريخ البشرية. ذلك هو الميل الجنسي المنحرف إلى الذكور بدلاً من الإناث اللاتي خلقهنَّ الله للرجال، لتتكون من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق الفطرة المطّردة في جميع الأحياء، إذ خلقها الله أزواجاً: ذكراناً وإناثاً. فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المماثل قبل قوم لوط هؤلاء:

﴿ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين..﴾ [الأعراف: ٨٠]..

وتكشف لنا قصة لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة، وعن قضية أُخرىٰ هي غير قضية الألوهية والتوحيد التي كانت مدار القصص السابق. ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد..

إنَّ الاعتقاد في الله الواحد يقود الإسلام لسُننه وشرعه. وقد شاءت سُنة الله أن يخلق البشر ذكراً وأُنثىٰ، وأن يجعلهما شقَّين للنفس الواحدة تتكامل بهما، وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل؛ وأن يكون

= **رحمتنا إنَّه من الصالحين﴾** [الآيات: ٧٤، ٧٥]..

أمَّا في سورة الحاقَّة فكان الحديث موجزاً ومندرجاً في ذكر بعض السالفين المكذِّبين **﴿وجاء فرعون ومن قَبْله والمؤتفكات بالخاطئة. فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾** [الآيات: ٩، ١٠]..

ثمَّ جاءت سورة العنكبوت في [الآيات: ١٨ ـ ٣٤]..

النسل من التقاء ذكر وأنثى. . ومن ثمَّ ركَّبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء، مُجَهَّزين عضوياً ونفسياً لهذا الالتقاء. . وجعل اللذة التي ينالانها عندئذٍ عميقة، والرغبة في إتيانها أصيلة، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله في امتداد الحياة، ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعاً في مقابل المتاعب التي يلقيانها بعد ذلك في الذرية. من حَمْل وَوَضع ورضاعة. ومن نفقة وتربية وكفالة. . ثمَّ لتكون كذلك ضماناً لبقائهما ملتصقين في أُسرة، تكفل الأطفال الناشئين، التي تطول فترة حضانتهم أكثر من أطفال الحيوان، ويحتاجون إلى رعاية أطول من الجيل القديم!

هذه هي سنة الله التي يتصل إدراكها والعمل بمقتضاها بالاعتقاد في الله وحكمته ولطف تدبيره وتقديره. ومن ثمَّ يكون الانحراف عنها متصلاً بالانحراف عن العقيدة، وعن منهج الله للحياة.

ويبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط، حتى إنَّ لوطاً ليجبههم بأنَّهم بدع دون خلق الله فيها، وأنَّهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين:

﴿ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين؟ إنَّكم لتأتون الرجال - شهوة - من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]. .

والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله المُمَثَّل في الفطرة السوية. والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يُريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب. فهي مجرد «شهوة» شاذة. لأنَّ الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية.

فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السُنة، فهو الشذوذ إذن

والانحراف والفساد الفطري، قبل أن يكون فساد الأخلاق.. ولا فرق في الحقيقة. فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية، بلا انحراف ولا فساد.

إنَّ التكوين العضوي للأُنثىٰ ـ كالتكوين النفسي ـ هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء، الذي لا يقصد به مجرد «الشهوة». إنَّما هي اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة، إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة، مصحوباً بلذة تعادل مشقة التكليف!

فأمَّا التكوين العضوي للذكر ـ بالنسبة للذكر ـ فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة؛ بل إنَّ شعور الاستقذار ليسبق، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة.

وطبيعة التصور الاعتقادي، ونظام الحياة الذي يقوم عليه، ذو أثر حاسم في هذا الشأن..

فهذه هي الجاهلية الحديثة في أُوروبا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً. بغير ما مبرر إلاَّ الانحراف عن الاعتقاد الصحيح، وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه.

وقد كانت هناك دعوىٰ عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الإنسانية لغير اليهود، بإشاعة الانحلال العقيدي والأخلاقي.. كانت هناك دعوىٰ عريضة من هذه الأجهزة الموجهة بأنَّ احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة في المجتمعات!

ولكن شهادة الواقع تخرق العيون. ففي أُوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أُنثىٰ ـ كما في عالم البهائم! ـ وهذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع الاختلاط ولا ينقص!

ولا يقتصر على الشذوذ بين الرجال؛ بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء.. ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ:

« السلوك الجنسي عند الرجال» و «السلوك الجنسي عند النساء» في تقرير « كنزي » الأمريكي . .

ولكنَّ هذه الأجهزة الموجهة ما تزال تردد هذه الأكذوبة، وتسندها إلى حجاب المرأة. لتؤدِّي ما تريده بروتوكولات صهيون، ووصايا مؤتمرات المبشِّرين[1]!

لقد كان قوم لوط يقترفون السيئات، ويأتون المنكر ويمارسون أفظع الفواحش، وأقبح الأعمال التي لم يأتها أحد من قبلهم إذ كانت أعمالاً تنفر منها الفِطرة البشرية، وتجردوا من كل عِفة وانسلخوا عن كل فضيلة فهم لا يتعففون عن معصية، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سريرة: يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويتربصون لكل سارٍ، لا يَردّهم عن ذلك دين، ولا يصدهم حياء. . وابتدعوا فاحشة لم يُسبقوا إلى اجترامها، وتعاطوا محرماً ما كان يدور بخلد أحدٍ اقترافه، فكانوا يأتوا الذكران من العالمين، ويذَرون ما خلق الله من النساء فلا يقربوهنَّ:

﴿**كذَّبت قوم لوط المرسلين: إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتَّقون. أنِّي لكم رسول أمين. فاتَّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاَّ على رب العالمين**﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤]. .

لقد بدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح. يستنكر استهتارهم، ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوىٰ ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة، ويُطَمْئِنَهم إلى أنَّه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدىٰ. ثمَّ يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عُرفوا بها في التاريخ: ﴿**أتأتون الذكران من العالمين؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم؟ بل أنتم قوم عادون**﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦]. .

---

(١) يراجع كتاب «هل نحن مسلمون» وكتاب «التطور والثبات في حياة البشرية» لمحمَّد قطب.

والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور، وترك النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذكر والأنثىٰ، وفطر الله كلًّا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل، الذي يتم باجتماع الذكر والأنثىٰ. فكان هذا الميل طرفاً من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كل من في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبِّرة لهذا الوجود. فأمَّا إتيان الذكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقق غاية، ولا يتمشّىٰ مع فطرة هذا الكون وقانونه. وعجيب أن يجد فيه أحد لذة.

واللذة التي يجدها الذكر والأنثىٰ في التقائهما إن هي إلَّا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط. ومن ثَمَّ لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريهم من حكمة وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد.

وظاهرة الشذوذ الجنسي هي ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية. فقد يشذ أفراد لأسباب مرضية نفسية أو لملابسات وقتية، فيميل الذكور لإتيان الذكور، وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء، أو في السجون التي يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي، محرومين من الاتصال بالنساء.

أمَّا أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره، مع وجود النساء وتَيَسُّر الزواج، فهذا هو الحادث الغريب حقاً في تاريخ الجماعات البشرية!

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر، لأنَّه جعل الحياة كلها تقوم على قاعدة التزاوج. فقال:

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها ممَّا تنبت الأرض، ومن أنفسهم وممَّا لا يعلمون﴾ [يٓس: ٣٦]. .

فجعل الأحياء كلها أزواجاً سواء نبات الأرض والأنفس وما لا يعلمه الناس في شتّىٰ المخلوقات.

والتزاوج يبدو أصيلاً في بناء الكون كله ـ فضلاً على الأحياء ـ فالذرة ذاتها مؤلفة من كهارب والكترونات. أي من كهربائية إيجابية وأُخرىٰ سلبية. وهي وحدة الكائنات المكرورة فيها جميعاً كما يبدو حتى الآن.

وعلى أية حال فالحقيقة المضمونة أنَّ الأحياء كلها تقوم على قاعدة التزاوج. حتى التي لا يوجد لها من جنسها ذكر وأُنثىٰ تجتمع خلايا التذكير والتأنيث في آحادها، وتـتكاثر بهذا الاجتماع.

ولمَّا كان التزاوج هو قاعدة الحياة في ناموس الخلق، فقد جعل الله التجاذب بين الزوجين هو الفطرة، التي لا تحتاج إلى تعليم، ولا تـتوقف على تفكير. وذلك كي تسير الحياة في طريقها بدافع الفطرة الأُصيل. والأحياء يجدون لذتهم في تحقيق مطالب الفطرة. والقدرة المدبرة تحقق ما تشاؤه من وراء لذتهم المودعة في كيانهم بلا وعي منهم ولا توجيه من غيرهم.

وقد جعل الله تركيب أعضاء الأُنثىٰ وأعضاء الذكر، وميول هذا وتلك بحيث تحقق اللذة الفطرية من اجتماعهما. ولم يجعل هذا في أعضاء الذكرين وميولهما.

ومن ثمَّ يكون عجيباً أن تنحرف الفطرة انحرافاً جماعياً كما حدث في قوم لوط، بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم.

وهكذا واجه لوط قومه بالاستنكار والعجب بما يفعلون!

﴿ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟ أئنَّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء؟ بل أنتم قوم تجهلون﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥]. .

عَجِبَ في عبارته الأُولىٰ من إتيانهم هذه الفاحشة، وهم يُبصرون الحياة في جميع أنواعها وأجناسها تجري على نسق الفطرة، وهم وحدهم الشواذ في وسط الحياة والأحياء.. وصَرَّح في عبارته الثانية بطبيعة تلك الفاحشة. ومجرد الكشف عنها يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية، ولمألوف الفطرة جميعاً.

لقد دعاهم لوط أن يستقيموا على الجادة والصواب، وأن يتركوا الفساد والضلال، ليستقيم حالهم حتى لا يُهلكهم الله بعذاب أليم..

﴿ولوطاً إذ قال لقومه: إنَّكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين. أئِنَّكم لتأتون الرجال، وتقطعون السبيل، وتأتون في ناديكم المنكر..﴾ [العنكبوت: ٢٨]..

ومن خطاب لوط لقومه يظهر أنَّ الفساد قد استشرىٰ فيهم بكل ألوانه. فهم يأتون الفاحشة الشاذة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين:

ـ يأتون الرجال. وهي فاحشة شاذة قذرة تدل على انحراف الفطرة وفسادها من أعماقها. فالفطرة قد تفسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة، فتكون هذه جريمة فاحشة، ولكنها داخلة في نطاق الفطرة ومنطقها.

فأمَّا ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعاً. وفساد في التركيب النفسي والتركيب العضوي سواء. فقد جعل الله لذة المباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر، وامتداده بالنسل الذي ينشأ عن هذه المباشرة. وجهز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه المباشرة، نفسياً وعضوياً، وفقاً لذلك التناسق. فأمَّا المباشرة الشاذة فلا هدف لها، ولم يجهز الله الفطرة بالتذاذها لانعدام الهدف منها. فإذا وجد فيها أحد لذة فمعنىٰ هذا أنَّه انسلخ نهائياً من خط الفطرة، وعاد مسخاً لا يرتبط بخط الحياة!

ـ ويقطعون السبيل، فينهبون المال، ويروعون المارة، ويعتدون على

الرجال بالفاحشة كرهاً. وهي خطوة أبعد في الفاحشة الأُولىٰ، إلى جانب السلب والنهب والإفساد في الأرض..

ـ ويأتون في ناديهم المنكر. يأتونه جهاراً وفي شكل جماعي متفق عليه. لا يخجل بعضهم من بعض. وهي درجة أبعد في الفحش، وفساد الفطرة، والتبجح بالرذيلة إلى حد لا يُرجىٰ معه صلاح!

سفاهة وحمق:

لقد تمادىٰ القوم في ضلالهم، حتى فشت فيهم المنكرات، وكثرت الموبقات، وأُشربت قلوبُهم حبَّ الفاحشة، واستحبوا الضلالة على الهدىٰ، وآثروا الغواية على الرشد، واستحوذ عليهم الشيطان فزيَّن لهم ما يعملون وما يفسدون.. ولوط ـ عليه السَّلام ـ يسفِّه فعلهم وهم في جهلهم يعمهون **﴿أئنَّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾** [النَّمل: ٥٥]..

فهو قد دمغهم بالجهل بمعنييه: الجهل بمنعىٰ فقدان العلم. والجهل بمعنىٰ السفه والحمق. وكلا المعنيين متحقق في هذا الانحراف البغيض. فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء، ولا يعلم شيئاً أصلاً. والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتد على جميع الحقوق!

فلمَّا دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خَلَقَ لهم ربهم من أزواجهم، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها.. تبين أنَّهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة وإلى سنة الفطرة: **﴿قالوا: لئن لم تنته يَا لوط لتكونَنَّ من المخرجين﴾** [الشعراء: ١٦٧]..

وقد كان فيهم غريباً. وَفَدَ عليهم مع عمه إبراهيم حين اعتزل أباه وقومه، وترك وطنه وأرضه، وعبر الأُردن مع إبراهيم والقلة التي آمنت معه.

ثمَّ عاش مع هؤلاء القوم حتى أرسله الله إليهم، ليردَّهم على ما هم فيه، فإذا بهم يُهددونه بالإخراج من بينهم، إذا لم ينته عن دعوتهم إلى سواء الفطرة القويم.

وهكذا كان جواب قوم لوط على هذا الاستنكار للانحراف، وهذا التوجيه إلى وحي الفطرة السليمة.. كان جوابهم في اختصار أن همُّوا بإخراج لوط ومن سمع دعوته وهم أهل بيته ـ إلاَّ امرأته ـ بحجة أنَّهم أُناس يتطهَّرون!

﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: أَخرِجوا آل لوط من قريتكم إنَّهم أُناس يتطهَّرون﴾ [النَّمل: ٥٦]..

وقولهم هذا قد يكون تهكّماً بالتطهر من هذا الرجس القذر. وقد يكون إنكاراً عليه أن يسمى هذا تطهراً، فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة. وقد يكون ضيقاً بالطُّهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ!!

لقد تجلّىٰ لنا الانحراف مرة أُخرىٰ في جوابهم لنبيهم: **﴿وما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: أخرِجوهم من قريتكم، إنَّهم أُناس يتطهَّرون﴾** [الأعراف: ٨٢]..

يا عجباً! أومن يتطهَّر يُخرج من القرية إخراجاً، ليبقىٰ فيها الملوثون المدنسون؟!

ولكن لماذا العجب؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة؟ أليست تُطارد الذين يتطهرون، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية ـ وتسميه تقدمية وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة ـ أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك؛ ولا تطيق أن تراهم يتطهرون؛ لأنَّها لا تتَّسع ولا ترحب إلاَّ بالملوثين الدنسين القذرين؟! إنَّه منطق الجاهلية في كل حين!!

عندئذٍ لم يبق إلاَّ أن يُعالنهم بكراهة ما هم عليه من شذوذ، في تقزز واستبشاع: **﴿قال: إنّي لعملكم من القالين﴾** [الشعراء: ١٦٨]. والقلىٰ: الكره البالغ. يقذف به لوط في وجوههم في اشمئزاز. ثمَّ يتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله: **﴿ربِّ نجِّني وأهلي ممَّا يعملون﴾**..

وهو لا يعمل عملهم، ولكنه يحسّ بفطرته الصادقة أنَّه عمل مُردٍ مُهلك. وهو فيهم. فهو يتوجه إلى ربه أن يُنجيه وأهله ممَّا سيأخذ به قومه من التدمير..

لقد أبرزت الآيات القرآنية هَمَّ قوم لوط بإخراجه لأنَّه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفاق وتعارف وعلانية. فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال، وترك النساء، على غير الفطرة التي فَطَر الله عليها. بل عامة الأحياء..

وفي قصة لوط يتبدّىٰ تبجح الرذيلة واستعلانها، وسفورها بلا حياء ولا تحرُّج، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ؛ مع الاستهتار بالنذير: **﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصادقين﴾** [العنكبوت: ٢٩]..

على أية حال لقد همُّوا همَّهم، واندفعوا في الضلالة والغواية، في طريق الشرّ والشهوات، وتمادوا في فجورهم، وأمعنوا في المراوغة والتبجح، واستخفوا بالعذاب الذي خوّفهم منه نبيهم، وتلقوا من الرسول عِظاته ونصائحه بالتهكّم والاستكبار وأعلنوا تحديهم له أن يأتيهم بالعذاب إن كان ثمة عذاب. سيحلّ بهم، وأن يُنزل عليهم ما يريد من العقاب إن كان صادقاً في وعيده: **﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصَّادقين﴾**.

فهـو التبجح في وجـه الإنذار، والتحـدي المصحوب بـالتكـذيب، والشرود الذي لا تنتظر منه أوبة.

لقد دعاهم لوط إلى الله، وأمرهم في أول الأمر ونهاهم بـالحسنىٰ؛ ولكنهم أصـرُّوا على ما هم فيـه، فخوّفهم عـذاب الله، وجَبَهَهُم بشنـاعـة جرائمهم الكبرىٰ، فتمادوا في التحدي الهابط والتبجح السافر الشنيـع.. عندئذٍ استيقن لوط أنَّهم لن يُذعنوا إلى الحق المبين، وأنَّه لا سبيـل إلى هدايتهم، ولا جدوىٰ في الاستمرار في دعوتهم، ولا خير يُرجىٰ منهم. وقد أعذر إليهم رسولهم فلم يبق إلَّا أن يتوجه إلى ربه طالباً نصره الأخير: **﴿قال: ربِّ انصرني على القوم المفسدين﴾** [العنكبوت: ٣٠]..

لقد توجه إلى الله سائلاً أن ينصره على هؤلاء المفسدين، طالباً أن ينزل عليهم ما يستحقونه من العقاب، وما هم جديرون به من العذاب وذلك حتى يستأصل داءهم فلا ينتشر، ويقضي على فسادهم القبيح الشنيع.. وهنا يُسـدل الستار على دعـاء لوط، ليـرفع عن الاستجـابة. وفي الـطريق يلمّ الملائكة المكلفون بالتنفيذ بإبراهيم يُبشرونه بولد صالح من زوجه التي كانت من قبل عقيماً:

﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟ إذ دخلوا عليه، فقالوا: سلاماً. قال: سلام قوم منكرون﴾ [الذَّاريات: ٢٤ ـ ٢٥].. **﴿قال: فما خطبكم أيُّها المرسلون﴾** [الذَّاريات: ٣١]..

وبعد بشرىٰ الملائكة راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأنهم الذي أُرسلوا فيه: **﴿قالوا: إنَّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين﴾** [الذَّاريات: ٣٢].. **﴿إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾** [هود: ٧٠]..

لقد كان مرور الملائكة بإبراهيم كان للبشرىٰ. ثمَّ أخبروه بمهمتهم الأُولىٰ وهي إهلاك قوم لوط **﴿إنَّا أُرسلنا إلىٰ قومٍ مجرمين لنرسـل عليهم حجارة من طين، مُسومة عند ربك للمسرفين﴾** [الذَّاريات: ٣٢ ـ ٣٤]..

وإبراهيم يُدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط!

ولوط هوابن أخيه ـ المهاجر معه من مسقط رأسه والساكن قريباً منه ـ وإرسال الملائكة إلى قوم لوط هو ما ينتظرهم من هلاك واستئصال. وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعاً:

﴿فلمَّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرىٰ يجادلنا في قوم لوط. إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاه منيب﴾ [هود: ٧٤، ٧٥]..

وأدركت إبراهيم رقته ورأفته، فراح يُذَكِّر الملائكة أنَّ في هذه القرية لوطاً؛ وهو صالح وليس بظالم! **﴿قال: إنَّ فيها لوطاً﴾** [العنكبوت: ٣٢].

وأجابه الرسل بما يُطمئنه، ويكشف له عن معرفتهم بمهمتهم وأنَّهم أوْلىٰ بهذه المعرفة!

﴿قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجِّينَّه وأهله إلاَّ امرأته كانت من الغابرين﴾ [العنكبوت: ٣٢]..

وقد كان هواها مع القوم، تقرّ جرائمهم وانحرافهم، وهو أمر عجيب.

ولكنَّ إبراهيم الأوَّاه الحليم المنيب.. دعته هذه الصفات كلها أن يجادل الملائكة في مصير قوم لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدل لأنَّ النص القرآني لم يُفصِّله، فجاءه الرد بأنَّ أمر الله فيهم قد قُضي وأنَّه لم يعد للجدال مجال:

﴿يَا إبراهيم أعرض عن هـٰذا، إنَّه قد جاء أمر ربك، وأنَّهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ [هود: ٧٦].

وهكذا فقد علم إبراهيم سبب مجيء الملائكة وغايته **﴿قال: فما خطبكم أيُّها المرسلون؟ قالوا: إنَّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين. إلاَّ آل لوط إنَّا لمنجُّوهم أجمعين، إلاَّ امرأته قدرنا إنَّها لمن الغابرين﴾**[1] [الحجر: ٥٧ ـ ٦٠]..

---

(١) أي إنَّها باقية مع القوم تَلقىٰ مصيرهم. وأصله من الغُبرة وهي بقية اللّبن في الضرع.

وهكذا أخبره الملائكة بالنبأ كلّه. ذلك أنّه يصدق رحمة الله بلوط وأهله، وعذابه لامرأته وقومه. وينتهي بذلك دورهم مع إبراهيم، ويمضون لعملهم مع قوم لوط..

يوم عصيب :

وينتقل سياق القصة إلى مشهد ثالث. مشهد لوط. وقد جاء إليه الملائكة في هيئة فِتْية صِباح مِلاح؛ وهو يعلم شَنْشَنة قومه، وما ينتظر ضيوفه هؤلاء منهم من سوء لا يملك له دفعاً.

﴿ولمَّا جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً، وقال هـذا يوم عصيب!﴾ [هود: ٧٧]..

لقد كان يعرف قومه. ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين. إذ كانوا يتركون النساء إلى الرجال، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً، كي تمتد الحياة بالنسل ما شاء لها الله. والتي تجد اللذة الحقيقية في تلبية نداء الحكمة الأزلية، لا عن تفكير وتدبير، ولكن عن اهتداء واستقامة.

والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة. وهي تشير إلى أنَّ المرض النفسي يعدي كالمرض الجسدي. وأنَّه يمكن أن يروج مرض نفسي كهذا نتيجة لاختلال المقاييس في بيئة من البيئات، وانتشار المثل السيء، عن طريق إيحاء البيئة المريضة. على الرغم من مصادمته للفطرة، التي يحكمها الناموس الذي يحكم الحياة. الناموس الذي يقتضي أن تجد لذتها فيما يلبي حاجة الحياة لا فيما يصادمها ويعدمها. والشذوذ الجنسي يصادم الحياة ويعدمها، لأنَّه يذهب ببذور الحياة في تربة خبيثة لم تُعَدّ لاستقبالها وإحيائها. بدلاً من الذهاب بها إلى التربة المُستَعدَّة لتلقيها وإنمائها. ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفوراً فطرياً لا أخلاقياً ـ فحسب ـ من عمل قوم لوط. لأنَّ هذه الفطرة محكومة بقانون الله في الحياة.

الذي يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطلها.

ولقد نجد أحياناً لذة في الموت ـ في سبيل غاية أسمىٰ من الحياة الدنيا ـ ولكنها ليست لذة حسية إنّما هي معنوية اعتبارية. على أنّ هذه ليست مصادمة للحياة، إنّما هي إنماء لها وارتفاع بها من طريق آخر. وليست في شيء من ذلك العمل الشاذ الذي يعدم الحياة وخلاياها.

سِيءَ لوط بأضيافه وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه..

﴿**فلمّا جاء آل لوط المرسلون، قال: إنّكم قوم منكرون**﴾ [الحجر: ٦١، ٦٢]..

قالها لوط ضيّق النفس بهم، وهو يعرف قومه، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء، وهو بين قومه غريب، وهم فَجَرة فاحشون..

إنّكم قوم مُنكرون أن تجيئوا إلى هذه القرية وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون!

سِيءَ لوط بأضيافه. وهو يعلم السوء والفحشاء في قومه، ويدرك الفضيحة التي ستناله في أضيافه:

﴿**وقال: هٰذا يوم عصيب**﴾!

ويدأ اليوم العصيب! ﴿**وجاءه قومه يهرعون إليه**﴾ [هود: ٧٧]..

أي يسرعون في حالة تشبه الحمىٰ.

﴿**ومن قبل كانوا يعملون السيئات**﴾ [هود: ٧٧]..

وكان هذا ما ساء الرجل بضيوفه، وما ضيق بهم ذرعه، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب!

لقد تسامع القوم بأنّ في بيت لوط شباناً صباح الوجوه ففرحوا بأنّ هناك صَيْداً:

﴿**وجاء أهل المدينة يستبشرون**﴾ [الحجر: ٦٧]..

والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدىٰ الشناعة والبشاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة. يكشف عن هذا المدىٰ في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية.

هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر ـ فوق المنكر ذاته ـ شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنَّه وقع. فقد يشذ فرد مريض فيتوارىٰ بشذوذه، ويتخفىٰ بمرضه، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس.

وإنَّ الفطرة السليمة لتتخفىٰ بهذه اللذة حين تكون طبيعية. بل حين تكون شرعية. وبعض أنواع الحيوان يتخفىٰ بها كذلك.. بينما أُولئك القوم المنحوسون يُجاهرون بها، ويتجمهرون لتحصيلها، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها! إنَّها حالة من الارتكاس معدومة النظير.

ورأىٰ لوط ما يشبه الحمىٰ في أجساد قومه المندفعين إلى داره، يُهَدِّدونه في ضيفه وكرامته.. وقف مكروباً يحاول أن يُدافع عن ضيفه وعن شرفه. وَقَفَ يستثير النخوة الآدمية فيهم ويستجيش وجدان التقوىٰ لله. وإنَّه ليعلم أنَّهم لا يتقون الله، ويعلم أنَّ هذه النفوس المُرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يُستجاش. ولكنه في كربه وشدّته يحاول ما يستطيع: **﴿قال: إنَّ هٰؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتَّقوا الله ولا تخزون﴾** [الحجر: ٦٨، ٦٩].. وبدلاً من أن يثير هذا في نفوسهم رواسب المروءة والحياء، إذا هم يَتَبَجَّحون فَيؤنِّبون فيؤنبون لوطاً على استضافة أحد من الرجال. كأنَّما هو الجاني الذي هيَّأ لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون لها دفاعاً!

﴿قالوا: أوَلَمْ ننهك عن العالمين﴾؟ [الحجر: ٧٠]..

وحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ويُوجِّههم إلى الجنس الآخر

الذي خَلَقَه الله للرجال، ومضىٰ في محاولته يُلَوِّح لهم باتجاه الحياة السليم إلى الإناث اللواتي جعلهنَّ الله لتلبية هذا الدافع العميق في نظام الحياة، ليكون النسل الذي تمتد به الحياة وجعل تلبية هذا الدافع معهنَّ موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معاً ـ في الحالات الطبيعية ـ ليكون هذا ضماناً لامتداد الحياة، بدافع عن الرغبة الشخصية العميقة، وعنده منهنَّ في داره بناته، فهنَّ حاضرات، حاضرات اللحظة! إذا شاء الرجال المحمومون تمَّ الزواج على الفور، **وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة!**

﴿قال: يَا قوم هٰؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم﴾ [هود: ٧٨]..

أطهر بكل معاني الطهر. النفسي والحسي. فهنَّ يلبين الفطرة النظيفة، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة. نظافة فطرية ونظافة أخلاقية ودينية. ثمَّ هنَّ أطهر حسياً. حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمناً كذلك طاهراً نظيفاً.

وهكذا مضىٰ لوط في محاولته: **﴿قال: هٰؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾** [الحجر: ٧١]..

ولوط النبي لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهنَّ سفاحاً. إنَّما هو يلوح بالطريق الطبيعي الذي ترضاه الفطرة السليمة، لِيُنَبه فيهم هذه الفطرة. وهو يعلم أنَّهم إن ثابوا إليها فلن يطلبوا النساء سفاحاً. فهو مجرد هتاف للفطرة السليمة في نفوسهم لعلَّها تستيقظ على هذا العرض الذي هم عنه معرضون.

ويمضي لوط يستثير كوامن الخير في نفوسهم المنكوسة **﴿فاتَّقوا الله﴾**.. قالها يلمس نفوسهم من هذا الجانب بعد أن لمسها من ناحية الفطرة.. **﴿ولا تخزون في ضيفي﴾**.. قالها يلمس نخونهم وتقاليد البدو في إكرام الضيف إطلاقاً.. **﴿أليس منكم رجل رشيد؟﴾** [هود: ٧٨]..

فالقضية قضية رُشْد وسفه إلى جوار أنَّها قضية فطرة ودين ومروءة. . ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة، ولا القلوب الميتة الآسنة، ولا العقول المريضة المأفونة. وظلت الفورة المريضة الشاذة في اندفاعها المحموم:

﴿قالوا: لقد علمتَ ما لك في بناتك من حق. وإنَّك لتعلم ما نريد!﴾ [هود: ٧٩]. .

لقد علمتَ لو أردنا بناتك لتزوجناهنَّ. فهذا حقنا. . ﴿وإنَّك لتعلم ما نريد﴾. . وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث. . وبينما هذا المشهد معروض. القوم في سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون. ولوط يُدافعهم ويستثير نخوتهم، ويستجيش وجدانهم، ويحرك دواعي الفطرة السليمة فيهم، وهم في سعارهم مندفعون.

بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت القرآن خطاباً لمن يشهد ذلك المشهد، على طريقة العرب في كلامهم بالقسم: ﴿لعمرك إنَّهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢]. .

لتصوير حالتهم الأصيلة الدائمة التي لا يُرجىٰ معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوىٰ والفطرة السليمة. .

الركن الشديد :

لقد ضاق صدر النبي لوط ـ عليه السَّلام ـ وبلغ الضيق مُنتهاه، وساءه حضور الضيوف الصِباح المِلاح في هذا الظرف العصيب خوفاً من شذوذ قومه العجيب. . ﴿ولمَّا أن جاءت رُسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ [العنكبوت: ٣٣]. . وأُسقط في يد لوط بعد أن رأىٰ تصميم القوم وهم في فورتهم مندفعون، وأحسَّ ضعفه وهو غريب بين القوم، نازح إليهم من بعيد، لا عشيرة له تحميه، وليس له من قوة في هذا اليوم العصيب؛

وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة: ﴿**قال: لو أنَّ لي بكم قوة أو آوي إلىٰ ركن شديد!**﴾ [هود: ٨٠]..

قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية ـ الذين جاء الملائكة في صورتهم ـ وهم صغار صباح الوجوه؛ ولكنهم ـ في نظره ـ ليسوا بأهل بأس ولا قوة. فالتفت إليهم يَتَمَنَّىٰ أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة. أو لو كان له ركن شديد يحتمي به من ذلك التهديد!

وغاب عن لوط في كُربته وشدّته أنَّه يأوي إلى ركن شديد. ركن الله الذي لا يتخلّىٰ عن أوليائه. كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1]!

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها، وبلغ الكرب أشدّه.. كَشَفَ الرسل للوط عن الركن الشديد الذي يأوي إليه: ﴿**قالوا: يَا لوط، إنَّا رُسل ربك، لن يصلوا إليك**﴾ [هود: ٨١].. ﴿**قالوا: بل جئناك بما كانوا فيه يمترون، وآتيناك بالحق وإنَّا لصادقون**﴾ [الحجر: ٦٣، ٦٤]..

وهكذا يعجل السياق إخبارهم للوط بأنَّهم الملائكة، جاءوه بما كان قومه يَمترون فيه من أَخْذِهم بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون، تصديقاً لِوَعْدِ الله، وتوكيداً لوقوع العذاب حين ينزل الملائكة بلا إبطاء..

وهذه التوكيدات كلها تُصوّر لنا جَزَع لوط وكربه. وهو في حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم في وجه قومه. فجاءه التوكيد بعد التوكيد، لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه..

لقد كشف الرسل عن حقيقتهم، وهم يُخبرونه بمهمتهم في هذا

---

(١) ترحَّم عليه النَّبي ﷺ لسهوه في الوقت الذي ضاق صدره، واشتدَّ جزعه بما دهمه من قومه حتى قال: أو آوي إلى ركن شديد، وقد كان يأوي إلى أشد الأيمان من الله تعالىٰ. انظر البغوي في «شرح السنة» ١/١١٦ ـ ١١٧. وانظر البخاري (٣٣٧٢) و(٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١) و(٢٣٨)، والإحسان (٦٢٠٨).

الكرب وذلك الضيق. . ﴿وقالوا: لا تخف ولا تحزن. إنَّا منجُوك وأهلك إلاَّ امرأتك كانت من الغابرين﴾ [العنكبوت: ٣٣]. .

لقد آن أوان هلاك القوم المفسدين، وجاء وقت البطش الشديد. . إنَّه آتيهم عذاب غير مردود وما هو منهم ببعيد. . فقد انتهىٰ وقت الإنذار: ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذُر. ولقد راودوه عن ضيفه فَطَمَسْنا أعينهم، فذوقوا عذابي ونُذُر. .﴾ [القمر: ٣٦ ـ ٤٠]. .

وطالما أنذر لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذي كانوا يأتونه، فتماروا بالنُّذر، وشكُّوا فيها وارتابوا، وتبادلوا الشك والارتياب فيما بينهم وتداولوه، وجادلوا نبيهم فيه. وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن يُراودوه هو نفسه عن ضيفه ـ من الملائكة ـ وقد حسبوهم غلماناً صِباحاً فهاجَ سعارهم الشاذ الملوث القذر! وساوروا لوطاً يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه، غير مُحتشمين ولا مُستحيين، ولا مُتحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي حَذَّرهم وأنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض.

عندئذٍ تدخلت يد القدرة، وتحرك الملائكة لأداء ما كُلِّفوه وجاءوا من أجله، وكشفوا للوط عن ركن الله العظيم الذي يأوي إليه حَمَلَة دعوة الله، فأنباوه نبأهم، و﴿قالوا: يَٰلوط، إنَّا رُسل ربك، لن يصلوا إليك﴾ [هود: ٨١]. .

تدخلت القدرة التي هي بالمرصاد للظالمين والمفسدين، فالله راصد لهم ومُسَجِّل لأعمالهم. فلمَّا أن كثر الفساد، وغاب كل ذي حكمة ورشاد: ﴿فطمسنا أعينهم﴾ [القمر: ٣٧]. . فلم يعودوا يرون شيئاً ولا أحداً؛ ولم يعودوا يقدرون على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه!

وبعد. . ألقت الملائكة التعليمات إلى لوط، لينجوا مع أهل بيته الطاهرين، إلاَّ امرأته فإنَّها كانت من القوم الفاسدين: ﴿فأسْرِ بأهلك بقطعٍ من الليل، ولا يلتفت منكم أحد إلاَّ امرأتك. إنَّه مصيبها ما أصابهم، إنَّ

موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب؟﴾ [هود: ٨١]. .

وقد كان الأمر للوط أن يسير بقومه في الليل قبل الصبح: ﴿فأسْر بأهلك بقطع من الليل. واتَّبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد، وامضوا حيث تُؤمرون﴾ [الحجر: ٦٥]. .

والسُّرىٰ: سير الليل، والقطع من الليل: جزؤه وبعضه. ولا يلتفت منكم أحد. أي لا يتخلف ولا يعوق. لأنَّ الصبح موعدهم مع الهلاك. فكل من بقي في المدينة فهو هالك مع الهالكين.

وهكذا كان الأمر أن يسير لوط بالمؤمنين في الليل قبل الصبح، وأن يكون هو في مؤخرتهم يتفقدهم ولا يدع أحداً منهم يَتخلَّف أو يتلكأ أو يتلفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم فيتلفتون ويتلكأون. وكان الموعد هو الصبح ﴿إنَّ موعدهم الصبح﴾ والصبح قريب: ﴿أليس الصبح بقريب؟﴾ [هود: ٨١]. . سؤال لإنعاش نفس لوط بعدما ذاق. لتقريب الموعد وتأكيده. فهو قريب. مع مطلع الصباح. ثمَّ يفعل الله بالقوم ـ بقوته ـ ما لم تكن قوة لوط التي تمنَّاها فاعلة!

﴿وقضينا إليه ذلك الأمر: أنَّ دابر هٰؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجر: ٦٦]. . ﴿إنَّا منزلون علىٰ أهل هٰذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ [العنكبوت: ٣٤]. . وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير: أنَّ آخر هؤلاء القوم ـ وهو دابرهم ـ مقطوع في الصباح. وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أوّلهم. فلا بد من الحرص واليقظة كي لا يتخلف أحد ولا يتلفت، فيُصيبه ما يُصيب أهل المدينة المُتَخَلّفين. لقد هَمَّ القوم هَمَّهم، وحزموا أمرهم. وأراد الله غير ما كانوا يريدون. . وكان طمس العيون في المساء. . في انتظار الصباح الذي قَدَّره الله لأخذهم جميعاً.

ثمَّ تكون الخاتمة. وتحق عليهم كلمة الله: ﴿ما نُنزل الملائكة إلاَّ بالحق وما كانوا إذا مُنظَرين﴾ [الحجر: ٨]. .

العذاب المفزع والهلاك المروّع :

ويعرض القرآن خاتمة القوم في المشهد الأخير.. مشهد الدمار المُروّع، اللائق بقوم لوط: ﴿**فأخذتهم الصَّيحةُ مُشرقين، فجعلنا عَالِيَها سافلها وأمطرنا عليهم حِجَارة من سِجِّيل**﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤]..

وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب والخسف والهلاك المناسب لتلك الطبائع المقلوبة ﴿**فلمَّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوَّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].. فلمَّا جاء موعد تنفيذ الأمر ﴿**جعلنا عاليها سافلها**﴾.. وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها. وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان. بل أحط من الحيوان. فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان..

﴿**وأمطرنا عليها حجارة من سجيل**﴾.. حجارة ملوثة بالطين.. وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام ﴿**منضود**﴾.. متراكم بعضه يلاحق بعضاً.

هذه الحجارة.. ﴿**مسوَّمة عند ربك**﴾.. كما تسوم الماشية أي تُربّى وتطلق بكثرة. فكأنَّما هذه الحجارة مُربّاة! ومطلقة لتنمو وتتكاثر! لوقت الحاجة.. وهو تصوير عجيب يلقي ظله في الحسّ، ولا يفصح عنه التفسير، كما يفصح عنه هذا الظل الذي يُلقيه.. ﴿**وما هي من الظالمين ببعيد**﴾.. فهي قريبة وتحت الطلب، وعند الحاجة تطلب فتصيب[1]! لقد استجاب الله دعاء نبيه لوط: ﴿**فنجَّيناه وأهله أجمعين. إلَّا عجوزاً في الغابرين**﴾ [الشعراء: ١٧٠، ١٧١].. هذه العجوز هي امرأته. وقد كانت عجوز سوء تقرّ القوم على فعلتهم المنكرة، وتعينهم عليها!

---

(١) من معاني مسوّمة: مُعَلّمة ذات علامة خاصة. والتعبير التصويري يجعل المعنىٰ الذي اخترناه لها أقرب إلى التصوير.

﴿ثمَّ دمَّرنا الآخرين. وأمطرنا عليهم مطراً، فساء مطر المنذرين﴾ [الشعراء: ١٧٢ ـ ١٧٣]..

ونلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر، وهو الماء المُحيي المنبت أنَّه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة ـ ماء النطف ـ في غير ما جُعل لهم وهو أن يكون مادة حياة وخصب. والله أعلم بقوله ومراده، وأعلم بِسُنَنه وتدبيره، وإن هو إلاَّ رأي نراه في هذا التدبير.

وهكذا تُعرض خاتمة القوم في مشهد مهين حزين مروع: **﴿فأنجيناه وأهله إلاَّ امرأته كانت من الغابرين ـ وأمطرنا عليهم مطراً، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾** [الأعراف: ٨٣، ٨٤]..

إنَّها النجاة لمن تَهَدَّدَهُم العصاة. كما أنَّها هي الفصل بين القوم على أساس العقيدة والمنهج. فامرأته ـ وهي ألصق الناس به ـ لم تنج من الهلاك لأنَّ صلتها كانت بالغابرين المهلكين من قومه في المنهج والاعتقاد.

ويتحدث القرآن عن مصير امرأة لوط في الآخرة. في حديثه عن نساء كافرات في بيوت أنبياء: **﴿ضرب الله مثلاً للَّذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين، فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل: ادخلا النَّار مع الدَّاخلين﴾** [التحريم: ١٠]..

والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط، أنَّها كانت خيانة في الدعوة، وليست خيانة الفاحشة. امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه، وامرأة لوط كانت تَدلُّ القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه! وبعد.. فقد أتىٰ أَمْرُ الله الذي استخفَّ به القوم المنحرفون، أتىٰ رُسل الله بالعذاب للقوم المجرمين: **﴿لنرسل عليهم حجارة من طين مسوَّمة عند ربك للمسرفين﴾** [الذَّاريات: ٣٣].

وقد خسف بقرىٰ لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل والبراكين وتصاحبها أحياناً ظاهرة الخسف وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيح

في الأرض. ويُقال: إنَّ بحيرة لوط الحالية وجدت بعد هذا الحادث، بعد انقلاب عمورة وسدوم في باطن الأرض، وهبوط مكانها وامتلائه بالماء. ويظن أنَّ قرىٰ لوط ثاوية تحت البحر الميت (بحيرة لوط) في الأردن.

وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أنَّ البحر الميت يغمر مدناً كانت آهلة بالسكان. وقد كشف بعض علماء الآثار بقايا حصن بجوار البحر، وبجواره المذبح الذي تقدم عليه القرابين.

إنَّ الآيات القرآنية المتقدمة تصور هذه النازلة المُرعبة التي أصابت قوم لوط هي ـ كما قلنا ـ أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل[1]. . وعند

---

(١) ولا نقول هذا الكلام لنقول: إنَّه كان بركان من تلك البراكين، ثار في ذلك الوقت، فوقع ما وقع. إنَّنا لا ننفي هذا فقد يكون هو الذي وقع فعلاً. ولكنا لا نجزم به كذلك ولا نُقيد قَدَر الله بظاهرة واحدة مألوفة. .

والعذاب الذي أنزله الله على قوم لوط ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين، مسوَّمة عند ربك للمسرفين﴾. . وهذه الحجارة الطينية المُعَلَّمة أو المُعدة المجهزة عند الله للمسرفين المتجاوزين الحق ـ وقوم لوط كانوا مسرفين في تجاوزهم للفطرة والحق والدين ـ لا يمتنع أن تكون حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض. فهي ﴿عند ربِّك﴾ بهذا الاعتبار مسلطة ـ وفق إرادته ونواميسه ـ على من يريد من المسرفين. مقدرة بزمانها ومكانها وفق علمه وتدبيره القديم. وأن يتولىٰ إرسالها ـ وفق إرادته ونواميسه ـ ملائكته.

وهل ندري نحن حقيقة ملائكته؟ وهل ندري حقيقة علاقتهم بهذا الكون ومَن فيه وما فيه؟ وهل ندري حقيقة القوىٰ الكونية التي نسميها من عندنا أسماء بحسب ظواهرها التي تتكشف لنا بين الحين والحين؟

وما لنا نعترض على خبر الله لنا، ونحن ما تزال كل ذخيرتنا من المعرفة فروض ونظريات وتأويلات لظواهر تلك القوى. أمَّا حقيقتها فهي عنا بعيدة؟! فلتكن حجارة بركانية أو لتكن حجارة أُخرىٰ فهذه كتلك في يد الله، ومن صُنعه، وسرّها غيب عنده يكشفه حين يشاء!

وقوام القول في هذه القضية وأمثالها أنَّه جائز أن يكون في تقدير الله وقوع انفجار بركاني في موعده في هذا الموعد ليحقق قدر الله في قوم لوط كما قَدَر في علمه القديم.

وهذا التوقيت والتوافق شأن من شؤون ألوهيته سبحانه وربوبيته للكون وتصريفه لكل ما يجري فيه متناسقاً مع قَدَره بكل شيء وبكل حي فيه. =

ربك للظالمين كثير!!! ولكننا لا نُعلل ما وقع لهم بأنَّه كان زلزالاً أو بركاناً عابراً ممَّا يقع في كل حين.. فالمنهج الإيماني الذي نحرص عليه في هذا الكتاب يبعد كل البعد عن هذه المحاولة!

إنَّنا نعلم علم اليقين أنَّ الظواهر الكونية تجري وفق ناموس الله الذي أودعه هذا الكون. ولكن كل ظاهرة وكل حدث في هذا الكون لا يقع بأية حتمية إنَّما يقع وفق قَدَر خاص به. بلا تعارض بين ثبات الناموس وجريان المشيئة بقدر خاص لكل حدث.

كذلك نحن نعلم علم اليقين أنَّ الله سبحانه يجري في حالات معينة أقداراً معينة بأحداث معينة لوجهة معينة. وليس من الضروري أن يكون ذلك الذي دَمَّر قرىٰ لوط زلزال أو بركان عادي؛ فقد يريد الله أن ينزل بهم ما يشاء، وقتما يشاء، فيكون ما يشاء، وفق ما يشاء.. وهذا هو المنهج الإيماني في تفسير معجزات الرسل أجمعين.

وبعد، نقف أمام قَدَر الله بخشوع وخوف وذهول.. نقف أمام مشهد مصرع الغابرين بعدما جاءهم النذير فكذَّبوه: ﴿**كذَّبت قوم لوط بالنُّذر**﴾ [القمر: ٣٣]..

والمقصود من عرض لوحة الدمار والهلاك هي العبرة من عاقبة التكذيب، والأخذ الأليم الشديد. ويصف ما نزل بهم من النكال: ﴿**إنَّا أرسلنا عليهم حاصباً إلاَّ آل لوط نجَّيناهم بسَحَر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شَكر..**﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].. والحاصب: الريح تحمل الحجارة،

= وجائز كذلك أن تكون هذه الظاهرة وقعت بقدر خاص تعلقت به مشيئة الله سبحانه لإهلاك قوم لوط على هذه الصورة التي تمَّ بها في ذلك الحين. وفَهم علاقة مشيئة الله بالكون على النحو الذي بيَّناه قريباً في التعليق على حادثة امرأة إبراهيم، العجوز العقيم، لا يبقي مجالاً لمشكلة تقوم في التصور الإنساني لمثل هذه الظواهر والأمور.

يراجع فصل «التوازن» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الأول.

ولفظة الحاصب ذات جرس كأنَّه وَقْع الحجارة، وفيه شدّة وعنف تُناسب جوّ المشهد. وقد أدركت رحمة الله المؤمنين ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾.. لإنجائهم وحمايتهم.. ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ [الذّاريات: ٣٦].. هُم بيت النَّبي لوط، ولم ينج إلَّا آل لوط ـ إلَّا امرأته كانت من المهلَكين ـ نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم.. ﴿كذلك نجزي من شكر﴾.. فَنُنَجِّيه ونُنْعم عليه في وسط المهالك والمخاوف.

وأصبح القوم المفسدون على العذاب: ﴿ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر﴾ [القمر: ٣٨].. وهو الحاصب الذي طَهَّر من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد..

ويستحضر القرآن الكريم المشهد كأنَّه اللحظة واقع. وينادَىٰ المعذَّبون وهم يُعانون العذاب: ﴿فذوقوا عذابي ونُذُر﴾ [القمر: ٣٩]..

وهنا يعدل عن أُسلوب الحكاية إلى أُسلوب الخطاب والمواجهة، فإذا العذاب الفظيع المؤذ الأليم، معَه التأنيب والخزي والتحقير الذي يصاحبه، فهم يُعذَّبون عذاباً عنيفاً قاسياً أذلَّاء مهينين، وقد استحقوا ما هم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين..

إنَّ مشهد الهلاك المروّع الذي ترسمه الآيات القرآنية هو آية عميقة التأثير في القلب البشري، يشترك في تصويره اللفظ والعبارة، والمعنىٰ والمدلول، والصور والظلال.. مشهد إيقاعاته قذائف وصواعق، وصُوَره وظلاله سياطاً لاذعة لا تمهل لحظة واحدة.. ﴿وتركنا فيها آية للَّذين يخافون العذاب الأليم﴾ [الذَّاريات: ٣٧].. فالَّذين يخافون هم الذين يرون الآية ويُدركونها وينتفعون بها. أمَّا الآخرون فمطموسون لا يرون آيات الله. لا في الأرض ولا في أنفسهم ولا في أحداث التاريخ!

إنَّ الله ـ سبحانه ـ محيط بالظالمين والفاسقين ﴿ولا تحسبنَّ الله غافلاً

عمّا يعمل الظالمون﴾. . إنّما يُؤخرهم ليوم عصيب حين يصبّ عذابه صبّاً ﴿والمؤتفكة أهوىٰ. فغشّاها ما غشّىٰ. فبأيِّ آلاء ربِّك تتمارىٰ؟﴾ [النَّجم: ٥٤]. .

والمؤتفكة هي أُمة لوط: من الإفك والبهتان والضلال. . وقد أهواها في الهاوية وخسف بها ﴿فغشّاها ما غشّىٰ﴾. . بهذا التجهيل والتضخيم والتهويل، الذي تتراءىٰ من خلاله صور الدمار والخسف والتنكيل، الذي يشمل كل شيء ويغشاه فلا يبين! لقد أصاب القرية وأهلها المفسدين العذاب الأليم. نزل عليهم فغشي كل شيء. . والله لا يدع الظالم يفلت، ولا يدع المستهتر اللاّهي ينجو. فالظالم المفسد يستحق الانتقام ﴿إنَّ الله عزيز ذو انتقام﴾، وهو بالقياس إلى الله تعالىٰ يعني تعذيبهم جزاء ظُلمهم وجزاء فسادهم، تحقيقاً لعدل الله في الجزاء.

وقرىٰ لوط تقع في طريق مطروق بين الحجاز والشام يمرّ عليها الناس، وفيها عظات لمن يَتَفَرّس ويتأمل، ويجد العبرة في مصارع الغابرين.

وما تزال آثار التدمير باقية تُحدِّث عن آيات الله لمن يعقلها ويتدبرها من القرون: ﴿ولقد تركنا منها آية بيِّنة لقوم يعقلون﴾ [العنكبوت: ٣٥]. .

لقد قصَّ القرآن نبأ قرىٰ لوط. وقوله الفصل في الموضوع. . وكان مصيرهم هو المصير الطبيعي لهذه الشجرة الخبيثة التي فسدت وأنتنت، فلم تعد صالحة للإثمار ولا للحياة. ولم تعد تصلح إلاّ للاجتثاث والتحطيم. . وقد أُمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف وزلازل وخسف. . ترىٰ كان هذا المطر المفرق، والماء الدافق، لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه، والوحل الذي عاشوا فيه وماتوا فيه؟!

على أيّة حال لقد طَويت صفحة أُخرىٰ من صحائف المكذبين المجرمين! . . ﴿إنَّ في ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرَّحيم﴾ [الشعراء: ١٧٥]. .

إنَّ الآيـات لا تنفع إلاَّ القلوب المؤمنـة المُتفتحة المُستعـدة للتلقي والتدبُّر واليقين: ﴿**إنَّ في ذلك لآيات للمُتَوسِّمين. وإنَّها لبسبيل مقيم**[1]. **إنَّ في ذلك لآية للمؤمنين**﴾ [الحجر: ٧٥ ـ ٧٧]..

وهكذا صَدَق النذير، وكان نزول الملائكة إيذاناً بعذاب الله الذي لا يُردّ ولا يُمهِل ولا يَحيد. ﴿**فغشَّاها ما غَشَّىٰ. فبأيِّ آلاء ربِّك تـتمارىٰ؟**﴾ [النَّجم: ٥٤، ٥٥]..

فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء الله وأفضالاً، أَلَمْ يهلك الشر؟ أَلَمْ يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق؟ أَلَم يترك فيها آيات لمن يَتَدبَّر ويَعي؟ أليست هذه كلها آلاء الله. فبأيِّ آلاء ربك تـتمارىٰ! الخطاب لكل أحد ولكـل قلب، ولكل من يتـدبر صنـع الله فيرىٰ النعمـة حتى في البلوىٰ!

وبعد.. إنَّ قصة لوط من القصص القصيرة لأنَّها تُعْرض عند حلقة الرسالة وحدها، فتـتضمن الرسالة والحوار بين لوط وقومه، وتكذيب هؤلاء القوم. ثمَّ إهلاكهم جميعاً: ﴿**وإنَّ لوطاً لمن المرسلين. إذ نجَّيناه وأهله أجمعين. إلاَّ عجوزاً في الغابـرين. ثمَّ دمَّرنـا الآخرين. وإنَّكم لَتَمـرُّون عليهم مُصبحين. وبالليل أفلا تعقلون؟**﴾ [الصَّافات: ١٣٣ ـ ١٣٨]..

وهذه لمحة تشير إلى رسالة لوط ونجاته مع أهله إلاَّ امرأته. وتدمير المكذبين الضالين. وتنتهي بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لـوط في الصباح والمسـاء ولا تستيقظ قلوبهم ولا تستمع لحـديث الديـار الخاوية. ولا تخاف عاقبة كعاقبتها الحزينة!

أمَّـا لوط المؤمن الـذي هـاجـر مـع عَمّـه من مسقط رأسـه في أُور الكلدانيـين، النبي الصـالح، فقـد وَهَبه الله سبحـانـه الحكمـة والعلم..

---

(١) طريق باق لم يندثر.

﴿ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً. ونجّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنَّهم كانوا قوم سوء فاسقين. وأدخلناه في رحمتنا إنَّه من الصَّالحين﴾ [الأنبياء: ٧٤، ٧٥]. .

وتكشف القصة عن شخصية لوط ـ عليه السَّلام ـ في صبره وحكمته في محاولاته إقناع قومه المفسدين الشاذين، حتى إذا أعيته الحِيَل كُلها، وسدَّت دونه الطرق والمنافذ، وأوصدت أمامه السُّبل وأبواب الرجاء، وأخذ منه الكرب كل مأخذ، واشتدَّ به الأمر إلى درجة لا يقوىٰ على احتمالها أشد الرجال صلابة وصبراً وإيماناً. . وعندئذٍ اهتزَّ كيانه، وانتفض وصاح ﴿قال: لو أنَّ لي بكم قوة أو آوي إلىٰ ركن شديد﴾ [هود: ٨٠]. .

لقد تمنّىٰ أن تكون له عشيرة أو قوة ليُجابه أُولئك الذين تجردوا من إنسانيتهم، أو يأوي إلى ركن شديد يستعين به على صلافة قومه الشاذين السادرين في غيِّهم.

وسلام الله على لوط في العالمين. فقد كان يأوي إلى ركن الله الشديد الذي جعل قرية الفساد عاليها سافلها وأصبح القوم(١) حديثاً وعبرة للمفسدين والظالمين. . ونجَّاه ربه مع أهله المؤمنين، وأحاطه بعنايته وحفظه ﴿وأدخلناه في رحمتنا إنَّه من الصَّالحين﴾. .

وكأنَّما الرحمة مأوىٰ وملاذ يُدخل الله فيه من يشاء، فإذا هو آمن ناعم مرحوم.

---

(١) إنَّ جريمة قوم لوط جريمة بشعة، وتَصرُّف خبيث، وعمل مشين، وخروج على سنة الله في خلقه. وقد فرض الإسلام على مرتكبيه أقصىٰ وأقسىٰ العقوبات، وجعل نهايته الدمار والوبال، كما وقع لقوم لوط. وقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» أخرجه الخمسة إلاَّ النسائي. كما روىٰ الإمام أحمد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط» رددها ثلاثاً. .

قصة إسماعيل عليه السلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	١٧٩
ـ الاستسلام لأمر الله	١٨٠
ـ ثقة ورضى وتسليم	١٩٢

إسماعيل عليه السَّلام

ذكر القرآن الكريم قصة إسماعيل مع أبيه إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ. وقد تقدم أن إبراهيم هاجر من مسقط رأسه في بلاد كلدان بالعراق إلى بلاد الشام، واستقرَّ فيما بعد في فلسطين ومعه زوجه سارة وخادمتها هاجر.

كانت سارة عقيماً لا تلد، وكان يحزنها أن ترى بعلها الوفي يتطلع إلى هذه النعمة، وقد أصبحت هي على حال لا يُرجىٰ فيه الولد، فهي عجوز عقيم. وأشارت على زوجها أن يدخل بجاريتها هاجر، وهي الوفية الكريمة، الأصيلة المؤمنة، المطيعة الأمينة، عَلَّها تنجب ولداً تشرق به حياتهما.

وشاءت إرادة الله ـ سبحانه ـ أن يهب لإبراهيم غلاماً، فوضعت هاجرُ إسماعيل الذي أضاءت بقدومه الفرحة في القلوب بسمو الابتسامة الندية في الأرواح، وأزهر قلبُ إبراهيم حُبّاً وشُكراً، وتحركت العواطف الحبيسة، وتمددت المشاعر الأصيلة إلى رعاية هذا الولد الحبيب، وانطلق الوجدان الإنساني في فطرة إبراهيم البشرية للمشاركة في ضم الوليد العزيز إلى حنايا الصدر الرحيب، خاصة أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لم يذق طعم هذه النعمة الإلهية في حياته بعد أن كبرت سنة ووَهَن عظمه وضعفت قدرته..

ولكنَّ الله تعالىٰ أراد أن يمتحن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وقد ﴿**واتَّخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾ [النساء: ١٢٥]..

لقد أراد الله أن يمتحن هذا العبد الأوَّاه المنيب بذريته التي طال انتظار السنين الهرمة بقدومها، والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان، وهي قريبة من نفس الإنسان، والنفس شديدة الحساسية بها. فلَمْسُها أقوى وأعمق من أي شيء في حياة الإنسان، فهي استمرار وجوده وحياته.

لقد ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه فأمره أن يذهب بابنه إسماعيل وأُمه بعيداً هناك، بعيداً جداً في الصحراء، حيث لا أُنس فيها ولا حياة.. ألا إنَّها لشاقَّة على النفس الإنسانية، ألَا وإنَّها لكبيرة. ولكنها هي ذاك الخلّة، ذلك المقام الرفيع العظيم.

لقد صنع الله عَبْدَه إبراهيم على عينه، واصطفاه لنفسه الجليلة، وكان هذا الابتلاء رحمة لعبده المصطفىٰ المختار، لقد أودع فطرته السليمة هذه الطاقة العالية من التجرد، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ومتاعها.. لذة الشعور بالاتصال، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على مقتضيات الأرض، والخلاص من ثقلة اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء. أفق اليقين بأمر الله والاستسلام له بحب ورضىٰ وسعادة.

إنَّها لمسة لمشاعر إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ، وصفحة مضيئة من واقع هذا الخليل الجليل.

لم يكن في قلب إبراهيم شيء إلَّا الله فهو الذي وَهَبَ الولد وهو الذي أمر أن يخرج بابنه حيث يشاء.

الاستسلام لأمر الله:

خرج إبراهيم من بيته وبلدته متوجهاً حيث الأَمْـرُ الإلهي.. خرج يصحب ابنه وأُمَّه هاجر.. ونسير مع الهدي الراشد في تقصّي أخبار هذه الحكمة الإلهية لحركة إبراهيم:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء إبراهيم ﷺ بأم إسماعيل وبابْنها إسماعيل وهي تُرضعه حتى وضعها عند البيت[١] عند دوحة[٢] فوقَ زَمْزَم في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووَضع عندهما جِراباً فيه تمر، وسِقَاء فيه ماء، ثمَّ قَفّىٰ[٣] إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يَا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعلَ لا يلتفت إليها، قالت له: آلله أَمَرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضَيِّعُنا، ثمَّ رجعت، فانطلق إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثَّنية[٤] حيث لا يَرَوْنه، استقبلَ بوجهه البيتَ، ثمَّ دعا بهؤلاء الدَّعوات، فرفع يديه فقال: ﴿ربَّنا إنِّي أسكنتُ من ذريَّتي بواد غير ذي زرع﴾ حتى بلغ: ﴿يشكرون﴾[٥].

وجعلت أُم إسماعيل تُرضِع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِذَ ما في السِّقاء، عَطِشَتْ، وعطش ابْنُها، وجعلت تنظر إليه يتلوّىٰ ـ أو قال: يتلبَّطُ[٦] ـ فانطلقت كَراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقربَ جَبَلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثمَّ استقبلت الوادي تنظُر هل ترىٰ أحداً؟ فلم تَرَ أحداً. فهبطت من الصَّفا حتى إذا بلغت الوادي، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعها، ثمَّ سَعَت سعي الإنسان المجهود[٧] حتى جاوزتِ الوادي، ثمَّ أَتَتِ المَرْوَة، فقامت عليها، فنظرت هل ترىٰ أحداً؟ فلم تَر أحداً، ففعلت ذلك سَبع مرات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النَّبيّ ﷺ: «فذلكَ سَعْيُ

---

(١) عند البيت، أي: الكعبة.
(٢) الدوحة: الشجرة الكبيرة.
(٣) قفّىٰ: أي: وَلّىٰ.
(٤) وذلك عند الحجون.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٦) أي: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض.
(٧) المجهود، أي: الذي أصابه الجهد.

الناس بينهما». فلمَّا أشرفت على المروة سمعتْ صوتاً، فقالت: صَهْ - تريد نَفْسها - ثمَّ تسمَّعت، فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث[1]، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زَمْزَم، فَبحث بِعَقِبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء. فجعلت تُحَوِّضه[2] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تَغْرُف الماءَ في سقائها وهو يفورُ بعدما تغرف، وفي رواية: بقدر ما تغرف. قال ابن عباس - رضي الله عنهما: قال النَّبيّ ﷺ: «رَحِمَ الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عَيْناً معيناً»[3]. وفي رواية: «إنَّ إبراهيم خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، معهم شَنَّة[4] فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشربُ من الشنة، فيدرُّ لبَنُها على صبيِّها حتى قَدِمَ مكة، فوضعها تحت دوحة، ثمَّ رَجعَ إبراهيمُ إلى أهله، فاتَّبعته أم إسماعيل حتى لمَّا بلغوا كداء، نادته من ورائه: يا إبراهيمُ إلى من تتركُنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيتُ بالله، فرجعتْ وجعلت تشربُ من الشَّنَّة، ويَدرُّ لبنُها على صَبيِّها حتى لما فَني الماء قالت: لو ذهبتُ، فنظرتُ لعلِّي أحِسُّ أحداً، قال: فذهبتْ فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت هل تحسُّ أحداً، فلم تُحسَّ أحداً، فلمَّا بلغت الوادي، سَعَتْ، وأتتِ المروة، وفعلت ذلك أشواطاً، ثمَّ قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ ما فعل الصبيُّ، فذهبت ونظرت، فإذا هو على حاله كأنَّه ينشغُ[5] للموت، فلم تُقرَّها نفسُها. فقالت: لو ذهبتُ فنظرتُ لعلِّي

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية»: الغواث بالفتح، كالغياث بالكسر، من الإغاثة، وقد غاثه يُغيثه. وقد روي بالضم والكسر، وهما أكثر ما يجيء في الأصوات.

(٢) تحوضه: بالحاء والضاد وتشديد الواو، أي تجعله مثل الحوض.

(٣) معيناً: بفتح الميم، أي: ظاهراً جارياً على وجه الأرض. قال المحدث الجليل الشيخ شعيب الأرناؤوط: وهذا القدر صرح ابن عباس برفعه عن النَّبيّ ﷺ، وفيه إشعار بأنَّ جميع الحديث مرفوع.

(٤) بالشين والنون المشددة، أي: السِّقاء.

(٥) ينشغ: أي: يشهق.

أُحسُّ أحداً، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت، فلم تُحس أحداً حتى أتمَّت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبتُ، فنظرتُ ما فَعَل، فإذا هي بصوت، فقالت: أَغِثْ إن كان عندك خير، فإذا جبريل ﷺ فقال بعقبه هكذا، وغَمزَ بعقبه على الأرض، فانبثق(١) الماء فَدَهِشَتْ أُم إسماعيل فجعلت تحفن(٢)».

قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملَك: لا تخافوا الضيعة(٣) فإنَّ هـٰهنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يُضَيِّعُ أهله، وكان البيتُ مرْتَفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول، فتأخُذُ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رُفْقَةٌ من جُرْهم، أو أهل بيتٍ من جُرهم مقبلين من طريق كَدَاء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً(٤) فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيّاً(٥)أو جريَّيْن، فإذا هم بالماء، فرجعوا، فأخبروهم، فأقبلوا: وأُم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النَّبيّ ﷺ: «فألفى(٦) ذلك أُم إسماعيل، وهي تحبُّ الأُنس، فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات، وشبَّ الغلام(٧) وتعلَّم

---

(١) أي: انْفَجَر.
(٢) في رواية تحفر، ومرت الرواية: «وتحوضه».
(٣) لا تخافوا الضَّيعة: أي الهلاك.
(٤) بالعين والفاء، أي يحوم حول الما ويتردد ولا يمضي عنه.
(٥) الجريُّ: الرسول.
(٦) ألفىٰ: معناه: وَجد.
(٧) أي: كبر إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ.

العربية منهم[١] وأنفسَهُم[٢] وأعجبهم حين شبَّ، فلمَّا أدرك[٣] زوَّجوه امرأةً منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يُطالعَ تَرِكَته[٤] فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا ـ وفي رواية: يصيد لنا ـ ثمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: **نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه**، قال: فإذا جاء زوجك، اقرئي عليه السَّلام، وقولي له يُغَيِّر عَتَبَة بابه، فلمَّا جاء إسماعيل كأنَّه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرتُه، فسألني: كيف عَيْشُنا، فأخبرته أنَّا في جَهد وشدّة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمَرني أن أقرأ عليك السَّلام ويقول: غَيِّر عتبةَ بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أُفارِقَك، الحقي بأهلك. فطلَّقها، وتزوَّج منهم أُخرىٰ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثمَّ أتاهم بَعْدُ، فلم يجده، فَدَخَلَ على امرأته، فسأل عنه. قالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وَسَعَة وأَثْنَت على الله تعالىٰ، فقال: ما طعامُكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللَّهمَّ بارك لهم في اللحم والماء، قال النَّبيّ ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذٍ حبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو[٥] عليهما أحدٌ بغير مكة إلاَّ لم يوافقاه.

---

(١) قال العلاَّمة أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ: وهذا صريح في الدلالة التاريخية على أنَّ العربية أقدم من إبراهيم وإسماعيل، ولعلَّها أقدم من السريانية، والتي هي يقيناً أقدم من العبرية التي هي لغة أبناء إسرائيل الذي هو يعقوب حفيد إبراهيم، بل لعلَّ العربية الأُولىٰ هي أُم هذه اللغات التى تسمىٰ السامية كلها، خلافاً لمن جَهِل ذلك. فهل كل لفظة عربية توافق حرفاً من تلك اللغات معربة عنها.

(٢) أنفسَهم: بفتح الفاء: من النفاسة، أي: كثرت رغبتهم فيه.

(٣) والإدراك: البلوغ.

(٤) أي: يتفقد مَن تركهم.

(٥) لا يخلو، أي: لا يخلط بهما غيرهما.

وفي رواية فجاء فقال: أينَ إسماعيل؟ فقالت امرأتُه: ذَهَبَ يصيد، فقالت امرأته: ألا تنزلُ، فنطعَمَ ونَشربَ؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء. قال: اللَّهمَّ بارك فهم في طعامهم وشرابهم ـ؛ فقال أبو القاسم ﷺ: «بركةُ دعوة إبراهيم ﷺ» قال: فإذا جاء زوجك، فأقرئي عليه السَّلام وَمُريه يُثبِّت عتبةَ بابه، فلمَّا جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حَسَنُ الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرتُه، فسألني كيف عَيْشُنا، فأخبرتُه أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم يقرأ عليك السلام، ويأمُرُكَ أن تُثبِّت عتبة بابك. قال: ذاكَ أبي، وأنتِ العتبةُ أمرني أن أُمسِكَك، ثمَّ لبثَ عنهم ما شاء الله، ثمَّ جاء بعد ذلكَ وإسماعيل يَبْري[1] نَبْلاً له تحت دَوْحَةٍ قريباً من زمزم، فلمَّا رآه، قام إليه، فصَنَعَ كما يصنعُ الوالدُ بالولد، والولد بالوالد[2] قال: يا إسماعيل إنَّ الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أَمَرَكَ ربّك. قال: وتُعينني؟، قال: وأُعِينُك، قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني بيتاً هٰهنا، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيلُ يُناوله الحجارة وهما يقولان: ربَّنا تقبَّل منَّا إنك أنت السميع العليم»[3].

تعرض القصة عروضاً شيقة، ومشاهد رائعة من الماضي التاريخي، وتبين مجريات القصة أنَّها تسير وفق طريقة معينة، في الكيفية التي تُبنىٰ فيها الحوادث، وتُركب المواقف، فهي تبرز الصورة التي تريد، واختيار المكان المناسب الذي نسجت خيوط القصة فيه، ومن أجله، وكيف يتطور الحدث، والمجرىٰ الذي ينمو فيه.

---

(١) يبري نبلاً: أي سهماً قبل أن يُركب فيه نصله وريشه.

(٢) أي: من المعانقة والمصافحة وغير ذلك.

(٣) رواه البخاري بهذه الروايات كلها: ٦/٢٨٣، ٢٩٠، انظر: رياض الصالحين ١٨٦٧.

ونجد القصة تسير في سياقها في حركة مشوِّقة وتأنٍّ رائع، ويقف السرد فيها عند كل جزء يصفه، ويفصِّل الحديث عنه، ويصور ظروف الحَدَث وملابساته، وذلك لأنَّ تلك الأحداث مقصودة لـذاتها في سيـاق العرض، والوقوف عندها له قيمته في التأثير على المتلقي، لما فيها من جوانب تعليمية وتربوية وتوجيهية.

وتقف القصة مواقف لتصور ما وراء الحَدَث من دوافع ومؤثرات تجعله يسير وفق نظام خاص، وطريقة مرسومة بواقعية رائعة التأثير من أجل تحقيق أهداف القصة المنشودة في عرض الفكرة بهذا الأسلوب القصصي، يُشوِّق المتلقي، ويُؤثر عليه.

وقد حظيت هذه القصة في التعريف بشخصية النَّبيِّ إبراهيم ﷺ، وابنه النبي إسماعيل عليه السَّلام، وما يصدر عنهما من مواقف إنسانية ونبـوية، وهذا يعطي أهمية للموقف نفسه، والرأي الذي تـتبناه الشخصية أكثر تَقَبُّلاً وإقبالاً على ما يصدر منها من آراء وما تلتزمه من مواقف. . كما يجعله أيضاً أكثر إيماناً بها، واستعداداً للإقرار بما نجم عنها من سلوك أو قول: فثمَّـة هدف وراء القصة عميق المعاني والأثر، هو بيان سلوك النبي المختار الذي اصطفاه الله وربَّاه، فالقصة تـتعرض للنبي إبراهيم، والنبي إسماعيل، في بعض مواقفهم الإنسانية، التي يظهرون فيها أناساً من البشر، في عواطفهم وانفعالاتهم، وطبائعهم، وترسم بصدق وواقعية، عاطفة الأبوّة والبنوة، فهي تصور إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ حين التقيا لأول مرة ذلك اللقاء بإيجاز موحٍ معبِّر:

«. . ثمَّ جاء [إبراهيم] بعد ذلك، وإسماعيل يَبْري نَبْلاً له تحت دَوْحةٍ قريباً من زمزم، فلمَّا رآه، قام إليه، فَصَنع كما يصنعُ الوالدُ بالولد، والولد بالوالد. . ».

ومن عروض القصة الرائعة تعرض موقفاً نسائياً متميزاً، نقرأ فيه فصولاً

رائعة عن المرأة، فهي ليست ضعفاً دائماً، وهنا تثبت أنَّ المرأة قادرة على أن تـتحمل مسؤوليتها، وأن تثبت وجودها في مواقف حالكة معتمة في أصعب الظروف، وأن تـتمسك بالإيمان بالله، والثقة في وعده وإرادته، مهما كانت الأحوال، وما تحمله من الشقاء والأهوال، حتى ولو كان هـذا الثمن. هو حياتها. .

ها هي ذي أم إسماعيل يتركها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ مع طفل صغير لا حول له ولا طول، في واد غير ذي زرع ولا حياة، وليس في المكان أحد، ولا حتى ماء. . وفي إيمان عميق تستسلم الأُمُّ للأمر في غير ما جزع ولا خوف، ثقة في الله واطمئنـاناً إليـه. . ها هي ذي تـتبـع إبراهيم حين وَلّىٰ منطلقاً «فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتـتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجَعَل لا يلتفت إليها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيِّعنا». .

وفي مَشهد مُوح آخر، ها هي ذي حين عَطِشَ رَضيعها ولا ماء، ها هي ذي تسعىٰ في حيوية ونشاط يعجز عن بعضه الرجال، تبحث عن الماء في أرجـاء الوادي، وفي ظـروف جبلية صعبـة دون أن تمـلّ تكـرار هـذا السعي. .

وفي مشهد جديد حين نزل الجرهميون عندها بعد موافقتها، كانت تقبل ذلك من مركز قوة، فهي تسمح لهم بالنزول قرب زمزم، وتملي عليهم في الوقت نفسه شروطها، بألاّ يكون لهم حق التصرف في الماء حتى لا يستبـدوا. . ها هي ذي قـائمة عنـد الماء حين أقبلت جمـاعة من جـرهـم «فقالوا: أتأذنين لنا أن ننـزل عندك؟ قـالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم. . .». .

وفي القصـة نجـد شخصيـات جمـاعيـة « النـاس »: «جمـاعـة من جرهم». . وهذه الجماعة ذات وجود حركي في القصة، دفع بها إلى حركة

أخرىٰ، زادت في نموها وسيرها إلى الأمام في دفع التيار الروائي، فقد أوجد الموقف الجديد. حيث بدأت الحياة تباشر نشاطها في زخم وقوة بعد قفر طويل. وقد فجَّر ذلك الإيمان بالله والثقة بربوبيته سبحانه.

وفي مشاهد جديدة في خط سير القصة تصور الأحداث واقعية إنسانية في كثير من النساء التي تنوء في حمل أثقال الحياة، ويبرق في عينها لمعاناً زاهياً لمتاعها. .

وحين سأل إبراهيم زوجة ابنه إسماعيل عن عيشهم وهيئتهم «فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه. . ».

كما تعرض القصة لوناً حبيباً مشرقاً لطبيعة المرأة الملحوظ فيها: شكر النعمة، والصبر على المحنة فحين عاد إبراهيم ثانية إلى بيت إسماعيل بعد أن تزوج مرة أُخرىٰ يسأل عن ابنه. قال إبراهيم: «كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسَعَة وأثنت على الله تعالىٰ. . » وهناك شخصيات ظهرت في القصة كان لها دور تكميلي للحدث، فالطائر العاكف هو الذي دلَّ الجرهميين على الماء[1].

يعد الحوار في القصة مظهراً بارزاً ومهماً في بناء الشخصية، حيث نشهد هذه الشخصية، وهي تتحدث في حوار مع الآخرين معبرة عن نفسها، وعن أفكارها.

والحوار في القصة النبوية يُضفي نوعاً من الحيوية والإثارة، كما أنَّه يبعد الرتابة المملة أثناء عملية سرد القصة. وقد استطاعت القصة أن تشد المستمع إليها، وتحمله على المتابعة المستمرة بكل أحاسيسه، حيث يجد المستمع أو القارىء في الحوار تشويقاً ومتعة لا حدَّ لهما، ويثير في النفس الإنسانية مختلف العواطف والانفعالات.

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٨٦، ١٩٠، ٢٢٨، ٢٧٢، ٢٥٣.

والحوار في القصة يلبي الحاجة النفسية التي تبعثها الأحداث، في حب المعرفة النابعة من حبّ لاستطلاع معنى الحوار وأبعاده، وما يترتب على الحوار من مواقف، وما يستجد من أمور.

ومن هنا نلاحظ أنَّ الحوار ينتشر في نصوص القصة، وبصورة إيجابية، ذات أثر واضح في تدعيم بنية القصة، وخدمة الجانب الفني.

الملاحظ في الحوار أنَّه يأتي في سياق القصة في صورة طبيعية، أي أنَّه يبرز إلى الوجود في ساحة القصة من خلال الموقف وبدافع منه فهو لا يقحم على السياق، ولا يفرض عليه فرضاً، كما نجد ذلك واضحاً:

«. . وماتت أُم إسماعيل، فجاء إبراهيم، بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل».

هذا هو الموقف «عدم وجود الابن» وهنا لا بد من السؤال عنه، وأوْلى من يُسأل عنه زوجته فهي أعلم الناس به، وهكذا نشأ الحوار بين إبراهيم - عليه السَّلام - وزوجة إسماعيل:

- فسأل امرأته عنه.

فقالت: خرج يبتغي لنا.

ثمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه.

قال: فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السَّلام، وقولي له: «يغير عتبة بابه».

وبعد هذا الحوار بقليل حين جاء إسماعيل، نشأ بينه وبين زوجته حوار، وهو حوار دفع إليه الموقف نفسه:

«فلمَّا جاء إسماعيل كأنَّه آنس شيئاً» ومن الطبيعي أن يسأل ويستفسر:

«فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم، جاءنا شيخ، كذا وكذا: فسألنا عنك فأخبرته أنَّا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشيء؟

قالت: أمرني أن أقرأ عليك السَّلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك.

قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُفارقك. إلحقي بأهلك..»[1].

والحوار في هذه القصة قصير، لا يستمر طويلاً بحيث يستغرقْ وقتاً مديداً، يمضيه المتحاوران في حديثهما، فلا يلبث بعد عدة فقرات أن يتوقف عند نقطة معينة، وهو أيضاً سريع بمعنىً أنَّ المتحاورين لا يطنبان أثناء الحوار، بل يكتفي كل منهما بجملة أو جملتين، ولكنه مع قصره وسرعته دال ومعبِّر عن الموقف، وعن الغرض الذي من أجله سيق أصلاً، فهو يحقق الغاية التي أنشيء من أجلها، بحيث يأتي ردّ المحاور على محاوره في الحدود، التي يقتضيها السؤال، أو جملة الحوار الناشئة من الطرف الآخر، إنَّها تأتي مؤدية للمراد من غير ما اضطراب أو قصور يخلّ بصورة الحوار، ومن غير ما حشو يفسد الحوار، ويذهب بصورته الحيوية الممتعة، كما هي الحال حين يطنب المحاور، ويسترسل في كلام لا آخر له، هو من الفضول والحشو الذي لا طائل فيه.. والحوار في القصة النبوية لا يعرض علينا في مظهر مسرحي، بحيث يتم التحاور بين الأشخاص بالصورة المباشرة، التي لا نشعر معها بوجود الراوي، ولكنه يعرض بصورة يكون فيها الحوار مضمناً في السرد، فهو ذو علاقة وثيقة بالسرد، بحيث نحسّ بحضور الراوي يحكي لنا في أثناء سرده للقصة مقولات المتحاورين، وينقلها لنا مسبوقة بلفظ «قال» أو «قالت» وهذه هي الطريقة التي يصور بها الحوار في قصص القرآن الكريم أيضاً[2].

---

(١) البخاري ٤/١٧٣ ـ ١٧٥.

(٢) انظر «القصص القرآني منطوقه ومفهومه»، عبد الكريم الخطيب ص ١٢٣، وانظر أيضاً: الفن القصصي في القرآن الكريم، لخلف الله ص ٣٠٣.

وممَّا يلاحظ في حوار هذه القصة أنَّه بين اثنين، وله الدور البارز في بناء القصة، والذي يتضح من خلال الوظائف التي يؤديها في البناء الروائي للقصة:

١ ـ المساعدة في رسم الشخصية، فهو يجعل الشخصية أكثر حضوراً، وتجسيماً من خلال حضورها في الحوار، ويجعلها كاملة الوضوح أمام القارىء أو السامع، الذي يحسّ بها من خلال حديثها وكلامها، والدور الحقيقي هنا للحوار، وهو ما يحمله من ترجمة لمشاعر الشخصية وعواطفها وأحاسيسها المختلفة، التي تبوح بها من خلال الكلمات الواردة على لسانها.

٢ ـ تطوير الحدث، والسعي به نحو حلقات جديدة، ودفعه لبعث مواقف جديدة في خط سير القصة إلى أن تصل إلى النهاية المقصودة.

٣ ـ المساعدة على تصوير مواقف معينة في القصة، كما يصور ما تنطوي عليه النفسية الإنسانية.

٤ ـ التخفيف من رتابة السرد، وهذه وظيفة حيوية، وهذا يبعد عن القارىء الشعور بالملل والسآمة، التي ربما نشأت من خلال السرد المتواصل، ويجعله يتابع القصة بارتياح وشوق.

٥ ـ كشف ما ترمي إليه القصة من أغراض، والتركيز عليها.

٦ ـ كما أنَّ الحوار يضفي على القصة نوعاً من الواقعية الحية في نظر السامع أو القارىء، إذ يحسّ أنَّه أمام أحياء يمارسون وجودهم فعلاً من خلال ما يقرؤه، أو يسمعه من أحاديثهم، ومحاوراتهم التي تردد على مسامعه في ثنايا القصة، وخلال مواقفها المتعددة[1].

---

(١) انظر حسين القباني في «فن كتابة القصة» ص ٩٥، والشاروني في «القصة القصيرة نظرياً وتطبيقياً» ص ٦٥. وانظر القصص في الحديث النبوي: ٣١٠، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٤.

وفي القصة يبرز عنصر المناجاة في صورة دعاء. نرىٰ ذلك في دعاء إبراهيم وإسماعيل، وهما يـرفعان القـواعد من البيت العتيق، فـإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ قائم يبني، وإسماعيل ـ عليه السَّـلام ـ يناولـه الحجر وهمـا يقولان: ﴿ربَّنا تقبَّل منا إنَّك أنت السميع العليم﴾.

فالمناجاة هنا دعاء إلى الله ـ سبحانه ـ يأتي في صورة مفعمة بالمعاني الدينية، والعواطف الروحية المتدفقة، ممَّا يضفي على سياق القصة نوعاً من الحيوية المشرقة لا تنتهي آثارها في النفس الإنسانية(١).

ثقة ورضىٰ وتسليم:

وقد تقدم في قصة إبراهيم ابتلاء الله لإبراهيم وولـده حين رأىٰ في المنام أنَّه يذبحه(٢) ﴿فبشَّرناه بغـلام حليم. فلمَّا بلغ معـه السعي. قال: يَـا بنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك، فانظر ماذا ترىٰ. قال: يَـا أبَتِ افعل ما تؤمر: ستجـدني إن شاء الله من الصَّـابرين. فلمَّـا أسلما وتلَّه للجبين. وناديناه أن يَـا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا. إنَّا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هـٰذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم﴾..

لقد عرف الله من إبراهيم وابنه صدقهما، وحسن إسلامها، ثقة ورضىٰ وتسليم.. فقد تحدثت قصة الذبح عن حالة نفسية من الإيمان واليقين.. شعوراً صادقاً وواقعاً مسلماً بالرضا الذي غمر النفس والروح والجسد.

وأثار اليهود من الجدل حول شخصية الذبيح ما أثاروا. وإن هي إلاَّ سنة اليهود في ذلك. فادّعوا أنَّه نبي الله إسحاق وأنكروا أن يكون نبي الله إسماعيل. يقول الإمام ابن قيِّم الجوزية في بيانه الحكيم في الكشف عن

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ٢٢٨.

(٢) انظر تفصيل ذلك في قصة إبراهيم «فصل حقيقة الإيمان وجمال الطاعة وعظمة التسليم».

هذه الحقيقة الجلية: «وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومَن بعدهم.

وأمَّا القول بأنَّه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: هذا القول إنَّما هو متلقىٰ عن أهل الكتاب، مع أنَّه باطل بنص كتابهم، فإنَّ فيه: إنَّ الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ وحيده، ولا يشكُّ أهل الكتاب مع المسلمين أنَّ إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرَّ أصحاب هذا القول أنَّ في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنَّها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكنَّ اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأرجو أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم أو يحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبىٰ الله إلاَّ أن يجعل فضله لأهله. وكيف يسوغ أن يُقال: إنَّ الذبيح إسحاق، والله تعالىٰ قد بشَّر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالىٰ عن الملائكة: إنَّهم قالوا لإبراهيم لمَّا أتوه بالبشرىٰ: ﴿**لا تخفْ إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوبَ**﴾[1] [هود: ٧٠، ٧١] فمحال أن يُبشرها بأنَّه يكون لها ولد، ثمَّ يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب ـ عليه السَّلام ـ داخل في البشارة، فَتَنَاوُلُ البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقُه.

---

(١) اختلف القراء في «يعقوب»، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «يعقوب» بالرفع، وقرأ ابن عامر وحمزة، وحفص عن عاصم «يعقوب» بالنصب، قال الزجاج: وفي رفع يعقوب وجهان، أحدهما: على الابتداء المؤخر؛ معناه التقديم، والمعنىٰ: ويعقوب يحدث لها من وراء إسحاق، والثاني: وثبت لها من وراء إسحاق يعقوب، ومَن نَصَبه، حمله على المعنىٰ، والمعنىٰ: وهبنا لها إسحاق، ووهبنا لها يعقوب». [زاد المسير: ١٣٢/٤]. .

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان « يعقوب » مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي: ويعقوب من وراء إسحاق. قيل: لا يمنعُ الرفعُ أن يكون يعقـوبُ مبشراً بـه، لأنَّ البشارةَ قولٌ مخصوص، وهي أولُ خبر سارٍّ صادق. وقوله تعالىٰ: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولمَّا كانت البشارة قـولاً، كان مـوضع هـذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأنَّ المعنىٰ: وقلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشَّرتُ فلاناً بقدوم أخيه وثقله في أثره، لم يعقل منه إلَّا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا ممَّا لا يستريبُ ذو فهم فيه البتة، ثمَّ يُضعف الجَرَّ أمرٌ آخر، وهو ضعف قولك: مررتُ بزيد وَمِنْ بعده عمرو، ولأنَّ العاطف يقوم مقام حرف الجرِّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور. ويدل عليه أيضاً أنَّ الله سبحانه ـ لمَّا ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة « الصافات » قال: ﴿فلمَّا أسلمـا وتَلَّه للجبين، ونـاديناه أن يَـا إبـراهيمُ. قد صَـدَّقتَ الرؤيـا إنَّا كـذلك نجـزي المحسنين. إنَّ هـٰذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنَّـه من عبادنـا المؤمنين﴾ [الصَّافات: ١٠٣ ـ ١١١]. ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وبشَّرناه بإسحاق نبياً من الصَّالحين﴾ [الصافَّات: ١١٢]. . فهذه بشارة من الله تعالىٰ له شكراً على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جداً في أنَّ المبشَّر به غير الأول، بل هو كالنص فيه. فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لمَّا صبَرَ الأب على ما أُمِرَ به. وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوَّة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب « نبياً » على الحال المقدَّر، أي مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراجُ البشارة أن تقع على الأصل، ثمَّ تخص بالحال التابعة الجارية مجرىٰ

الفَضْلَةِ، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارةُ على نبوته، فوقوعها على وجوده أولىٰ وأحرىٰ.

وأيضاً فلا ريب أنَّ الذبيح كان بمكة، ولذلك جُعلت القرابين يومَ النَّحر بها، كما جُعِلَ السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأُمِّه، وإقامةً لذكر الله؛ ومعلوم أنَّ إسماعيل وأُمه هما اللَّذان كانا بمكة دون إسحاق وأُمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانهُ بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النَّحر بمكة من تمام حجِّ البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومَن تَلَقّىٰ عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام، لا بمكة.

وأيضاً فإنَّ الله ـ سبحانه ـ سمّىٰ الذبيح حليماً. لأنَّه لا أحلم ممَّن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سمَّاه عليماً، فقال تعالىٰ: **﴿هل أتاك حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال سلامٌ قومٌ منكرون﴾** [الذَّاريات: ٢٤، ٢٥] إلى أن قال: **﴿قالوا لا تخف وبشَّروه بغلام عليم﴾** [الذَّاريات: ٢٨] وهذا إسحاق بلا ريب، لأنَّه من امرأته، وهي المبشَّرة به، وأمَّا إسماعيل، فمن السُّرِّيَّة. وأيضاً فإنَّهما بُشِّرا به على الكِبَر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنَّه وُلِدَ قبل ذلك.

وأيضاً فإنَّ الله سبحانه أجرىٰ العادة البشرية أنَّ بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممَّن بعده، وإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لمَّا سَأَلَ ربَّه الولد، ووهبه له، تعلقت شُعْبَةٌ من قلبه بمحبته، والله تعالىٰ قد اتخذه خليلاً، والخُلة منصبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها، فلمَّا أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد، جاءت غَيْرةُ الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلمَّا أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم

يبق في الذَّبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنَّما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَلَ المقصود، فنُسِخَ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدَّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب.

ومعلوم أنَّ هذا الامتحان والاختبار إنَّما حَصَل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإنَّ سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنَّها كانت جارية، فلمَّا ولدت إسماعيل وأحبَّه أبوه، اشتدَّت غيرة «سارة»، فأمر الله سبحانه أن يُبْعد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكَّة لتبرد عن «سارة» حرارةُ الغيرة، وهذا من رحمته تعالىٰ ورأفته، فكيف يأمره ـ سبحانه ـ بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمتُه البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السُّرِّية، فحينئذٍ يرقُّ قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركةُ هذه الجارية وولدها، وأنَّ الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، ولِيُرِيَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأنَّ عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالىٰ فيمن يُريد رفعه من خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضعافه وذلِّه وانكساره. قال تعالىٰ: **﴿ونريدُ أن نَمُنَّ على الَّذين استضعِفُوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾** [القصص: ٥]. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[١].

---

(١) زاد المعاد: ١/٧١ ـ ٧٥. فصل في نَسَبه ﷺ.

وهكذا يذكر القرآن الكريم الفرع الآخر من ذرية إبراهيم. يذكر إسماعيل أبا العرب:

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل، إنَّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضياً﴾ [سورة مريم: ٥٤، ٥٥]..

وينوِّه من صفات إسماعيل بأنَّه كان صادق الوعد. وصدق الوعد صفة كل نبي وكل صالح، فلا بد أنَّ هذه الصفة كانت بارزة في إسماعيل بدرجة تستدعي إبرازها والتنويه بها بشكل خاص.

وهو رسول فلا بد أن كانت له دعوة في العرب الأوائل وهو جدّهم الكبير. وقد كان في العرب موحدون أفراد قبيل الرسالة المحمَّدية، فالأرجح أنَّهم بقية الموحدين من أتباع إسماعيل.

ويذكر السياق من أركان العقيدة التين جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بهما أهله.. ثمَّ يثبت له أنَّه كان عند ربه مرضياً.. والرضىٰ سمة من سمات القرآن وهي شبيهة بسمة الرحمة، وبينهما قرابة!

وهذه الصفة.. الرضا.. من الله هي أعلىٰ وأندىٰ من كل وصف..

= يقول ابن كثير حول ادّعاء اليهود أنَّ الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل:

«وإنَّما حملهم على هذا حسد العرب، فإنَّ إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز، الذين منهم رسول الله ﷺ. وإسحاق والد يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذي ينتسبون إليه؛ فأرادوا أن يَجرُّوا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بُهت، ولم يُقرُّوا بأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ولا نحاول أن نرد على هؤلاء المبطلين بما جاء في القرآن الكريم، لأنَّهم لا يؤمنون به، وإنَّما نرد عليهم بما جاء في سفر التكوين من أسفار التوراة وهو الذي تُرجم من العبرية إلى اليونانية سنة ٢٨٠ ق.م (أي قبل الهجرة النبوية بتسعة قرون).

وفي هذا السفر ذكر لإسماعيل وإبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ، وتفصيل لقصة الذبيح، إلى غيرة ذلك من كل ما يتعلق بسيرة هذين النبيين الكريمين.

وهو إنعام مَنَّ الله عليه يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق.

كما أشار القرآن الكريم إلى إسماعيل في سورة الأنبياء: **﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين. وأدخلناهم في رحمتنا إنَّهم من الصالحين﴾**.

ويشير السياق إلى عنصر الصبر في قصص هؤلاء الرسل. وإسماعيل صَبَرَ على ابتلاء ربه له بالذبح فاستسلم لله وقال: **﴿يَا أبتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾**..

ويشهد الله لنبيه إسماعيل أنَّه من الأخيار: **﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفلِ وكلّ من الأخيار﴾** [ص: ٤٨]..

وإنَّ لنا من سيرة إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ لعبرة، فهي تعلمنا أثر الإيمان والصبر الجميل والبرّ الكريم والاستسلام الطائع لرحمة الله.. برٌّ عظيم، وتوفيق من الله أعظم، وإيمان وثيق، ونفس راضية بما أراد الله وقدَّر، فها هو ذا إسماعل يقول لأبيه بعد أن أخبره بأنَّه رأى في المنام أنَّه يذبحه: **﴿يَا أَبَتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين﴾**..

ثمَّ كانت رحمة الله ورضوانه مستقراً ومقاماً.. رحمة الله الحانية التي تدرك المؤمن فتشرق نفسه بالإيمان..

قصة يوسف عليه السلام

المحتـوى	ص
ـ تقديم	٢٠٣
ـ أَمَل وأُنس وتطمين	٢٠٤
ـ التقديم الطبيعي للقصة	٢٠٧
الحلقة الأولى	٢٠٨
ـ يوسف الصبي	٢٠٨
ـ حَسَد وحُقد	٢١٢
ـ خِداع ومَكر	٢١٤
المحنة الأولى ـ المؤامرة النكراء	٢١٦
ـ مواجهة الوالد المفجوع	٢١٧
ـ يوسف في الجبّ	٢١٨
الحلقة الثانية	٢١٩
ـ يوسف في مصر	٢١٩
المحنة الثانية ـ فتنة شديدة وعنيفة	٢٢٢
ـ حديث النساء	٢٣٠
ـ إغراء وتهديد	٢٣١

الحلقة الثالثة	٢٣٤
المحنة الثالثة	٢٣٤
ـ يوسف في السجن ـ دعوة، وموعظة، وتوحيد	٢٣٤
ـ رؤيا الملك	٢٤٤
ـ فتوى، وتأويل الرؤيا	٢٤٥
الحلقة الرابعة	٢٤٧
ـ إعلان براءة يوسف، وظهور الحق	٢٤٧
ـ تمكين وتكريم	٢٥٤
ـ شُبهة وبيان	٢٥٦
الحلقة الخامسة	٢٧٢
ـ وجاء إخوة يوسف	٢٧٢
ـ بين يعقوب وأبنائه	٢٧٦
ـ وصيّة يعقوب	٢٧٨
ـ مشهد مثير	٢٨١
ـ حَرَج وحَيْرة	٢٨٨
ـ النبأ الفظيع والثقة بالله	٢٩٠
الحلقة السادسة	
ـ مفاجأة عجيبة	٢٩٦
ـ أَمَل ويقين	٢٩٩
الحلقة السابعة	٣٠١
ـ المشهد المثير والنهائي	٣٠١
ـ اللفتات واللمسات الموحية	٣٠٣
ـ توحيد وتنزيه	٣٠٧
ـ عبرة ومصير	٣١١

ـصورة رهيبة	٣١٢
ـ الطبيعة الحركية للقصة وأثرها في التربية الإسلامية	٣١٥
ـ سُنَّة الله وقَدَره	٣٢٠
ـ النموذج الكامل لمنهج الإسلام	٣٢٥
ـ في ظلال الفترة التاريخية	٣٤١
ـ من لطائف التناسق القرآني في قصّة يوسف	٣٤٧
ـ الإيقاع الأخير	٣٥١
ـ صبر وجهاد وثقة وتفاؤل	٣٥٤

يوسف عليه السَّلام

إنَّ هذا القرآن الذي يقصّ أحسن القصص هو كتاب الله الذي لا يدخله شكٌ ولا تحوم حوله ريبة ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتَّقين﴾ [البقرة: ٢]..

ما أشد حاجة المسلمين لمطالعة قَصَص القرآن.. زاداً لقلوبهم، وغذاءً لأرواحهم، وترسيخاً لعقيدتهم، وشدة في المطالبة بحقهم.

من أول مبادىء المُسلم فَهم رسالة الإسلام، وإيمانه بدعوته ومعرفته بها، وإحاطته بجميع أطرافها حتى تمتلك عليه جميع مشاعره، فيحيا لنشرها، ويعمل لتطبيق تعاليمها وسيادة نظمها في العالم.

والقرآن هو رسالة الإسلام لا يزال نابضاً حيّاً، كل آية فيه طاقة تُشرف منها على عالم رَحب من الكفاح والبلاء.

وفي ظلال القرآن يتعلم المؤمن أنَّه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا لِلَّفْتة العارضة: ﴿إنَّا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر: ٤٩].. ﴿وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢].. وكل أمر لحكمة. ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة: ﴿فعسىٰ أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [النساء: ١٩].. ﴿وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسىٰ أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢١٦]..

والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتْبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حَتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها. ذلك أنَّه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشىء الآثار والنتائج، وإنَّما هي الإرادة الطليقة التي تنشىء الآثار والنتائج كما تنشىء الأسباب والمقدمات سواء: ﴿**لا تدري لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً**﴾ [الطلاق: ١].. ﴿**وما تشاءون إلاَّ أن يشاء الله**﴾ [الإنسان: ٣٠]..

والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنَّه مأمور بالأخذ بها، والله هو الذي يقدِّر آثارها ونتائجها.. والاطمئنان إلى رحمة الله وعَدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين.

وقد نزلت سورة يوسف بعد سورة هود، في تلك الفترة الحَرِجة في تاريخ الدعوة وفي حياة الرسول ﷺ والعصبة المسلمة معه في مكة. وهي من أحرج الفترات وأشدها في تاريخ الدعوة بمكة. فقد سبقها موت أبي طالب عم النَّبيِّ ﷺ وموت زوجه خديجة؛ وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب ـ وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته، واستهزاء المشركين به، وارتداد بعض من كان أسلموا قبله ـ مع وحشة رسول الله ﷺ ـ بعد خديجة رضي الله عنها في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته، وبلغت الحرب المُعلنة عليه وعلى دعوته أقسىٰ وأقصىٰ مداها، وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة.. وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القِلَّة المسلمة معه بيعة العقبة الأُولىٰ والثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فَرَجاً ومخرجاً بالهجرة إلى المدينة..

أَمَل وأُنس وتَطمين:

وسورة يوسف كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها. بل إنَّ عليها طابع هذه

الفترة الحَرِجة الموحشة بصفة خاصة. . ففي الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش ـ منذ عام الحزن ـ وتُعاني معه الجماعة المسلمة هذه الشدة، كان الله ـ سبحانه ـ يقصُّ على نبيِّه الكريم قصة أخ له كريم ـ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ـ وهو يعاني صنوفاً من المِحَن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة. ومحنة الجبِّ والخوف والترويع فيه. ومحنة الرقّ وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله. ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة! ومحنة السجن بعد رَغَد العيش وطراوته في قصر العزيز. ثمَّ محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم، وفي يده لقمة الخبز التي تقوتهم! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقىٰ بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المِحن والابتلاءات كلها. .

هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف ـ عليه السَّلام ـ وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها، وخرج منها كلها متجرداً خالصاً، آخر تَوجّهاته، وآخر اهتماماته، في لحظة الانتصار على المحن جميعاً؛ وفي لحظة لقاء أبويه ولَمِّ شمله، وفي لحظة تأويل رؤياه وتَحقّقها كما رآها: **﴿إذ قال يوسف لأبيه: يَا أَبتِ إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾** [يوسف: ٤]. . آخر توجّهاته وآخر اهتماماته في هذه اللحظة هي التوجه المُخلص المتجرد المنيب إلى ربه، منخلعاً من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم:

﴿فلمَّا دخلوا على يوسف آوىٰ إليه أبويه، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ورفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سُجَّداً. وقال: يَا أَبَتِ هٰذا تأويل رؤياي من قَبل قد جعلها ربِّي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني

وبين إخوتي، إنَّ ربِّي لطيف لما يشاء، إنَّه هو العليم الحكيم.. ربِّ قد آتيتني من الملك، وعلَّمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السَّماوات والأرض. أنت وليِّي في الدنيا والآخرة، توفَّني مسلماً، وألحقني بالصَّالحين﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١]..

وهكذا كانت طلبته الأخيرة.. بعد ذلك كله وهو في غمرة السلطان والرخاء ولَمّة الشمل.. أن يتوفاه ربه مسلماً، وأن يُلحقه بالصالحين.. وذلك بعد الابتلاء والمحنة، والصبر الطويل والانتصار الكبير..

فلا عجب أن تكون سورة يوسف. بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك، تسلية وتسرية، وتطميناً كذلك وتثبيتاً للمُطارَدين المُغتَربين المُوحَشين!

لا بل إنَّ الخاطر ليذهب إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرىٰ يكون فيها النصر والتمكين؛ مهما بدا أنَّ الخروج كان إكراهاً تحت التهديد! كما أُخرج يوسف من حضن أبيه، ليواجه هذه الابتلاءات كلها. ثمَّ لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين:

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض. ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١]..

ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه في مصر في قصر العزيز.. حتى وهو ما يزال فتى يباع بيع الرقيق..!

وما يذهب بي الخاطر(١) إليه اللحظة يجعلني أتذوق مذاقاً خاصاً ـ أُشير إليه ولا أملك التعبير عنه! ـ ذلك التعقيب الذي أَعقب القصة:

﴿وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرىٰ، أفلم

---

(١) سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ المجلد ٤، ص ١٩٥٠.

يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الآخرة خير للّذين اتقوا أفلا تعقلون؟ حتّى إذا استيأس الرسل وظنّوا أنّهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنُجّي من نشاء، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين. لقد كان في قَصَصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء، وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١١]. .

إنّه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل ـ كما استيأس يوسف في محنته الطويلة ـ والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفَرَج المرغوب! الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة، وهي في مثل هذه الفترة تعيش، وفي جوّها تتَنفَّس، فتتذوق وتستشرف، وتلمح الإيحاء والتلميح من بعيد. .

التقديم الطبيعي للقصة :

تتقدم قصة يوسف ـ عليه السّلام ـ مقدمة طبيعية لها دلالاتها وإيحاءاتها:

﴿آلر. تلك آيات الكتاب المبين. إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون. نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ١ ـ ٣]. .

فالتقديم لهذه القصة بهذه الآيات يبدو هو التقديم الطبيعي المصاحب لنزول القصة. .

وهذه الأحرف المُقطّعة. . ألف. لام. را. . وتقرير أنّها آيات الكتاب المبين. ثمّ تقرير أنّ الله أنزل هذا الكتاب قرآناً عربياً. . هو من جو القرآن المكي، ومواجهة المشركين في مكة بعربية القرآن الذين كانوا يَدّعون أنّ أعجمياً يُعلّمه لرسول الله ﷺ! وتقرير أنّه وحي من الله كان النّبيّ ﷺ من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته.

ألف. لام. را.. هذه الأحرف وما من جنسها وهي قريبة للناس متداولة بينهم. هي هي بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية. آيات الكتاب المبين.. ولقد نزَّله الله كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية المعروفة: ﴿لعلَّكم تعقلون﴾.. وتدركون أنَّ الذي يصنع من هذه الكلمات العادية هذا الكتاب المُعجز لا يمكن أن يكون بَشَراً، فلا بد عَقلاً أن يكون القرآن وَحْياً. والعقل هنَا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة.

وبإيحائنا هذا القرآن إليك قَصَصْنا عليك هذا القَصَص ـ وهو أحسن القصص ـ وهو جزء من القرآن الموحىٰ به.. وقد كنت أحد الأُميِّين في قومك، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء بها القرآن، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق. إنَّه أحسن القصص انتقاءاً واختياراً، وإنَّه أحسن القصص نَظماً وترتيباً وتفصيلاً، وإنَّه أحسن القصص شهادة صدق وبرهان حق، وإنَّه أحسن القصص حكماً وأحكاماً، وإنَّه أحسن القصص علماً وتعليماً وتوجيهاً...

* * *

هذه المقدمة إشارة البدء إلى القصة..

الحلقة الأولى:

يوسف الصَّبي :

ثمَّ يرفع الستار عن **المشهد الأوَّل** في الحلقة الأُولىٰ، لنرىٰ يوسف الصبي يقصُّ رؤياه على أبيه:

﴿إذ قال يوسف لأبيه: يَا أَبَتِ إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشَّمس والقمر. رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤]..

كان يوسف صبياً أو غلاماً؛ وهذه الرؤيا كما وَصَفها لأبيه من رُؤىٰ الصبية والغلمان؛ وأقرب ما يراه غلام ـ حين تكون رؤياه صبيانية أو صدىٰ لما يحلم به ـ أن يرىٰ هذه الكواكب والشمس والقمر في حجره أو بين يديه يطولها. ولكن يوسف رآها ساجدة له، مُتمثلة في صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيماً. والسياق يروي عنه في صيغة الإيضاح المُؤكدة:

﴿إذ قال يوسف لأبيه: يَـا أَبَتِ إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشَّمس والقمر﴾..

ثمَّ يعيد لفظ رأىٰ: **﴿رأيتهم لي ساجدين﴾..**

لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أنَّ وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام. هذه الرؤيا بِشَارة بِعِلْم ونُبُوّة. ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك. ولا تظهر بوادره إلاَّ بعد حلقتين منها. أمَّا تمامه فلا يظهر إلاَّ في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب. ولهذا نَصَحه بألاَّ يقص رؤياه على إخوته، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير ـ غير الشقيق ـ فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلىء نفوسهم بالحقد، فيُدبّروا له أمراً يسوؤه.

﴿قال: يَـا بُنيَّ لا تَقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾..
ثمَّ علَّل هذا بقوله: **﴿إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌ مبين﴾** [يوسف: ٥].. ومن ثمَّ فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض، ويزين لهم الخطيئة والشر.

ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقد أحسَّ من رؤيا ابنه يوسف أن سيكون له شأن، يتجه خاطره إلى أنَّ هذا الشأن في وادي الدين والصلاح والمعرفة؛ بحكم جو النبوة الذي يعيش فيه، وما يعلمه من أنَّ جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون. فتوقع أن يكون يوسف هو الذي يختار

من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة في بيت إبراهيم. فقال له:

﴿وكذلك يجتبيك ربك، ويعلِّمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إنَّ ربَّك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٦]. .

واتجاه فكر يعقوب إلى أنَّ رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق (والجد يقال له أب). . هذا طبيعي. ولكن الذي يستوقف النظر قوله: **﴿ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث﴾**. .

والتأويل هو معرفة المآل. فما الأحاديث؟. أقصَدَ يعقوب أنَّ الله سيختار يوسف ويعلِّمه ويهبه من صدق الحسّ ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذي تنتهي إليه، منذ أوائلها، وهو إلهام من الله لذوي البصائر المدركة النافذة، وجاء التعقيب: **﴿إنَّ ربَّك حكيم عليم﴾**. .

مناسباً لهذا في جو الحكمة والتعليم؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى والأحلام كما وقع بالفعل في حياة يوسف فيما بعد؟

كلاهما جائز، وكلاهما يتمشّى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب. .

وبهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤى والأحلام وهي موضوع هذه القصة.

إنَّنا ملزمون بالاعتقاد بأنَّ بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد. ملزمون بهذا **أوَّلاً** من ناحية ما وَرَدَ في هذه القصة من وقوع مصداق رؤيا يوسف، ورؤيا صاحبيه في السجن، ورؤيا الملك في مصر.

وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده. . لأنَّه موجود بالفعل!. . والسبب

الأوَّل يكفي. . ولكننا ذكرنا السبب الثَّاني لأنَّه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلاَّ بتعنت. .

فما هي طبيعة الرؤيا؟

تقول مدرسة التحليل النفسي: إنَّها صور من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام في غياب الوعي.

وهذا يمثل جانباً من الأحلام. ولكنه لا يمثلها كلها. (وفرويد) ذاته ـ على تحكمه غير العلمي وتَمَحّله في نظريته يقرر أنَّ هناك أحلاماً تنبؤية، فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية؟

وقبل كل شيء نقرر أنَّ معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لا علاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها. إنَّما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشري العجيب، وبعض سنن الله في هذا الوجود.

ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤىٰ على هذا النحو. . إنَّ حواجز الزمان والمكان هي التي تحول بين هذا المخلوق البشري وبين رؤية ما نسميه الماضي أو المستقبل، أو الحاضر المحجوب. وأنَّ ما نسميه ماضياً أو مستقبلاً إنَّما يحجبه عنا عامل الزمان، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان. وأنَّ حاسةً ما في الإنسان لا نعرف كنهها تستيقظ أو تقوىٰ في بعض الأحيان، فتتغلب على حاجز الزمان وترىٰ ما وراءه في صورة مُبهمة، ليست عِلماً ولكنها استشفاف، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس، وفي الرؤىٰ لبعضهم، فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان، أو هما معاً في بعض الأحيان. وإن كنَّا في نفس الوقت لا نعلم شيئاً عن حقيقة الزمان. كما أنَّ حقيقة المكان ذاتها ـ وهي ما يسمّىٰ بالمادة ـ ليست معلومة لنا على وجه التحقيق: ﴿وما أُوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً﴾! [الإسراء: ٨٥]. .

على أيَّة حال لقد رأىٰ يوسف رؤياه هذه، وسنرىٰ فيما بعد ما يكون تأويل الرؤيا. .

حسد وحقد :

ويسدل السياق الستار على مشهد يوسف ويعقوب هنا ليرفعه على مشهد آخر: مشهد إخوة يوسف يتآمرون مع حركة تنبيه لأهمية ما سيكون:

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين. إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحبُّ إلىٰ أبينا منا ونحنُ عصبة. إنَّ أبانا لفي ضلالٍ مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين. قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبِّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾ [يوسف: ٧ - ١٠].

لقد كان في قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن يُنقّب عن الآيات ويسأل ويهتم. وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام. لذلك نشبهه بحركة رفع الستار عمَّا يدور وراءه من أحداث وحركات. فنحن نرىٰ وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يُدبّرون ليوسف ما يُدَبّرون.

ترىٰ حَدَّثَهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب «العهد القديم»؟

إنَّ السياق هنا يفيد أن لا. فهم يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم. أخيه الشقيق. ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم، ولكانت أدعىٰ إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه. فما خافه يعقوب على يوسف لو قصَّ رؤياه على إخوته قد تمَّ عن طريق آخر، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له(١). ولم يكن بدّ أن يتم لأنَّه حلقة في سلسلة

---

(١) يقول العلاّمة الشيخ الدكتور فضل عباس: وهنا لا بد أن نقف نستوحي من الآيات درساً تربوياً يتعلق بشؤون الأسرة ترشد إليه الآيات الكريمة.

إنَّ إخوة يوسف فعلوا ذلك لما رأوه من معاملة أبيهم وتفضيله يوسف عليهم، وهي من القضايا التي تغرس في الأسرة البغض والكراهية وتقطيع الأواصر، وما نظن إلاّ أنَّ الآيات الكريمة كانت تهدف لتقرير هذه الحقيقة، وهي تعليم الآباء أن لا يُشعروا الأبناء بتفضيل أحد على =

الرواية الكبرىٰ المرسومة، لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة، والتي تُمهد لها ظروف حياته، وواقع أسرته، ومجيئه لأبيه على كبرة. وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر. كما كان الحال مع يوسف وأخيه، وإخوته من أمهات.

﴿**إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة**﴾.. أي ونحن مجموعة قوية تدفع وتنفع..

﴿**إنَّ أبانا لفي ضلال مبين**﴾.. إذ يُؤثر غلاماً وصبياً صَغيرين على مجموعة الرجال النافعين الدافعين!

ثمَّ يغلي الحقد ويدخل الشيطان، فيختل تقديرهم للوقائع، وتتضخم في حِسّهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام. تهون الفعلة الشنعاء المُتَمثّلة في إزهاق روح. روح غلام بريء لا يملك دفعاً عن نفسه، وهو لهم أخ. وهم أبناء نبي ـ وإن لم يكونوا هم أنبياء ـ يهون هذا. وتتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب. حتى توازي القتل. أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله:

﴿**اقتلوا يوسف. أو اطرحوه أرضاً**﴾.. وهما قريب من قريب. فَطَرْحه في أرض نائية مقطوعة مُفض في الغالب إلى الموت.. ولماذا؟

﴿**يخلُ لكم وجه أبيكم**﴾.. فلا يحجبه يوسف. وهم يريدون قلبه. كأنَّه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خالياً من حبه، ويتوجه بهذا الحب إلى

= أحد، ونجد سيدنا رسول الله ﷺ يؤكد على هذه القضية في أحاديثه وأحكامه فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أنَّ أباه وَهَبه بستاناً وأنَّ أمّه أعجبها أن يشهد النَّبي ﷺ على ذلك فأخذه أبوه وقال: يا رسول الله: إنِّي نحلتُ ابني هذا بستاناً وإنَّ أمّه أعجبها أن تشهدك على ذلك. ويقول الرسول الكريم: ألكَ غيره؟ قال: نعم. قال: أأعطيتهم كلهم مثل ما أعطيته؟ قال: لا. فيقول النبي الكريم: أرجعه ـ أي أرجع ما أعطيته له ـ فإني لا أشهد على جُور. ثم يقول ﷺ: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». [القصص القرآني ٣٩٧ ـ ٣٩٨]..

الآخرين! والجريمة؟ الجريمة تـتوبون عنها وتُصلحون ما أفسدتم بارتكابها: ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾!.. هكذا ينزغ الشيطان، وهكذا يُسوّل للنفـوس عندمـاً تغضب وتفقد زمـامها، وتفقـد صحة تقـديرهـا لـلأشيـاء والأحداث. وهكذا لمَّا غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا.. والتوبة بعد ذلك تُصلح ما فات!

وليست التوبة هكذا.. إنَّما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً غير ذاكر؛ حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة. أمَّا التوبة الجاهزة! التي تُعَد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة، إنَّما هي تبرير لارتكاب الجريمة يُزينه الشيطان! ولكنَّ ضميراً واحداً فيهم، يرتعش لِهَول ما هُم مُقدمون عليه. فيقترح حلاً يريحهم من يوسف، ويُخلي لهم وَجْه أبيهم، ولكنه لا يقتل يوسف، ولا يُلقيه في أرض مهجورة يَغلب فيها الهلاك.. إنَّما يلقيه في الجب على طريق القوافل، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدىٰ القوافل فتنقذه وتذهب به بعيداً:

﴿قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف، وألقوه في غيابة الجبِّ، يلتقطه بعض السيَّارة إن كنتم فاعلين﴾..

ونحس من قوله **﴿إن كنتم فاعلين﴾**.. روح التشكيك والتثبيط.. كأنَّه يُشكّكهم في أنَّهم مصـرّون على إيقاع الأذىٰ بيـوسف. وهـو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ. ولكن هذا كان أقل ما يشفي حقدهم؛ ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه.. نفهم هذا من المشهد التالي في السياق..

* * *

خداع ومكر:

فها هم أُولاء عند أبيهم، يُراودونه في اصطحاب يـوسف معهم منذ

الغداة. وها هم أولاء يخادعون أباهم ويمكرون به وبيوسف. فلنشهد ولنستمع لما يدور:

﴿قالوا: يَـا أبانا مَالَكَ لا تأمنَّا علىٰ يوسف؟ وإنَّا له لناصحون، أرسله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ، وإنَّا له لحافظون. قال: إنِّي ليحزنني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنَّا إذاً لخاسرون﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤]. .

والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتدسسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب، الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم. . **﴿يَـا أبانا﴾**. . بهذا اللفظ الموحي المذكر بما بينه وبينهم من آصرة. . **﴿مَالَكَ لا تأمنَّا على يوسف؟﴾**. .

سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف. فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنَّه يحبه ويخشىٰ عليه ألَّا يحتمل الجو والجهد الذي يحتملونه وهم كبار، لا لأنَّه لا يأمنهم عليه. فبمبادرتهم له بأنَّه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر؛ ومن ثمَّ يفقد إصراره على احتجاز يوسف. فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة!

﴿مَالَكَ لا تأمنَّا علىٰ يوسف؟ وإنَّا له لناصحون﴾. .

قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء ـ وكاد المريب أن يقول خذوني ـ فذكر النصح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المريب. .

﴿أرسله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ وإنَّا له لحافظون﴾. .

زيادة في التوكيد، وتصويراً لما ينتظره يوسف من النشاط والمَسرّة والرياضة، ممَّا ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون.

ورداً على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب ينفي ـ بطريق غير مباشر ـ أنَّه لا يأمنهم عليه، ويُعلل احتجازه معه بقلّة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب: ﴿**قال: إنِّي ليحـزنني أن تذهبـوا به، وأخـاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**﴾..

﴿**إنِّي ليحزنني أن تذهبوا به**﴾..

إنَّني لا أُطيق فراقه.. ولا بد أنَّ هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها. أن يبلغ حُبّه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم، وهو ذاهب كما قالوا لـه للنشاط والمسرة.

﴿**وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**﴾..

ولا بد أنَّهم وجدوا فيها عذراً كانوا يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكـرة، حتى لقّنهم أبوهم هذا الجواب! واختاروا أسلوباً من الأساليب المؤثرة لنفي هذا الخاطر عنه:

﴿**قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة، إنَّا إذاً لخاسرون**﴾..

لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإنَّنا لخاسرون كل شيء، فلا نصلح لشيء أبداً! وهكـذا استسلم الوالـد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج.. ليتحقق قدر الله وتـتم القصة كما تقتضي مشيئته!

* * *

المؤامرة النكراء ـ المحنة الأُولىٰ:

والآن لقد ذهبوا به، وها هم أُولاء يُنفـذون المؤامرة النكـراء. والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنَّها محنة وتنتهي، وأنَّه سيعيش وسيذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنَّه هو: ﴿**فلمَّـا ذهبوا بـه وأجمعوا أن**

يجعلوه في غيابة الجبِّ. وأوحينا إليه لتنبئنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [يوسف: ١٥].

فقد استقرَّ أمرهم جميعاً على أن يجعلوه في غيابة الجب، حيث يغيب فيه عنهم. وفي لحظة الضيق والشدة التي كان يواجه فيها هذا الفَزَع، والموت منه قريب، ولا منقذ له ولا مغيث. وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء، في هذه اللحظة اليائسة يُلقي الله في رَوعه أنَّه ناجٍ، وأنَّه سيعيش حتى يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع، وهم لا يشعرون بأنَّ الذي يُواجههم هو يوسف الذي تركوه في غيابة الجب وهو صغير.

* * *

مواجهة الوالد المفجوع:

وندع يوسف في محنته في غيابة الجبِّ، يؤنسه ولا شك ما ألقىٰ الله في روعه ويطمئنه، حتى يأذن الله بالفَرَج. ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع:

﴿وجاءوا أباهم عشاءً يبكون، قالوا: يَا أبانا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب. وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين. وجاءوا على قميصه بدم كَذِب. قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٦ ـ ١٨].

لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولىٰ التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم! ولكنهم كانوا مُعَجّلين لا يَصبرون، يخشون ألاَّ تواتيهم الفرصة مرة أُخرىٰ. كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرُّع، وقد كان أبوهم يُحذرهم منها أمس، وهم ينفونها، ويكادون يتهكّمون بها. فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذّرهم

أبوهم منه أمس! ويمثل هذا التسرع جاؤوا على قميصه بدم كذب لطَّخوه به في غير إتقان، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنَّه كذب..

فعلوا هذا.. **﴿وجاءوا أباهم عشاءً يبكون قالوا: يَـا أَبَانا إنَّا ذهبنـا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾**..

ويحسون أنَّها مكشوفة، ويكاد المريب أن يقول خذوني، فيقولون: **﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين﴾**..

أي وما أنت بمُطمئن لما نقوله، ولو كان هو الصدق، لأنَّك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول.

وأدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن نداء قلبه، أنَّ يوسف لم يأكله الذئب، وأنَّهم دبَّروا له مكيدة ما. وأنَّهم يُلَفِّقون له قصة لم تقع، ويصفون له حالاً لم تكن، فواجَهَهم بأنَّ نفوسهم قد حَسَّنت لهم أمراً مُنكراً وذلَّلته ويسرت لهم ارتكابه؛ وأنَّه سيصبر متحملاً متجملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعيناً بالله على كل ما يُلَفِّقونه من حِيَل وأكاذيب:

﴿قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً. فصبر جميل. والله المستعان على ما تصفون﴾..

* * *

يوسف في الجب:

ثمَّ لنعد سريعاً إلى يوسف في الجبّ، لنرىٰ المشهد الأخير في هذه الحلقة الأولىٰ من حلقات القصة:

﴿وجاءت سيارة، فأرسلوا واردهم، فأدلىٰ دلوه قال: يَـا بشـرىٰ. هـٰذا غلام. وأسرُّوه بضاعة، والله عليم بما يعملون. وشَروه بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزَّاهدين﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٢٠]..

لقد كان الجب على طريق القوافل، التي تبحث عن الماء في مَظانِّه،

في الآبار وفي مثل هذا الجب الذي ينزل فيه ماء المطر ويبقىٰ فترة، ويكون في بعض الأحيان جافاً كذلك: ﴿وجاءت سيارة﴾.. أي قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشافة والجوالة والقناصة..

﴿فأرسلوا واردهم﴾.. أي من يَرد لهم الماء ويكون خبيراً بمواقعه..

﴿فأدلىٰ دلوه﴾.. لينظر الماء أو ليملأ الدلو ـ ويحذف السياق حركة يوسف في التعلق بالدلو احتفاظاً بالمفاجأة القصصية للقارىء والسامع ـ:

﴿قال: يَـٰا بشرىٰ! هـٰذا غلام!﴾.. ومرة أُخرىٰ يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وقيل، وحال يوسف، وكيف ابتهج للنجاة، ليتحدث عن مصيره مع القافلة:

﴿وأسرُّوه بضاعة﴾.. أي اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقاً، ولما لم يكن رقيقاً فقد أسروه لِيخفوه عن الأنظار.. ثمَّ باعوه بثمن قليل:

﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾.. وكانوا يتعاملون في القليل من الدراهم بالعدّ، وفي الكثير منها بالوزن..

﴿وكانوا فيه من الزَّاهدين﴾،، لأنَّهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه..

وكانت هذه نهاية المحنة الأُولىٰ في حياة النَّبي الكريم..

* * *

الحلقة الثانية:

يوسف في مصر:

الحلقة الثَّانية من حلقات القصة، وقد وصل يوسف إلى مصر، وبِيعَ بَيْعَ الرقيق؛ ولكن الذي اشتراه توسم فيه الخير ـ والخير يُتوسّم في الوجوه

الصِباح، وبخاصة حين تصاحبها السجايا المِلاح - فإذا هو يوصي به امرأته خيراً، وهنا يبدأ أول خيط في تحقيق الرؤيا. ولكنَّ محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشدّه، وقد أوتي حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلاَّ من رَحِمَ الله. إنَّها محنة التَعرُّض للغواية في جوّ القصور، وفي جو ما يسمونه «الطبقة الراقية» وما يغشاها من استهتار وفجور.. ويخرج يوسف منها سليماً معافاً في خُلقه وفي دينه، ولكن بعد أن يُخالط المحنة ويَصلاها..

﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: أكرمي مثواه، عسىٰ أن ينفعنا أو نتَّخذه ولداً. وكـذلك مكنّـا ليوسف في الأرض. ولِنعَلِّمـه من تأويـل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١]..

إنَّ السياق لا يكشف لنا حتى الآن عمَّن اشتراه، وسنعلم بعد شوط في القصة إنَّه عزيز مصر (قيل: إنَّه كبير وزرائها) ولكنا نعلم منـذ اللحظة أنَّ يوسف قد وصل إلى مكان آمن، وأنَّ المحنة قد انتهت بسلام، وأنَّه مُقبل بعد هذا على خير: ﴿أكرمي مثواه﴾..

والمثـوىٰ مكان الثـويّ والمبيت والإقامـة، والمقصود بـإكرام مثـواه إكرامه، ولكنَّ التعبير أعمق، لأنَّه لا يجعل الإكرام لشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته.. وهي مبالغة في الإكرام. في مقابل مثواه في الجبّ وما حوله من مخاوف وآلام!

ويكشف الرجل لامرأته عمَّا يتوسمه في الغلام من خير وما يتطلع إليه فيه من أَمَل: ﴿عسىٰ أن ينفعنا أو نتَّخذه ولداً﴾..

ولعلَّهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات.. ومن ثمَّ تطلع الرجل أن يتَّخذاه ولداً إذا صدقت فراسته، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته..

وهنا يقف السياق لِيُنَبِّه إلى أنَّ هذا التدبير من الله، وبه وبمثله قَدّر ليوسف التمكين في الأرض ـ وها قد بدأت بشائره بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته ـ ويشير إلى أنَّه ماض في الطريق ليعلّمه الله من تأويل الأحاديث على الوجهين اللذين ذكرناهما من قبل ـ.

ويعقب السياق على هذا الابتداء في تمكين يوسف بما يدل عليه من أنَّ قُدرة الله غالبة، لا تقف في طريقها قوة، وأنَّه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل:

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض، ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث. والله غالب على أمره﴾..

وها هو ذا يوسف أراد له إخوته أَمْراً، وأراد له الله أَمْراً، ولمَّا كان الله غالباً على أَمْره ومسيطراً فقد نفذ أَمْرُه، أمَّا إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا:

﴿ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾.. لا يعلمون أنَّ سنة الله ماضية وأنَّ أمره هو الذي يكون..

ويمضي السياق ليقرر أنَّ ما شاء الله ليوسف، وقال عنه: ﴿ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث﴾.. قد تحقق حين بلغ أشدَّه:

﴿ولمَّا بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين﴾..

فقد أُوتي صحة الحكم على الأُمور، وأُوتي عِلْماً بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا، أو بما هو أَعَمّ، من العلم بالحياة وأحوالها، فاللفظ عام ويشمل الكثير. وكان ذلك جزاء إحسانه. إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾..

* * *

المحنة الثّانية ـ فتنة شديدة وعنيفة :

وعندئذٍ تجيئه المحنة الثَّانية في حياته، وهي أشد وأعمق من المحنة الأولىٰ. تجيئـه وقـد أوتي صحـة الحكم وأوتي العلم ـ رحمة من الله ـ ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه.

والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير:

﴿**وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلَّقت الأبواب وقالت: هيت لـك! قال: معـاذ الله. إنَّه ربِّي أحسن مثـواي. إنَّه لا يفلح الـظالمـون**﴾ [يوسف: ٢٣]..

إنَّ السياق لم يذكر كم كانت سِنّها وكم كانت سنّه؛ فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير.

لقد كان يوسف غلاماً عندما التقطته السيارة وباعته في مصر. أي إنَّه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد. فهذه هي السنّ التي يطلق فيها لفظ الغلام، وبعدها يسمىٰ فتىً فشاباً فرجلًا.. وهي السن التي يجوز فيها أن يقول يعقوب: ﴿**وأخاف أن يأكله الذئب**﴾.. وفي هذا الوقت كانت هي زوجة، وكانت وزوجهـا لم يُرزقـا أولاداً كما يبـدو من قولـه: ﴿**أو نتخذه ولداً**﴾.. فهذا الخاطر.. خاطر التبني.. لا يرد على النفس عادة إلَّا حين لا يكون هناك وَلَد؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد. فلا بد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة، يعلمان فيها أنَّ لا وَلَد لهما. وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألَّا تقل سنّه عن أربعين سنة، وأن تكون سن زوجه حينئذٍ حوالىٰ الثلاثين.

ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنـة عندمـا يكون يـوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها. وهي السن التي نرجح أنَّ الحادثـة وقعت فيها.. نرجحه لأنَّ تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنَّها كانت

مُكتملة جريئة، مالكة لكيدها، متهالكة كذلك على فتاها. ونُرجّحه من كلمة النسوة فيما بعد.. ﴿امرأة العزيز تُراود فتاها عن نفسه﴾ [يوسف: ٣٠].. وإن كانت كلمة فتىً تقال بمعنىً عبد، ولكنها لا تقال إلاّ ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف. وهو ما ترجحه شواهد الحال.

نبحث هذا البحث، لنصل منه إلى نتيجة معينة. لنقول: إنَّ التجربة التي مرَّ بها يوسف ـ أو المحنة ـ لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يُصوّره السياق. إنّما كانت في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جو هذا القصر، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين، مع جو القصور، وجو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وَجَد فيها امرأته مع يوسف:

﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك! إنّك كنت من الخاطئين﴾ [يوسف: ٢٩].. وكفىٰ..!

والتي يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز، فيكون جوابها عليهنَّ، مأدبة يخرج عليهنَّ يوسف فيها، فيفتتنَّ به، ويُصرحن، فتصرح المرأة:

﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجنَنَّ وليكوناً من الصّاغرين﴾ [يوسف: ٣٢]..

فهذه البيئة التي تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة. هي بيئة الطبقة المترفة دائماً. ويوسف كان فيها مَولىً وتربّىٰ فيها في سن الفتنة.. فهذه هي المحنة الطويلة التي مرَّ بها يوسف، وصمد لها، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة..

ولِسّنه وسنّ المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدىٰ الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل. أمّا هذه المرة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويل، لما

كان عسيراً أن يصمد لها يوسف، وبخاصة أنّه هو مطلوب فيها لا طالب، وتهالُك المرأة قد يَصدّ من نفس الرجل وهي كانت مُتهالكة.

والآن نواجه النصوص:

﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلّقت الأبواب، وقالت: هيت لك﴾..

وإذن فقد كانت المراودة في هذه المرة مكشوفة، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير.. وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلاَّ في اللحظة الأخيرة، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة، ونداء الجسد الأخير:

﴿وقالت: هيت لك!﴾..

هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة. إنّما تكون هي الدعوة الأخيرة. وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً. والفتىٰ يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلا بد كانت هناك إغراءات شتّىٰ خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة.

﴿قال: معاذ الله.. إنّه ربّي أحسن مثواي. إنّه لا يفلح الظّالمون﴾..

أعيذ نفسي بالله أن أفعل.. إنّه ربّيْ أكرمني بأن نجّاني من الجبِّ وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن.

﴿إنّه لا يفلح الظالمون﴾.. الذين يتجاوزون حدود الله، فيرتكبون ما تدعينني اللحظة إليه..

والنص هنا صريح وقاطع في أنّ رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبّي، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه، وبتذكر حدوده، وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود. فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف

لما دَعَتْه إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته: ﴿وقالت: هيت لك﴾..

﴿ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربِّه﴾! [يوسف: ٢٤]..

لقد حصر جميع المفسرين القدامىٰ والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة. فأمَّا الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يُصوِّرون فيها يوسف هائج الغريزة مُندفعاً شبقاً، والله يُدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع! صَوَّرت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضّاً على أصبعه بفمه! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن ـ أي نعم من القرآن! تنهىٰ عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوي! حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبدي، فجاء فَضَربه في صدره.. إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع!

وأمَّا جمهور المفسرين فسار على أنَّها همَّت به هَمّ الفعل، وهمَّ بها هَمّ النفس، ثمَّ تجلّىٰ له برهان ربه فترك.

وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي. وقال: إنَّها إنَّما همَّت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهي السيدة الآمرة، وهمَّ هو برد الاعتداء؛ ولكنَّه آثر الهَرب فلحقت به وقدَّت قميصه من دُبر.. وتفسير الهمّ بأنَّه هَمّ الضرب وردّ الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة، فهي مجرد رأي لمحاولة البُعد بيوسف عن هَمّ الفعل أو هَمّ الميل إليه في تلك الواقعة. وفيه تَكَلُّف وإبعاد عن مدلول النص.

أمَّا الذي خطر لي[1] وأنا أُراجع النصوص هنا، وأُراجع الظروف التي عاش فيها يوسف، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة، وقبل أن يُؤتىٰ الحكم والعلم وبعدما أُوتيهما..

---

(١) انظر سيد قطب في ظلال القرآن، الجزء الثاني عشر، ص ١٩٨٢.

الذي خطر لي أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربه﴾ . . هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعدما أبىٰ يوسف في أوَّل الأمر واستعصمَ. وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف؛ ثمَّ الاعتصام بالله في النهاية والنجاة. . ولكن السياق القرآني لم يُفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة؛ لأنَّ المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك. فذكر طَرَفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً.

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف. وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية. وما كان يوسف سوىٰ بَشَر. نعم إنَّه بشر مختار. ومن ثمَّ لم يتجاوز هَمّه الميل النفسي في لحظة من اللحظات. فلمَّا أن رأىٰ برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبّي[1]: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف: «فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقَصْد إليها؟

قلت: المراد أنَّ نفسه مالت إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم. ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته لما كان صاحبه مَمدوحاً عند الله بالامتناع، لأنَّ استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عِظم الابتلاء وشدته، ولو كان همّه كَهَمّها عن عزيمة لما مدحه الله بأنَّه من عباده المخلصين. . ». انتهىٰ. وهو تعليل صحيح في جملته بغض النظر عن الإشارة الاعتزالية في قول الزمخشري: «ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم». فهو إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في أنَّ البرهان عقلي. والبرهان الذي أخذه الله على المكلفين هو ما قرره في =

والفحشاء[1]، إنَّه من عبادنا المخلَصين﴾ [يوسف: ٢٤]..

= شريعته.. ولكن هذا خلاف مذهبي تاريخي لا شأن لنا به. فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي!

(١) يقول ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ:

«ليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من فاحشة الزنا، ولها خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنَّها من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بها بَعُدَ ممَّن هو طيب، لا يصعد إليه إلاَّ طيب، وكلما ازداد خُبثاً ازداد من الله بُعداً، ولهذا قال المسيح ـ عليه السَّلام ـ فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد «لا يكون البطالون من الحكماء، ولا يَلج الزناة ملكوت السماء»..

ولمَّا كانت هذه حال الزنا كان قريباً للشرك في كتاب الله تعالىٰ. قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿الزَّاني لا ينكح إلاَّ زانية أو مُشركة، والزانية لا ينكحها إلاَّ زان أو مشرك وحُرِّم ذلك علىٰ المؤمنين﴾ [النور، آية: ٣]..

فالزنا تفسد القلب، وتُضعف توحيده جداً، ولهذا كان أحظىٰ الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاء، فكلَّما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة فيه أكثر، وكلَّما كان أعظم إخلاصاً كان منها أبعد، كما قال تعالىٰ عن يوسف الصدِّيق ـ عليه السَّلام ـ:

﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلصين﴾..

فإنَّ عشق الصور المحرَّمة نوع تعبُّد لها، بل هو أعلىٰ من أنواع التعبُّد، ولاسيَّما إذا استولىٰ على القلب، وتمكَّن منه صار تـتَيُّماً، والتـتيُّم التعبد، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه، وكثيراً ما يغلب حبه وذِكْره والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثار محابِّه على حب الله وذكره، والسعي في مرضاته، بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور، كما هو مشاهد، فيصير المعشوق، إلـٰهه من دون الله عزَّ وجلَّ، يقدِّم رضاه وحبه على رضىٰ الله وحبه، ويتقرَّب إليه ما لا يتقرَّب إلى الله، ويُنفقُ في مرضاته ما لا يُنفقه في مرضاة الله، ويتجنَّب من سخطه ما لا يتجنَّب من سخط الله تعالىٰ، فيصير آثر عنده من ربه: حُبّاً، وخضوعاً، وذلاًّ، وسمعاً، وطاعة.

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنَّما حكىٰ الله ـ سبحانه ـ العشق عن امرأة العزيز. وكانت إذ ذاك مشركة، فكلَّما قوي شرك العبد بُليَ بعشق الصور، وكلَّما قوي توحيده صُرف ذلك عنه. والزنا كمال لذتها إنَّما يكون مع العشق، ولا يخلو صاحبها منه، وإنَّما لِتنقُّله من محل إلى محل لا يبقىٰ عشقه مقصوراً على محل واحد بل ينقسم على سهام كثيرة، لكل نصيب من تألُّهه وتعبُّده».. [إغاثة اللهفان ١/٧٩ ـ ٨٠].

يقول الله تعالىٰ ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ولا تقربوا الزنىٰ إنَّه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [الإسراء، آية: ٣٢].. =

﴿واستبقا الباب﴾ . . فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق . . وهي عَدَت خلفه لتمسك به، وهي ما تزال في هياجها الحيواني . .

﴿وقدَّت قميصه من دُبُر﴾ . . نتيجة جذبها له لتردّه عن الباب . .

وتقع المفاجأة: ﴿وألفيا سيدها لدىٰ الباب﴾ [يوسف: ٢٥] . .

وهنا تـتبدىٰ المرأة المكتملة، فتجد الجـواب حاضـراً على السؤال الذي يهتف به المنظر المُريب. إنَّها تَـتّهم الفتىٰ: ﴿قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً؟﴾ . .

ولكنها امرأة تعشق، فهي تخشىٰ عليه، فتشير بالعقاب المـأمون . . ﴿إلَّا أن يُسجن أو عذاب أليم﴾ [يوسف: ٢٥] . .

ويجهر يوسف بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل: ﴿قال: هي راودتني عن نفسي﴾! [يوسف: ٢٦] . .

وهنا يذكر السياق أنَّ أحد أهلها حسم بشهادته في هذا النزاع:

﴿وشهد شاهد من أهلها: إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصَّادقين﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٧] . . فأين ومتىٰ أدلىٰ هذا الشاهد بشهادته هذه؟ هل كان مع زوجها (سيدها بتعبير أهل مصر) وشهد الواقعة؟ أم إنَّ زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر، كما يقع في مثل هذه الأحوال أن يستدعي الرجل كبيراً من أُسرة المرأة ويُطلعه على ما رأىٰ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدّم المائعة القيم!

= ذكر ابن كثير في تفسيره ٣٨/٣ فيما رواه عن ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي عن النَّبيّ ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحلّ له» . .

والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا. وهي مبالغة في التحرز. لأنَّ الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن. فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان.

هذا وذلك جائز. وهو لا يغير من الأمر شيئاً. وقد سمي قوله هذا شهادة، لأنه لما سئل رأيه في الموقف والنزاع المعروض من الجانبين ـ ولكل منها ومن يوسف قول ـ سُميت فتواه هذه شهادة، لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه.. فإن كان قميصه قُدَّ من قُبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب. وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فهو إذن من أثر تَمَلُّصه منها وتعقبها هي له حتى الباب، وهي كاذبة وهو صادق..

وقَدَّم الفرض الأول لأنَّه إن صحَّ يقتضي صدقها وكذبه، فهي السيدة وهذا فتىٰ، فمن باب اللياقة أن يُذكر الفَرَض الأول! والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة. ﴿فلمَّا رأىٰ قميصه قُدَّ من دُبُر﴾ [يوسف: ٢٨]..

تبيَّن له حسب الشهادة المبنية على منطق الواقع أنَّها هي التي راودت، وهي التي دبرت الاتهام.. وهنا تبدو صورة من «الطبقة الراقية» في الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنَّها هي هي اليوم شاخصة. رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع، وهذا هو المهم كله:

﴿قال: إنَّه من كيدكنَّ إنَّ كيدكنَّ عظيم. يوسف أعرض عن هٰذا، واستغفري لذنبك إنَّك كنت من الخاطئين﴾ [يوسف: ٢٨، ٢٩]..

هكذا. إنَّه من كيدكنَّ إنَّ كيدكنَّ عظيم.. فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق. والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله، فيما يشبه الثناء. فإنَّه لا يسوء المرأة أن يقال لها: إنَّ كيدكنَّ عظيم! فهو دلالة في حسِّها على أنَّها أُنثىٰ كاملة مستوفية لمقدرة الأُنثىٰ على الكيد العظيم!

والتفاتة إلى يوسف البريء: ﴿يوسف أعرض عن هٰذا﴾.. فأهمله ولا تُعِرْه اهتماماً ولا تتحدث به.. وهذا هو المهم.. محافظة على الظواهر!

وَعِظَة إلى المرأة التي راودت فتاها عن نفسه، وضُبطت مُتَلَبسة بمساورته وتمزيق قميصه: **﴿واستغفري لذنبك. إنَّك كنت من الخاطئين﴾**.

إنَّها الطبقة الأرستقراطية، من رجال الحاشية، في كل جاهلية. قريب من قريب.

ويسدل الستار على المشهد وما فيه.. وقد صور السياق تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها ولكن دون أن ينشىء منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعاً للوحل الجنسي المقبوح!

* * *

حديث النساء:

ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها. ومضت الأُمور في طريقها. فهكذا تمضي الأُمور في القصور!

ولكن للقصور جدراناً، وفيها خدم وحشم. وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستوراً. وبخاصة في الوسط الأرستقراطي، الذي ليس لنسائه من همّ إلاَّ الحديث عمَّا يجري في محيطهنَّ.. وإلاَّ تَداوُل هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات.

ويلغط نساء المدينة بالقصة ـ كعادة النساء في كل زمان ومكان ـ وإنَّها لقصة تجد لديهنَّ اهتماماً ورواجاً:

﴿وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنَّا لنراها في ضلال مبين﴾ [يوسف: ٣٠]..

وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة في كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون. ولأوَّل مرة يُعرف أنَّ المرأة هي امرأة العزيز، وأنَّ الرجل الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر ـ أي كبير وزرائها ـ ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة: **﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن**

نفسه﴾.. ثمَّ بيان لحالها معه: ﴿قد شغفها حباً﴾.. فهي مفتونة به، بلغ حبه شغاف قلبها ومزقه، وشغاف القلب غشاؤه الرقيق.. ﴿إنَّا لنراها في ضلال مبين﴾.. وهي السيدة الكبيرة زوجة الكبير، تفتتن بفتاها العبراني المُشتَرىٰ. أم لعلَّهنَّ يتحدَّثن عن اشتهارها بهذه الفتنة وانكشافها وظهور أمرها، وهو وحده المُنْتَقَد في عرف هذه الأوساط لا الفِعلة في ذاتها لو ظلت وراء الأستار؟!

* * *

إغراء وتهديد:

وهنا كذلك يقع ما لا يمكن وقوعه إلاَّ في مثل هذه الأوساط. ويكشف السياق عن مشهد من صُنع تلك المرأة الجريئة، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كَمَكْرهنَّ وكيد من كيدهنَّ:

﴿فلمَّا سمعت بمكرهنَّ أرسلت إليهنَّ، وأعتدت لهنَّ مُتَّكأً، وآتت كل واحدة منهنَّ سكيناً، وقالت: اخرج عليهنَّ. فلمَّا رأينه أكبرنه وقطَّعن أيديهنَّ..﴾ [يوسف: ٣١]..

لقد أقامت لهنَّ مأدبة في قصرها. وندرك من هذا أنَّهنَّ كنَّ من نساء الطبقة الراقية. فهنَّ اللواتي يُدعَين إلى المآدب في القصور. وهنَّ اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر. ويبدو أنَّهنَّ كنَّ يأكلن وهنَّ مُتَّكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان. فأعدَّت لهنَّ هذا المُتَّكأ. وآتت كل واحدة منهنَّ سِكيناً تستعملها في الطعام ـ ويؤخذ من هذا أنَّ الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً، وأنَّ الترف في القصور كان عظيماً. فإنَّ استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية.. وبينما هنَّ مُنشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة، فاجَأتهنَّ بيوسف: **﴿فلمَّا رأينه أكبرنه﴾**.. بُهِتْنَ لِطَلْعته، ودُهشن. **﴿وقطَّعن أيديهنَّ﴾**.. وجَرَحْن أيديهنَّ بالسكاكين

للدهشة المفاجئة.. ﴿وقلن حاشىٰ لله!﴾..

وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله.. ﴿ما هـٰذا بشراً إن هـٰذا إلاَّ ملك كريم﴾(١)..

وهذه التعبيرات دليل ـ كما قلنا في تقديم السورة ـ على تَسَرُّب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان.

ورأت المرأة أنَّها انتصرت على نساء طبقتها، وأنَّهنَّ لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول. فقالت قولة المرأة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفخر عليهنَّ بأن هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصىٰ قياده مرة فهي تملك هذا القياد مرة أخرىٰ: ﴿قالت: فذلكنَّ الذي لُمتنَّني فيه﴾.. فَأَرَتْهن جماله الظاهر.

فانظرن ماذا لقيتنَّ منه من البهر والدهش والإعجاب! ثمَّ قالت: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ [يوسف: ٣٢]..

فأخبرت عن جماله الباطن بِعفّته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأَرَتْهن جمال ظاهره(٢).

إنَّهنَّ لنساء، وإنَّها لامرأة، وإنَّها لتعرف كيف تُفحم النساء!

---

(١) في ليلة المعراج حيث أخذ الرسول ﷺ ومعه جبريل في التنقل من سماء إلى سماء قال: «... ثمَّ عُرج بي إلى السماء الثَّالثة فاستفتح جبريل... فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أُعطِي شطر الحُسْنِ فرحَّب، ودعا لي بخير...» رواه مسلم عن أنس بن مالك.
وقد أتعب الرواة والمفسرون أنفسهم في وصف حُسن يوسف الذي بَهَرَ النسوة وبَهر امرأة العزيز. وتصوّر بعضهم أوصافاً أقرب ما تكون إلى أوصاف النساء. وما بمثل هذه الأوصاف تُبهر النساء! وإنَّ للرجولة لجمالها الخاص في اكتمال الملامح الرجولية. وإن كان هناك احتمال آخر وهو أنَّ نساء تلك الطبقة كثيراً ما تنحرف فطرتهنَّ فتعجبهنَّ في الرجل ملامح وتقاطيع ممَّا يُحسب جميلاً في النساء. ويغفلن عن غيرها ممَّا يوجد في الرجل من سمات الرجال!

(٢) انظر إغاثة اللهفان لابن القيِّم ١/ ص ٧٣.

ولقد بهرني مثلكنَّ فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام ـ تريد أن تقول: إنَّه عانىٰ في الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها! ـ ثمَّ تُظهر سيطرتها عليه أمامهنَّ في تَبجُّح المرأة من ذلك الوسط، لا ترىٰ بأساً من الجهر بنزواتها الأُنثوية جاهرة مكشوفة في معرض النساء: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجَنَنَّ وليكوناً من الصاغرين﴾! [يوسف: ٣٢]. . فهو الإصرار والتبجُّح والتهديد والإغراء الجديد في ظل التهديد.

ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات، المُبديات لمفاتنهنَّ في مثل هذه المناسبات. ونفهم من السياق أنَّهنَّ كنَّ نساء مفتونات فاتنات في مواجهته وفي التعليق على هذا القول من ربة الدار؛ فإذا هو يناجي ربه:

﴿قال: ربِّ السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه﴾ [يوسف: ٣٣]. . ولم يقل: ما تدعوني إليه. فهنَّ جميعاً كنَّ مشتركات في الدعوة. سواء بالقول أم بالحركات واللفتات. . وإذا هو يستنجد ربّه أن يصرف عنه محاولاتهنَّ لإيقاعه في حبائلهنَّ، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه. ويدعو الله أن ينقذه منه:

﴿وإلَّا تصرف عنِّي كيدهنَّ أصبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين﴾ [يوسف: ٣٣]. .

وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته الذي لا يغترّ بعصمته؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء.

﴿فاستجاب له ربه فَصَرف عنه كيدهنَّ، إنَّه هو السميع العليم﴾ [يوسف: ٣٤]. .

وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهنَّ من استجابته لهنَّ، بعد هذه التجربة؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحسّ في نفسه أثراً منه. أو بهما جميعاً. ﴿إنَّه هو السميع العليم﴾ الذي يسمع ويعلم، يسمع

الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء.

وهكذا اجتاز يوسف محنته الثَّانية، بلطف الله ورعايته. **وانتهت بهذه النجاة الحلقة الثَّانية** من قصته المثيرة.

* * *

الحلقة الثالثة: المحنة الثالثة:

يوسف في السجن. دعوة وموعظة وتوحيد :

ثمَّ ها هي **الحلقة الثالثة والمحنة الثالثة** من مِحن الشدة في حياة يوسف؛ فكل مابعدها رخاء، وابتلاء لصبره على الرخاء، بعد ابتلاء صبره على الشدة. والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة. والسجن للبريء المظلوم أقسىٰ، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوىٰ. وفي فترة المحنة هذه تتجلىٰ نعمة الله على يوسف، بما وَهَبه من علم لَدنِّي بتعبير الرؤيا وبعض الغيب القريب الذي تبدو أوائله فيعرف تأويله. ثمَّ تتجلّىٰ نعمة الله عليه أخيراً بإعلان براءته الكاملة إعلاناً رسمياً بحضرة الملك، وظهور مواهبه التي تُؤهله لما هو مكنون له في عالم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة وسلطان عظيم.

﴿ثمَّ بدا لهم من بعد ما رأَوُا الآيات ليَسجُنَّنه حتّىٰ حين﴾ [يوسف: ٣٥].. فلن يسكت اللغط وفي المدينة نسوة..

وهكذا جوّ القصور، وجوّ الحكم المطلق، وجوّ الأوساط الأرستقراطية، وجوّ الجاهلية! فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف. وبعد أن بلغ التَبجُّح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهنَّ فتاها الذي شغفها حبا، ثمَّ تعلن لهنَّ أنَّها به مفتونة حقاً، ويفتتنَّ هنَّ به ويُغرينه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه منهنَّ وينقذه، والمرأة تعلن في مجتمع النساء ـ دون حياء ـ أنَّه إمَّا أن يفعل ما يُؤمر به، وإمَّا أن يلقىٰ السجن

والصَغار، فيختار السجن على ما يُؤمر بـه!. وبعد هـذا كله، بدا لهم أن يَسجنوه إلى حين!

ولعلَّ المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد؛ ولعلَّ الأمر كذلك قد زاد انتشاراً في طبقات الشعب الأُخرىٰ.. وهنا لا بد أن تحفظ سمعة «البيوتات»! وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهنَّ ونسائهنَّ، فإنَّهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتىً بريء كل جريمته أنَّه لم يَستجب، وأنَّ امرأة من «الوسط الراقي!» قد فُتنت بـه، وشهرت بحبـه، ولاكت الألسن حديثها في الأوساط الشعبية!

﴿**ودخل معه السجن فتيان**﴾ [يوسف: ٣٦].. سنعرف من بعد أنَّهما من خَدَم الملك الخواص..

ويختصر السياق ما كان من أمـر يوسف في السجن، ومـا ظهر من صلاحه وإحسانه، فَوَجَّه إليه الأنظار، وجعله موضع ثقة المساجين، وفيهم الكثيرون ممَّن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية، فغضب عليهم في نزوة عارضة، فأُلقي بهم في السجن.. يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف في السجن وإلى جواره فَتَيان أَنِسا إليه، فهما يَقُصَّان عليه رُؤيا رَأَيَاها. ويطلبان إليه تعبيرها، لما يتوسمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك:

﴿**قال أحدهما: إنِّي أراني أعصر خمـراً؛ وقال الآخـر: إنِّي أراني أحمـل فوق رأسي خُبـزاً تأكـل الطيـر منه. نبِّئنـا بتـأويله، إنَّـا نـراك من المُحسنين**﴾ [يوسف: ٣٦]..

وينتهز يوسف هذه الفرصـة ليبث بين السجناء عقيـدته الصحيحـة؛ فَكَوْنه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفـاسدة والأوضـاع الفاسـدة، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيـين، وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزاولون خصائص الربوبية، ويُصبحون فراعين!

ويبدأ يوسف مع صاحبي السجن من موضوعهما الذي يشغل بالهما، فَيُطَمْئِنُهُما ابتداء إلى أنَّه سيؤول لهم الرؤىٰ، لأنَّ ربه علمه علماً لَدُنياً خاصاً، جزاءً على تجرده لعبادته وحده، وتخلصه من عبادة الشركاء. هو وآباؤه من قبله.. وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأُولىٰ على تأويل رؤياهما، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه:

﴿قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاَّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما ممَّا علمني ربي. إنِّي تركت مِلَّة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون. واتَّبعت ملَّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء. ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولٰكنَّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨]..

ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس، وكياسته وتنقّله في الحديث في رفق لطيف.. وهي سمة هذه الشخصية البارزة في القصة بطولها.. فهو بهذا التوكيد الموحي بالثقة بأنَّ الرجل على علم لدني، يرىٰ به مقبل الرزق وينبِّىء بما يرىٰ.. وهذا ـ فوق دلالته على هبة الله لعبده الصالح يوسف ـ وهي كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤىٰ ـ وقوله: **﴿ذلكما ممَّا علَّمني ربِّي﴾** تجيء في اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ليدخل بها إلى قلبيهما بدعوته إلى ربِّه؛ وليعلل بها هذا العلم اللَّدني الذي سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه. **﴿إنِّي تركت ملَّة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون﴾**..

مشيراً بهذا إلى القوم الذين رُبِّي فيهم، وهم بيت العزيز وحاشية الملك والملأ من القوم والشعب الذي يتبعهم. والفَتَيان على دين القوم، ولكنه لا يُواجههما بشخصيتهما، إنَّما يواجه القوم عامة كي لا يُحرجهما ولا يُنفرهما ـ وهي كياسة وحكمة ولطافة حسّ وحسن مدخل.

وذكر الآخرة هنا في قول يوسف يقرر ـ كما قلنا من قبل ـ أنَّ الإيمان

بالآخرة كان عنصراً من عناصر العقيدة على لسان الرسل جميعاً، منذ فجر البشرية الأول، ولم يكن الأمر كما يزعم علماء الأديان المقارنة أن تصور الآخرة جاء إلى العقيدة ـ بجملتها ـ متأخراً.. لقد جاء إلى العقائد الوثنية الجاهلية متأخراً فعلاً، ولكنه كان عنصراً أصيلاً في الرسالات السماوية الصحيحة..

ثمَّ يمضي يوسف بعذ بيان معالم مِلّة الكفر ليبيِّن معالم مِلّة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه:

﴿واتَّبعت ملة آبائي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ فهي ملة التوحيد الخالص الذي لا يشرك بالله شيئاً قط.. والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين، وهو فضل في متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه وأرادوه. ففي فطرتهم أصوله وهواتفه، وفي الوجود من حولهم موحياته ودلائله، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره ولكنَّ الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه:

﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى النَّاس، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون﴾..

مدخل لطيف.. وخطوة خطوة في حَذَر ولين.. ثمَّ يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما، وفساد ذلك الواقع النَكِد الذي يعيشون فيه بعد ذلك التمهيد الطويل:

﴿يَا صاحبي السجن، أأرباب مُتفرقون خير؟ أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحُكم إلاَّ لله. أَمَر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه. ذلك الدّين القيِّم. ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٣٩ ـ ٤٠]..

لقد رسم يوسف ـ عليه السَّلام ـ بهذه الكلمات القليلة الناصعة

الحاسمة المنيرة، كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة. كما هزَّ بها كل قوائم الشرك والطاغوت هزاً شديداً عنيفاً. .

﴿يَا صاحبي السجن﴾ . . إنَّه يتَّخذ منهما صاحبين، ويتحبب إليهما هذه الصفة المُؤنسة، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة. وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة، إنَّما يعرضها قضية موضوعية:

﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهَّار؟﴾ . .

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً. . إنَّ الفطرة تعرف لها إلـهاً واحداً ففيم إذن تعدد الأرباب؟ . .

إنَّ الذي يستحق أن يكون رباً يُعبد ويُطاع أمره ويُتَّبع شرعه هو الله الواحد القهار. ومتىٰ تَوحَّد الإلـه وتقرر سلطانه القاهر في الوجود فيجب تبعاً لذلك أن يَتَوحَّد الربّ وسلطانه القاهر في حياة الناس.

وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أنَّ الله واحد، وأنَّه هو القاهر، ثمَّ يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره، ويتخذوا بذلك من دون الله رباً. . إنَّ الربّ لا بد أن يكون إلـهاً يملك أَمْر هـذا الكون ويُسيِّره. ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربّاً للناس يُقهرهم بحكمه، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره!

والله الواحد القهار خير أن يَدين العباد لربوبيته من أن يَدينوا للأرباب المُتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء المنظور القريب ـ كالشأن في كـل الأرباب إلاَّ الله ـ ومـا شقيت البشريـة قط شقاءهـا بتعدّد الأرباب وتفرقهم، وتـوزع العباد بين أهـوائهم وتنازعهم. . فهـذه الأرباب الأرضيـة التي تغتصب سلطان الله وربوبيتـه؛ أو يعطيهـا الجاهليـون هـذا السلطان تحت تأثير الوَهْم والخرافـة والأُسطورة، أو تحت تـأثير القهـر أو الخداع أو الدعاية! هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تَـتَخلَّص من

أهوائها، ومن حرصها على ذواتها وبقائها، ومن الرغبة المُلحّة في استبقاء سلطانها وتقويته، وفي تدمير كل القوىٰ والطاقات في تمجيدها والطّبل حولها والزّمر والنّفخ فيها كي لا تَذبل ولا تَنفثىء نفختها الخادعة! والله الواحد القهار في غنىً عن العالمين؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلاَّ التقوىٰ والصلاح والعمل والعمارة ـ وفق منهجه ـ فيعدّ لهم هذا كله عبادة.. وحتىٰ الشعائر التي يفرضها عليهم إنّما يريد بها إصلاح قلوبهم ومشاعرهم، لإصلاح حياتهم وواقعهم.. وإلاَّ فما أغناه ـ سبحانه ـ عن عباده أجمعين! **﴿يَا أَيُّها النـاس أنتم الفقـراء إلىٰ الله، والله هـو الغنيُّ الحميـد﴾**.. فَفَـرْق بين الدينونة لله الواحد القهار والدينونة للأرباب المتفرقة بعيد!

ثمّ يخطو يوسف ـ عليه السَّلام ـ خطوة أُخرىٰ في تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية:

﴿ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾..

إنَّ هذه الأرباب ـ سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوىٰ الكونية المسخرة بأمر الله ـ ليست من الربوبية في شيء، وليس لها من حقيقة الربوبية شيء. فالربوبية لا تكون إلاَّ لله الواحد القهار؛ الذي يَخلق ويَقهر كل العباد..

ولكنَّ البشر في الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون من عند أنفسهم أسماء، ويخلعون عليها صفات، ويعطونها خصائص؛ وفي أول هذه الخصائص خاصية الحكم والسلطان.. والله لم يجعل لها سلطاناً ولم ينزل بها من سلطان..

وهنا يضرب يوسف ـ عليه السَّلام ـ ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين: لمن ينبغي أن يكون السلطان! لمن ينبغي أن يكون له الحكم! لمن ينبغي أن تكون له الطاعة.. أو بمعنىٰ آخر لمن ينبغي أن تكون « العبادة »!

﴿إن الحكم إلاَّ لله . . أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه . ذلك الدين القيِّم . ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾ . .

إن الحكم لا يكون إلاَّ لله . فهو مقصور عليه ـ سبحانه ـ بحكم ألوهيته . إذ الحاكمية من خصائص الألوهية . من ادَّعىٰ الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولىٰ خصائص ألوهيته ؛ سواء ادّعىٰ هذا الحق فرد، أو طبقة، أو حزب، أو هيئة، أو أمة، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية . ومن نازع الله سبحانه أولىٰ خصائص ألوهيته فقد كَفَر بالله كفراً بواحاً، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة، حتى بحكم هذا النص وحده! وادّعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدّعي من دائرة الدين القيِّم، وتجعله منازعاً لله في أولىٰ خصائص ألوهيته ـ سبحانه ـ فليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من إلـه غيري ؛ أو يقول : أنا ربُّكم الأعلىٰ، كما قالها فرعون جهرة . ولكنه يدَّعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن يُنَحِّي شريعة الله عن الحاكمية ؛ ويستمد القوانين من مصدر آخر . وبمجرد أن يقرر أنَّ الجهة التي تملك الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات، جهة أخرىٰ غير الله ـ سبحانه ـ . ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية .

والأُمَّة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله ؛ ولكنَّها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته . إنَّما مصدر الحاكمية هو الله . وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنَّما يملكه الله وحده . والناس إنَّما يزاولون تطبيق ما شرَّعه الله بسلطانه، أمَّا ما لم يشرِّعه الله فلا سلطان له ولا شرعية، وما أنزل الله به من سلطان . .

ويوسف ـ عليه السَّلام ـ يعلِّل القول بأنَّ الحكم لله وحده . فيقول :

﴿أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه﴾ . .

ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلاَّ حين ندرك معنىٰ « العبادة » التي يخصّ بها الله وحده . .

إنَّ معنىٰ عَبَدَ في اللغة : دان ، وخضع ، وذلّ . . ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر . . إنَّما كان هو معناه اللغوي نفسه . . فعندما نزل هذا النص أول مرة لم يكن شيء من الشعائر قد فُرض حتى ينطلق اللفظ إليه . إنَّما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي . كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده . واتِّباع أمره وحده . سواء تعلّق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خصَّ الله ـ سبحانه ـ بها نفسه ؛ ولم يجعلها لأحد من خلقه . .

وحين نفهم معنىٰ العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف ـ عليه السَّلام ـ اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم . فالعبادة ـ أي الدينونة ـ لا تقوم ! إذا كان الحكم لغيره . . وسواء في هذا حكمه القَدَري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحقق به الدينونة .

ومرة أُخرىٰ نجد أنَّ منازعة الله الحكم تُخرج المنازِع من دين الله ـ حكماً معلوماً من الدين بالضرورة ـ لأنَّها تُخرجه من عبادة الله وحده . . وهذا هو الشرك الذي يُخرج أصحابه من دين الله قطعاً . وكذلك الذين يقرُّون المُنازع على ادّعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه . . فكلهم سواء في ميزان الله .

ويقرر يوسف ـ عليه السَّلام ـ أنَّ اختصاص الله ـ سبحانه ـ بالحكم ـ تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة ـ هو وحده الدين القيِّم : ﴿ذلك الدين القيِّم﴾ . .

وهو تعبير يفيد القَصْر. فلا دين قَيِّماً سوى هذا الدين، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم، تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة.. ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾.. وكونهم «لا يعلمون» لا يجعلهم على دين الله القيِّم. فالذي لا يعلم شيئاً لا يملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه.. فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين، لم يعد من الممكن عقلاً وواقعاً وصفهم بأنَّهم على هذا الدين! ولم يقم جهلهم عذراً لهم يُسبغ عليهم صفة الإسلام. ذلك أنَّ الجهل مانع للصفة ابتداء. فاعتقاد شيء فرع من العلم به.. وهذا منطق العقل والواقع.. بل منطق البداهة الواضح..

لقد رسم يوسف ـ عليه السَّلام ـ بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة؛ كما هزَّ بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً..

إنَّ الطاغوت لا يقوم في الأرض إلَّا مُدَّعياً أخصَّ خصائص الألوهية، وهي الربوبية. أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه، ودينونتهم لِفكره وقانونه. وهو إذ يزاول هذا في عالم الواقع يَدّعيه ـ ولو لم يقله بلسانه ـ فالعمل دليل أقوى من القول.

وإنَّ الطاغوت لا يقوم إلَّا في غيبة الدين القيِّم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس. فما يمكن أن يقوم وقد استقرَّ في اعتقاد الناس فعلاً أنَّ الحكم لله وحده، لأنَّ العبادة لا تكون إلَّا لله وحده، والخضوع للحكم عبادة. بل هي أصلاً مدلول العبادة.

وإلى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه، مرتبطاً في مطلعه بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن. ومن ثمَّ فهو يُؤوِّل لهما الرؤية في نهاية الدرس، ليزدهما ثقة في قوله كله وتعلقاً به:

﴿يَا صاحبي السجن، أمَّا أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأمَّا الآخر فيُصْلَب فتأكل الطير من رأسه﴾ [يوسف: ٤١].. ولم يعين مَن هو صاحب

البشرىٰ ومن هو صاحب المصير السيء تلطفاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء. ولكنه أكَّد لهما الأمر واثقاً من العلم الذي وهبه الله له:

﴿قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٤١]. . وانتهىٰ فهو كائن كما قضاه الله.

وأحب يوسف السجين البرىء، الذي أَمَر الملك بسجنه دون تحرٍّ ودون بحث، إلاَّ ما نقله إليه بعض حاشيته من وشاية لعلَّهم صَوَّروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة تصويراً مقلوباً، كما يقع عادة في مثل هذه الأوساط. . أحبَّ يوسف أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر:

﴿وقال للَّذي ظنَّ أنَّه ناجٍ منهما: اذكرني عند ربك﴾ [يوسف: ٤٢]. .

اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه، فهو بهذا ربّك.

فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمُشَرِّع. . وفي هذا توكيد لمعنىٰ الربوبية في المصطلح الإسلامي. وممَّا يلاحظ أنَّ ملوك الرعاة لم يكونوا يدّعون الربوبية قولاً كالفراعنة، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعنة. ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلاَّ الحاكمية وهي نص في معنىٰ الربوبية. .

وهنا يُسقط السياق أنَّ التأويل قد تحقق، وأنَّ الأمر قد قُضي على ما أَوَّله يوسف. ويترك هنا فجوة، نعرف منها أنَّ هذا كله قد كان. ولكن الذي ظنَّ يوسف أنَّه ناج فنجا فعلاً لم يُنفذ الوصية، ذلك أنَّه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف، ونسي ذِكْر ربه في زحمة حياة القصر ومُلهياتها وقد عاد إليها، فنسي يوسف وأَمْره كله. . ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾. . ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ [يوسف: ٤٢]. . والضمير الأخير في لبث عائد على يوسف. وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه

وحده، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عَبد ولا سبب يرتبط بعبد. وكان هذا من اصطفائه وإكرامه.

إنَّ عباد الله المُخْلَصين ينبغي أن يخلصوا له ـ سبحانه ـ، وأن يدعوا له وحده قيادهم، ويدعوا له ـ سبحانه ـ تنقيل خطاهم. وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك، يتفضل الله ـ سبحانه ـ فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضىً وحباً وشوقاً.. فيتمّ عليهم فضله بهذا كله.

* * *

رؤيا الملك:

والآن نحن في مجلس الملك، وقد رأىٰ رُؤيا أَهَمَّته، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات:

﴿وقال الملك: إنِّي أرىٰ سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف[1]، وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات. يَا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي، إن كنتم للرؤيا تعبرون[2]. قالوا: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٤]..

طلب الملك تأويل رؤياه. فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها، أو أَحسُّوا أنَّها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يُواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية في إظهار كل ما يُسرّ الحكام وإخفاء ما يُزعجهم. وصرف الحديث عنه! فقالوا: إنَّها «أضغاث أحلام» أي أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل **﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾**.. إذا كانت أضغاثاً مختلطة لا تشير إلى شيء!

---

(١) من العجف وهو ظهور العظام من الهزال.

(٢) تعبرون: أي تصلون إلى نهايتها وتذكرون مآلها.

والآن لقد مرّت بنا رؤىٰ ثلاث: رؤية يوسف، ورؤيا صاحبي السجن، ورؤيا الملك. وطلب تأويلها في كل مرة، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وخارج مصر ـ كما أسلفنا ـ وأنَّ الهبة اللَّدنية التي وُهِبَها يوسف كانت من روح العصر وَجَوّه، على ما نعهد في معجزات الأنبياء، فهل كانت هذه هي معجزة يوسف؟ ولكن هذا بحث ليس مكانه هذا الكتاب. فنكمل حديث رؤيا الملك الآن!

هنا تذكَّر أحد صاحبيه في السجن، الذي نجا منهما وأنساه الشيطان ذِكْر ربه، وذكر يوسف في دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب.

هنا تذكر الرجل الذي أوَّلَ له رؤياه ورؤيا صاحبه، فتحقق التأويل:

﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أُمّة[1]: أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾! [يوسف: ٤٥]..

* * *

فتوىٰ وتأويل الرؤيا :

أنا أُنبئكم بتأويله فأرسلون.. ويسدل الستار هنا، ليرفع في السجن على يوسف وصاحبه هذا يستفتيه:

﴿يوسف ـ أيُّها الصدِّيق ـ أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر، وأُخَرَ يابسات، لعلِّي أرجع إلىٰ النَّاس لعلَّهم يعلمون﴾ [يوسف: ٤٦]..

والساقي يُلَقّب يوسف بالصدِّيق، أي الصادق الكثير الصدق. وهذا ما جَرَّبه في شأنه من قبل..

---

(١) بعد أُمة من السنين أو الأوقات: أي مجموعة. والمقصود عدد من السنين هي بضع سنين ما بين ثلاث وتسع.

ونقل ألفاظ الملك التي قالها كاملة، لأنَّه يطلب تأويلها، فكان دقيقاً في نقلها، وأثبتها السياق مرة أخرىٰ لِيُبَيِّن هذه الدقة أولاً، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها.

ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المُجرَّد، إنَّما هو التأويل والنُصح بمواجهة عواقبه. وهذا أكمل:

﴿**قال: تزرعون سبع سنين دأباً**﴾.. أي.. متوالية متتابعة. وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان.

﴿**فما حصدتم فذروه في سنبله**﴾.. أي فاتركوه في سنابله لأنَّ هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية.

﴿**إلاَّ قليلاً ممَّا تأكلون**﴾ [يوسف: ٤٧].. فجردوه من سنابله، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأُخرىٰ المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف.

﴿**ثمَّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد**﴾.. لا زرع فيهنَّ.. ﴿**يأكلن ما قدَّمتم لهنَّ**﴾.. وكأنَّ هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يُقَدَّم لها لشدة نَهمها وجوعها!

﴿**إلاَّ قليلاً ممَّا تحصنون**﴾ [يوسف: ٤٨].. أي إلاَّ قليلاً ممَّا تحفظونه وتصونونه من التهامها!

﴿**ثمَّ يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون**﴾ [يوسف: ٤٩]..

أي ثمَّ تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المُجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادَّخرتم من سنوات الخصب. تنقضي ويعقبها عام رخاء، يُغاث الناس فيه بالزرع والماء، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً، وسمسمهم وخسّهم وزيتونهم فيعصرونه زيتاً.

وهنا نلحظ أنَّ هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك؛ فهو إذن

من العلم اللُّدني الذي عَلَّمه الله يوسف. فَبَشَّر به الساقي لُيَبَشِّر الملك والناس، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخيّ رغيد.

الحلقة الرَّابعة:

إعلان براءة يوسف وظهور الحق:

وهنا كذلك ينتقل السياق إلى المشهد التالي. تاركاً فجوة بين المشهدين يكمل التصوير ما تمَّ فيها من حركة. ويرفع الستار مرة أُخرىٰ على مَجلس الملك. ويحذف السياق ما نقله الساقي من تأويل الرؤيا، وما تحدث به عن يوسف الذي أوَّلها. وعن سجنه وأسبابه والحال التي هو فيها.. كل أولئك يحذفه السياق من المشهد، لنسمع نتيجته من رغبة الملك في رؤيا يوسف، وأمره أن يأتوه به: ﴿**وقال الملك: ائتوني به**﴾ [يوسف: ٥٠]..

ومرة ثالثة في المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية في تنفيذ الأمر. ولكنا نجد يوسف يرد على رسول الملك الذي لا نعرف: إن كان هو الساقي الذي جاءه أول مرة. أو رسولاً تنفيذياً مُكلفاً بمثل هذا الشأن.. نجد يوسف السجين الذي طال عليه السجن لا يستعجل الخروج(١) حتى تُحقّق قضيته،

---

(١) عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «... لو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبتُ الداعي». [أخرجه البخاري ومسلم وابن حبان. انظر تخريجه في الإحسان رقم ٦٢٠٨]..
قال أبو سليمان الخطابي فيما نقله عنه البغوي في «شرح السنة» ١/١١٦ - ١١٧: «وصف [النبيُّ] يوسفَ بالأناة والصبر حيث لم يبادر إلى الخروج حين جاءه رسول الملك فِعْلَ المذنب يُعفىٰ عنه مع طول لبثه في السجن، بل قال: ﴿**ارجع إلىٰ ربِّك فَاسْأَلْهُ ما بال النسوة اللاتي قطَّعن أيديهنَّ**﴾ [يوسف: ٥٠]..
أراد أن يقيم عليهم الحجة في حبسهم إيَّاه ظلماً، وقال النَّبيّ ﷺ ذلك على سبيل التواضع، لأنَّه كان في الأمر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف، والتواضع لا يُصغر كبيراً، ولا يضع رفيعاً، ولا يبطل لذي حق حقاً، ولكنه يوجب لصاحبه فضلاً، ويكسبه جلالاً وقدراً».
وعن أبي هريرة قال: قيلَ: يا رسولَ الله: مَن أكرمُ الناس؟ قال: «أتقاهم». قالوا: ليس عن =

ويتبين الحق واضحاً في موقفه، وتُعلن براءته ـ على الأشهاد ـ من الوشايات والدسائس والغمز في الظلام.. لقد ربَّاه ربه وأدَّبه، ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة. فلم يعد مُعَجّلاً ولا عَجولاً!

إنَّ أثر التربية الربانية شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين: الموقف الذي يقول يوسف فيه للفَتَىٰ: اذكرني عند ربك، والموقف الذي يقول له فيه: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ، والفارق بين الموقفين بعيد..

وهنا يظهر الرجل الحصيف. لقد دخل السجن ظُلماً، وإنَّ حوله لَلَغْطاً، وإنَّه لن يأمن إذا خرج أن يُردّ إلى السجن كما دخل إليه أول مرة فهو ينتهز الفرصة المناسبة للحصول على الضمان والبراءة:

﴿قال: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ؟ إنَّ ربِّي بكيدهنَّ عليم﴾ [يوسف: ٥٠]..

لقد ردَّ يوسف أَمْر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أَمْره، وحتى يتحقّق من شأن النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ.. بهذا القيد.. تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهنَّ لبعض فيها، وكيدهنَّ له بعدها.. وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون أن يتدخل هو في

= هذا نسألك. قال: «فيوسف نبي الله بن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا». [أخرجه البخاري ومسلم]..

قال النووي في «شرح مسلم»: قال العلماء: وأصل الكرم كثرة الخير. وقد جمع يوسف ﷺ مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النَّسب وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله ﷺ. وانضمَّ إليه شرف علم الرؤيا وتمكّنه فيه ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم وإنقاذهم من تلك السنين والله أعلم»..

مناقشتها. كل أولئك لأنَّه واثق من نفسه، واثق من براءته، مطمئن إلى أنَّ الحق لا يخفىٰ طويلاً، ولا يخذل طويلاً.

ولقد حكىٰ القرآن عن يوسف استعمال كلمة «ربّ» بمدلولها الكامل، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه. فالملك ربّ هذا الرسول لأنَّه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه. والله ربّ يوسف لأنَّه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه.

ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك النسوة يستجوبهنَّ ـ والسياق يحذف هذا لنعلمه ممَّا يليه ـ:

﴿قال: ما خطبكنَّ إذ راودتُنَّ يوسف عن نفسه؟﴾ [يوسف: ٥١]. . والخطب: الأمر الجَلَل والمصاب. فكأنَّ الملك كان قد استقصىٰ فَعَلِمَ أمرهنَّ قبل أن يُواجههنَّ، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال، ليكون الملك على بيِّنة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه. فهو يُواجههنَّ مُقرِّراً الاتهام، ومشيراً إلى أمر لهنَّ جَلَل أو شأن لهنَّ خطير:

﴿ما خطبكنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه؟﴾. .

ومن هذا نعلم شيئاً ممَّا دار في حفل الاستقبال في بيت الوزير، ما قالته النسوة ليوسف وما لمَّحن به وأشرن إليه، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة. ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ. فالجاهلية دائماً هي الجاهلية. إنَّه حيثما كان الترف، وكانت القصور والحاشية، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية!

وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك، يبدو أنَّه لم يكن هنالك مجال للإنكار:

﴿قلن: حاشَ لله! ما علمنا عليه من سوء﴾! وهي الحقيقة التي

يصعب إنكارها. ولو من مثل هؤلاء النسوة. فقد كان أمر يـوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال. وهنا تـتقـدم المرأة المحبـة ليوسف، التي يئست منه، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها بـه.. تـتقدم لتقول كل شيء في صراحة:

﴿قالت امرأة العزيز: الآن حَصْحَص الحق. أنا راودته عن نفسه. وإنَّه لمن الصَّادقين﴾ [يوسف: ٥١].. الآن حصحص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لا يحتمل الخفـاء: **﴿أنا راودتـه عن نفسه وإنّـه لمن الصادقين﴾** [يوسف: ٥١]..

وزادت ما يكشف عن أنَّ قلبها لم يخل من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد؛ وما يَشي كذلك بأنَّ عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن:

﴿ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ [يوسف: ٥٢]..

وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر. كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفُّع وتجمل في التعبير:

﴿أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصَّادقين﴾..

شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصِدْقه. لا تُبالي المرأة ما وراءها ممَّا يلمّ بها هي ويلحق بأردانها. فهل هو الحق وحده الذي يدفعهـا لهذا الإقـرار الصريح في حضرة المَلك والملأ؟ يشي السياق بحافز آخر، هو حرصهـا على أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنتها الجسدية. أن يحترمها تقديراً لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته:

﴿ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب﴾..

والظاهر أنها قد أسنَّت. . إذ يُرجح أنَّها فعلت فعلتها وهي في الأربعين أو فوقها، فهي فعلة امرأة مكتملة في نهاية المرحلة؛ فإذا أضفنا إلى سنها «بضع سنين» كانت في الخمسين أو قرب الخمسين. . فلا ضير حينئذٍ من كشف الماضي الدفين. .

ثمَّ تمضي في هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التي يُحبها يوسف ويقدرها:

﴿وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين﴾. .

وتمضي خطوة أُخرىٰ في هذه المشاعر الطيبة:

﴿وما أُبرِّىءُ نفسي، إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء إلَّا ما رحم ربِّي، إنَّ ربِّي غفور رحيم﴾ [يوسف: ٥٣]. .

إنَّها امرأة أَحَبَّت. امرأة تكبر الرجل الذي تعلقت به في جاهليتها وإسلامها، فهي لا تملك إلَّا أن تظل مُعلّقة بكلمة منه، أو خاطرة ارتياح تحسّ أنَّها صدرت عنه!

وهكذا يتجلى العنصر الإنساني في القصة، التي لم تسق لمجرد الفن، إنَّما سيقت للعبرة والعظة. وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة. ويرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقاً رفيقاً شفيفاً. في واقعة كاملة تتناسق فيها جميع المُؤثّرات وجميع الواقعيات في مثل هذه النفوس، في ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة كذلك.

وإلى هنا تنتهي محنة السجن ومحنة الاتهام، وتسير الحياة بيوسف رخاء، الاختبار فيها بالنعمة لا بالشدة. . حيث تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة الشخصية الأساسية في القصة ـ شخصية يوسف ـ عليه السَّلام ـ ومع امتداد هذه الشخصية واستقامتها على المقوّمات الأساسية لها، فإنَّنا نجد في هذه المرحلة الجديدة ملامح جديدة تبرز ـ هي امتداد طبيعي واقعي لنشأة

الشخصية وللمرحلة السابقة من حياتها ولكنها مع ذلك ذات طابع مُمَيّز. . نجد شخصية يوسف ـ عليه السَّلام ـ وقد استقامت مع نشأتها والأحداث التي مرَّت بها، والابتلاءات التي اجتازتها، في ظل التربية الربانية للعبد الصالح، الذي يُعدّ ليمكن له في الأرض، وليقوم بالدعوة إلى دين الله وهو مُمَكَّن له في الأرض، وهو قابض على مقاليد الأمور في مركز التموين في الشرق الأوسط! وأول ملامح هذه المرحلة هذا الاعتزاز بالله، والاطمئنان إليه، والثقة به، والتجرد له، والتعري، من كل قيم الأرض، والتحرر من كل أوهاقها، واستصغار شأن القوىٰ المتحكمة فيها، وهوان تلك القيم وهذه القوىٰ في النفس الموصولة الأسباب بالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ!

تبدو هذه الظاهرة الواضحة في موقف يوسف، ورسول الملك يجيء إليه في سجنه يبلغه رغبة الملك في أن يراه. . فلا يَخفّ يوسف ـ عليه السَّلام ـ لطلب الملك؛ ولا يتلهف على مغادرة سجنه الظالم المظلم إلى رحاب الملك الذي يرغب في لقائه؛ ولا تَستَخِفّه الفرحة بالخروج من هذا الضيق. ولا تتجلّىٰ هذه الظاهرة ـ وما وراءها من التغيرات العميقة في الموازين والقيم والمشاعر في نفس يوسف الصدِّيق، إلاَّ حين نعود القهقرىٰ بضع سنين، لنجد يوسف يوصي ساقي الملك ـ وهو يظن أنَّه ناج ـ أن يَذكره عند ربه.

إنَّه الإيمان هو الإيمان، ولكن هذه هي الطمأنينة. الطمأنينة التي تنسكب في القلب وهو يلابس قَدَر الله في جريانه. . وهو يرىٰ كيف يتحقق هذا القَدَر أمام عينيه فعلاً. . الطمأنينة التي كان يطلبها جدّه إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ، وهو يقول لربه:

﴿ربِّ أرني كيف تحيي الموتىٰ﴾ فيسأله ربه ـ وربه يعلم ـ: **﴿أوَلَم تؤمن؟﴾** فيقول وربه يعلم حقيقة ما يشعر وما يقول ـ: **﴿بلىٰ! ولكن ليطمئنَّ قلبي﴾** [البقرة: ٢٦٠]. .

إنَّها هي هي الطمأنينة التي تسكبها التربية الربانية في قلوب الصفوة المختارة، بالابتلاء والمعاناة، والرؤيا والمشاهدة، والمعرفة والتذوق. . ثمَّ الثقة والسكينة. . وهذه هي الظاهرة الواضحة في كل مواقف يوسف من بعد، حتى يكون الموقف الأخير في نجائه مع ربه، مُنخلعاً من كل شيء تهفو له النفوس في هذه الأرض.

نمضي مع قصة يوسف، في حلقة جديدة من حلقاتها ـ الحلقة الرابعة ـ فقد رأينا آخر فقرة في المشهد السابق. مشهد الملك يستجوب النسوة اللَّاتي قطَّعن أيديهنَّ ـ كما رغب إليه يوسف أن يفعل ـ تمحيصاً لتلك المكايد التي أدخلته السجن. وإعلاناً لبراءته على الملأ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة في حياته؛ وهو يبدؤها واثقاً مطمئناً، في نفسه سكينة وفي قلبه طمأنينة وقد أحسَّ أنَّها ستكون مرحلة ظهور في حياة الدولة، وفي حياة الدعوة كذلك. فيحسن أن يبدأها وكل ما حوله واضح، ولا شيء من غبار الماضي يلاحقه وهو بريء. .

ومع أنَّه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئاً، ولم يُشِر إليها على وجه التخصيص، إنَّما رَغِبَ إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللَّاتي قطَّعن أيديهنَّ، فإنَّ امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة: ﴿**الآن حصحص الحق. أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصادقين**﴾ [يوسف: ٥١]. . وقد بدت المرأة مؤمنة مُتحرجة كما تقدم. . ثمَّ تعلن ما يدل على إيمانها بالله ـ ولعلَّ ذلك كان اتباعاً ليوسف ـ ﴿**إنَّ ربِّي غفور رحيم**﴾ [يوسف: ٥٢]. .

وبذلك يسدل الستار على ماضي الآلام في حياة يوسف الصدِّيق. وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين. .

* * *

تمكين وتكريم :

لقد تبيَّنت للملك براءة يوسف، وتبيَّن له معها عِلْمه في تفسير الرؤيا، وحكمته في طلب تمحيص أَمْر النسوة، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن، ولا يتهافت على لقاء الملك. وأي ملك؟ ملك مصر! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المُتّهم في سمعته، المسجون ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بَدَنه؛ ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يُمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك. .

كل أُولئك أَوْقَع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه:

﴿**وقال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي**﴾ [يوسف: ٥٤]. .

فهو لا يأتي من السجنِ لِيُطلق سراحه؛ ولا ليرىٰ هـذا الذي يُفَسِّر الرؤىٰ؛ ولا ليسمعه كلمة «الرضاء الملكي السامي!» فيطير بها فرحاً. . كلا! إنَّما يطلبه ليستخلصه لنفسه، ويجعله بمكان المستشار والنَّجي والصديق. .

فيا ليت رِجالاً يُمرّغون كرامتهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء مُطْلَقُوا السراح ـ فيضعوا النّير في أعناقهم بأيديهم؛ ويتهافتوا على نظرة رضىٰ وكلمة ثناء، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء. . يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصة يوسف، ليعرفوا أنَّ الكرامة والإباء والاعتزاز تدرّ من الربح ـ حتى المادي ـ أضعاف ما يدرّه التمرغ والتزلف والانحناء!

﴿**وقال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي**﴾. .

ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك. . ﴿**فلمَّا كلمه قال: إنَّك اليوم لدينا مكين أمين**﴾ [يوسف: ٥٤]. .

فلمَّا كلَّمه تحقق له صدق ما توسّمه. فإذا هو يُطمئنه على أنَّه عند

الملك ذو مكانة وفي أمان. فليس هو الفتىٰ العبراني الموسوم بالعبودية.. إنَّما هو مَكين. وليس هو المُتَّهم المُهَدّد بالسجن. إنَّما هـو أمين. وتلك المكانة وهذا الأمان لدىٰ الملك وفي حِماه. فماذا قال يوسف؟

إنَّه لم يسجد شكراً كما يسجد رجال الحاشية المُتَملّقون للطواغيت. ولم يقل له: عِشتَ يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين، كما يقول المُتَملِّقون للطواغيت! كلا إنَّما طالب بما يعتقد أنَّه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوَّل بها رؤيا الملك، خيراً ممَّا ينهض بها أحد في البلاد، وبما يعتقد سيصون به أرواحاً من المـوت وبلاداً من الخراب، ومُجتمعاً من الفتنة ـ فتنة الجوع ـ فكان قوياً في إدراكه لحاجـة الموقف إلى خِبرته وكفايته وأمانته، قوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه:

﴿قال: اجعلني على خزائن الأرض. إنِّي حفيظ عليم﴾ [يـوسف: ٥٥]..

والأزمـة القادمـة وسني الرخـاء التي تسبقها في حـاجـة إلى الحفظ والصيـانة والقـدرة على إدارة الأمور بـالدقَّـة وضبط الزراعـة والمحاصيـل وصيانتها. وفي حـاجة إلى الخبـرة وحسن التصرف والعلم بكـافة فـروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجدب على السواء. ومن ثَمَّ ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرىٰ أنَّه أقدر عليها، وأنَّ وراءهـا خيراً كبيـراً لشعب مصـر وللشعـوب المجـاورة: ﴿إنِّي حفيظ عليم﴾..

ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرىٰ إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خـزائن الأرض.. إنَّما كـان حصيفاً في اختيـار اللحظة التي يُستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة؛ وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تُجاوره طوال سبع سنوات، لا زَرع فيه ولا ضرع. فليس هذا غَنَماً يطلبه يوسف

لنفسه. فإنَّ التَكَفُّل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنَّه غنيمة. إنَّما هي تبعة يهرب منها الرجال، لأنَّها قد تُكلّفهم رؤوسهم، والجوع كافر، وقد تُمزّق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون.

شُبهة... وبيان:

وهنا تعرض شُبهة... أليس في قول يوسف ـ عليه السَّلام ـ: **﴿اجعلني علىٰ خزائن الأرض، إنّي حفيظ عليم﴾**.. أمران محظوران في النظام الإسلامي:

أولهما: طلب التولية، وهو محظور بنص قول الرسول ﷺ: «إنَّا والله لا نُولّي هذا العمل أحداً سأله (أو حرص عليه)».. متفق عليه.

وثانيهما: تزكية النفس، وهي محظورة بقوله تعالىٰ: **﴿فلا تُزَكُّوا أنفسكم﴾** [النجم: ٣٢]..

ولا نريد أن نجيب بأنَّ هذه القواعد إنَّما تقررت في النظام الإسلامي الذي تقرر على عهد محمَّد رسول الله ﷺ وأنَّها لم تكن مُقررة على أيام يوسف ـ عليه السَّلام ـ والمسائل التنظيمية في هذا الدين ليست مُوحّدة كأصول العقيدة، الثابتة في كل رسالة وعلى يد كل رسول..

لا نريد أن نجيب بهذا، وإن كان له وَجْه، لأنَّنا نرىٰ أنَّ الأمر في هذه المسألة أبعد أعماقاً، وأوسع آفاقاً من أن يرتكن إلى هذا الوجه؛ وأنَّه إنَّما يرتكن إلى اعتبارات أُخرىٰ لا بد من إدراكها، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص، ولإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة في كيانها، والتي خمدت وجمدت في عقول الفقهاء وفي عقلية الفقه كلها في قرون الخمود والركود!

إنَّ الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ، كما أنَّه لا يعيش ولا يُفهم في

فراغ! . . لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية. كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم؛ إنّما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي . .

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة؛ كما أنّهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي. وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية.

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة، دون إدراك لهاتين الحقيقتين؛ ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام، ودون استحضار لطبيعة الجوّ والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تُلَبّيها وتُوجهها؛ وكانت تلك الأحكام تُصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها . . الذين يفعلون ذلك؛ ويُحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنّها نَشأت في فراغ؛ وكأنّها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ . . هؤلاء ليسوا « فقهاء »! وليس لهم « فقه » بطبيعة الفقه! وبطبيعة هذا الدين أصلاً!

إنّ «فقه الحركة» يختلف اختلافاً أسياسياً عن «فقه الأوراق» مع استمداده أصلاً وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها «فقه الأوراق»!

إنّ فقه الحركة يأخذ في اعتباره « الواقع » الذي نزلت فيه النصوص، وصيغت فيه الأحكام. ويرىٰ أنّ ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركباً لا تنفصل عناصره. فإذا انفصلت عناصر هذا المُرَكَّب فَقَد طبيعته، واختلّ تركيبه!

ومن ثمّ فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته، يعيش في

فراغ، لا تتمثل فيه عناصرَ الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولىٰ فيها. . إنَّه لم ينشأ في فراغ ومن ثمَّ لا يستطيع أن يعيش في فراغ!

ونأخذ مثالاً لهذا التقرير العام هذا الحكم الإسلامي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب. وهو المأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿فلا تزكُّوا أنفسكم﴾. . ومن قول رسول الله ﷺ: «إنَّا والله لا نُوَلِّي هذا العمل أحداً سأله». .

لقد نشأ هذا الحكم ـ كما نزلت تلك النصوص ـ في مجتمع مسلم؛ ليطبق في هذا المجتمع؛ وليعيش في هذا الوسط؛ وليلبّي حاجة ذلك المجتمع. وفق نشأته التاريخية، ووفق تركيبه العضوي، ووفق واقعه الذاتي. فهو من ثمَّ حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي. .

وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي. وهو من ثمَّ لا يطبق ولا يصلح ولا يُنشيء آثاره الصحيحة إلاَّ إذا طُبق في مجتمع إسلامي. . إسلامي في نشأته، وفي تركيبه العضوي، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة. . وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقوّمات كلها يعتبر «فراغاً» بالقياس إلى ذلك الحكم، لا يملك أن يعيش فيه، ولا يُصلحه له، ولا يصلح كذلك!. .

ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي. وإن كنَّا في هذا المقام لا نفصل إلاَّ هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني. .

ونريد أن نفهم لماذا لا يُزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم، ولا يُرشحون أنفسهم للوظائف، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورىٰ أو للإمامة أو للإمارة. .

إنَّ الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقّيتهم. كما أنَّ المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يُغري أحداً بالتزاحم عليه ـ اللَّهمَّ إلاَّ ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب

وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالىٰ ـ ومن ثمَّ لا يسأل المناصب والوظائف إلَّا المُتَهافتون عليها لحاجة في نفوسهم. وهؤلاء يجب أن يُمنعوها!

ولكن هذه الحقيقة لا تُفهم إلَّا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم، وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضاً..

إنَّ الحركة هي العنصر المكوِّن لذلك المجتمع. فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية..

أوَّلاً: تجيء العقيدة من مصدرها الإلـٰهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله ـ على عهد النبوات ـ أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بَلَّغه رسوله ـ على مدار الزمان بعد ذلك ـ فيستجيب للدعوة ناس؛ يتعرضون للأذىٰ والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة. فمنهم من يُفتَن ويَرتدّ، ومنهم من يُصدِّق ما عاهد الله عليه فيقضي نَحبه شهيداً. ومنهم مَن ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق..

هؤلاء يفتح الله عليهم، ويجعل منهم ستاراً لقَدَره، ويُمكِّن لهم في الأرض تحقيقاً لوعده بنصر من ينصره، والتمكين في الأرض له، ليقيم مَملكة الله في الأرض ـ أي لينفذ حكم الله في الأرض ـ ليس له من هذا النصر والتمكين شيء؛ إنَّما هو نصر لدين الله، وتمكين لربوبية الله في العباد. وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة، ولا عند حدود جنس معين؛ ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوِّم واحد من تلك المقوِّمات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! إنَّما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا «الإنسان».. كل الإنسان: في «الأرض».. كل الأرض.. من العبودية لغير الله؛ وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيّاً كانت هذه الطواغيت[1].

---

(١) يراجع فصل «الجهاد في سبيل الله» في كتاب: «معالم في الطريق» وفي كتاب «طريق الدعوة في ظلال القرآن» ـ الجزء الأوَّل ـ.

وفي أثناء الحركة بهذا الدين ـ وقد لاحظنا أنَّها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم ـ تتميز أقدار الناس، وتتحدد مقاماتهم في المجتمع، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين، وقيم إيمانية، الجميع يتعارفون عليها، من البلاء في الجهاد، والتقوىٰ والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة.. وكلها قِيَم يحكم عليها الواقع، وتُبرزها الحركة، ويعرفها المجتمع ويَعرف المُتَّسمين بها.. ومن ثمَّ لا يحتاج أصحابها أن يزكُّوا أنفسهم، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورىٰ والتوجيه على أساس هذه التزكية..

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة، وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية ـ كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثمَّ الأنصار. وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل ـ ثمَّ ظلَّ يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام.. في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضاً، ولا ينكر الناس فضائل المُتميزين ـ مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحياناً فغلبتهم الأطماع ـ وعندئذٍ تنتفي الحاجة ـ من جانب آخر ـ إلى أن يزكِّي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورىٰ والتوجيه على أساس هذه التزكية.

ولقد يُخيل للناس الآن أنَّ هذه خاصية مُتفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية! ولكنهم ينسون أنَّ أي مجتمع مسلم لن يوجد إلاَّ بمثل هذه النشأة.. لن يوجد اليوم أو غداً، إلاَّ أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها.. وهذه نقطة البدء.. ثمَّ تعقبها الفتنة والابتلاء ـ كما حدث أوَّل مرة ـ فأمَّا ناس فَيُفْتَنون ويَرتدُّون! وأمَّا ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء. وأمَّا ناس فيصبرون ويُصابرون ويُصرُّون على الإسلام،

ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يُلقىٰ في النار؛ حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق، ويُمكّن لهم في الأرض ـ كما مكّن للمسلمين أول مرة ـ فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي . . ويومئذٍ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية، وفق الموازين والقيم الإيمانية. . ويومئذٍ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها، لأنَّ مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويُزكيهم ويُرشحهم!

ولقد يقال بعد هذا: ولكن هذا يكون في المرحلة الأُولىٰ. فإذا استقرَّ المجتمع بعد ذلك؟ وهذا سؤال مَن لا يعرف طبيعة هذا الدين!

إنَّ هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكفّ عن الحركة. . يتحرك لتحرير « الإنسان ». كل الإنسان. . في « الأرض ». . كل الأرض. . من العبودية لغير الله؛ وليرفعه عن العبودية للطواغيت، بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مُقوّم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة!

وإذن فستظل الحركة ـ التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة ـ تُميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب؛ ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن ـ إلاَّ أن ينحرف عن الإسلام ـ وسيظل الحكم الفقهي ـ الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية ـ قائماً وعاملاً في محيطه الملائم. . ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه.

ثمَّ يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضا؛ ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية!

وهذا القول كذلك وَهْم ناشىء من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة. .

إنَّ المجتمع المسلم يكون أهل كل مَحلّة فيه مُتعارفين متواصلين

متكافلين ـ كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه، والالتزام في المجتمع المسلم ـ ومن ثمَّ يكون أهل كل محلّة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم؛ موزونةً هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية، فلا يعزّ عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوىٰ والكفاية. . سواء لمجلس الشورىٰ أو للشؤون المحلية. أمَّا الإمارات العامة فيختار لها الإمام ـ الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد ـ أو أهل الشورىٰ ـ له. . يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين مَيَّزَتهم الحركة. والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم، والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

إنَّ الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته ـ أو يكتبون ـ يدخلون في متاهة! ذلك أنَّهم يُحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم، بتركيبه العضوي الحاضر!

وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر ـ يُعتبر بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية ـ فراغاً لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تُطَبّق فيه هذه الأحكام. . إنَّ تركيبه العضوي مناقض تماماً للتركيب العضوي للمجتمع المسلم. فالمجتمع المسلم ـ كما قلنا ـ يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما تُرتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع، ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام. مع تحمل ضغوط الجاهلية وما تُوجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف.

أمَّا المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام، ولا بالقيم الإيمانية. . وهو ـ من ثمَّ ـ يُعدّ بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغاً لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام!

هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حلّ لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم ـ أول ما يُحيرهم ـ طريقة اختيار أهل الحل والعقد ـ أو أهل الشورىٰ ـ من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية! كيف يُمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضاً ولا يَزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة! كذلك تُحيرهم طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحلّ والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد ـ متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها ـ فكيف يعودون هم فيختارون الإمام؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم؟ ثمّ إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثمّ ألا يجعله هذا يختار أشخاصاً يضمن ولاءهم له، ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتباره؟..

وأسئلة أُخرىٰ كثيرة لا يجدون لها جواباً في هذه المتاهة!

نحن نعرف نقطة البدء في هذه المتاهة.. إنّها هي افتراض أنّ هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم؛ وأنّ قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سَيُجاء بها لِتُطَبّق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر، وبِقيمه وأخلاقه الحاضرة!

هذه نقطة البدء في المتاهة.. ومتى بدأ منها الباحث فإنّه يبدأ في فراغ، ويوغل في هذا الفراغ، حتى يبعد في التيه، وحتى يأخذه الدوار!

إنّ هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم، ومن ثمّ لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام.. لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أنّ قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ؛ لأنّها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ، ولم تتحرك في فراغ كذلك!

إنّ المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب

العضـوي للمجتمع الجـاهلي . . ينشأ من مجمـوعات وأشخـاص وفئـات جاهدت ـ في وجه الجاهلية ـ لإنشائه ؛ وتحدّدت أقدارها وتميزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة .

إنَّه مجتمع جديد . . ومجتمع وليد . . ومجتمع متحرك دائماً في طريقه لتحرير « الإنسان » . . كل الإنسان . . في « الأرض » . . كل الأرض من العبودية لغير الله ، ولرفع هذا الإنسان عن ذلّة العبودية للطواغيت . . أياً كانت هذه الطواغيت . .

ومثل قضية التـزكية وطلب الإمـارة ، واختيار الإمـام ، واختيار أهـل الشورىٰ . . وما إليها . . قضايا كثيرة تُثار ، ويطرقها الباحثون في الإسلام . . في الفراغ . . في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه . . بتركيبه العضوي المختلف تماماً عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم . . وبِقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصـوراته المختلفـة تمامـاً عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته . .

أعمال البنوك وأساسها الربوي . . شركات التأمين وقاعدتها الربوية . . تحديد النسل وما أدري ماذا؟! إلى آخر هـذه « المشكلات » التي يشغـل « الباحثون » بها أنفسهم أو يجيبون فيها عن استفتاءات تُوجَّه إليهم . .

إنَّهم جميعاً ـ مع الأسف ـ يبدأون من نقطة البدء في المتاهة! يبدأون من افتراض أنَّ قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سَيُجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضـرة بتركيبهـا العضوي الحـاضر؛ فتنتقـل هذه المجتمعات إذن ـ متى طبقت عليها أحكام الإسلام ـ إلى الإسـلام! وهي تصورات مُضحكة لولا أنَّها مُحزنة!

الحقيقة إنَّ الفقه الإسلامي بكل أحكامه ليس هو الذي أنشأ المجتمع المسلم . إنَّما المجتمع المسلم بحركته ـ في مواجهة الجاهلية ابتداء ـ ثمَّ بحركته في مواجهة حاجة الحياة ثانياً ، هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي مستمداً

من أُصول الشريعة الكلية . . والعكس لا يمكن أن يكون أصلاً!

إنَّ الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ، ولا يعيش في فراغ كذلك. . لا ينشأ في الأدمغة والأوراق؛ إنَّما ينشأ في واقع الحياة. وليست أية حياة. . إنَّما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد. . ومن ثَمَّ لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولاً بتركيبه العضوي الطبيعي؛ فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويُطبق. . وعندئذٍ تختلف الأُمور جداً. .

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص ـ بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة ـ إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل. . إلخ وقد لا يحتاج! ذلك أنَّنا لا نملك سلفاً أن نُقدر أصل حاجته، ولا حجمها، ولا شكلها، حتى نشرّع لها سلفاً! كما أنَّ ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يُطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يُلبيها. . ذلك أنَّ هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضىٰ ببقائها. ومن ثَمَّ فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك!

إنَّ المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنَّهم يتصورون أنَّ هذا الواقع الجاهلي هو الأصل، الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه! ولكنَّ الأمر غير ذلك تماماً. . إنَّ دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية! أن تُطابق نفسها عليه؛ وأن تحوّر من واقعها الجاهلي وتُغيّر حتى تَتِمّ هذه المطابقة. . ولكن هذا التحوّر وهذا التغيّر لا يَتمّان عادة إلاَّ عن طريق واحد. . هو التحرك ـ في وجه الجاهلية ـ لتحقيق أُلوهية الله في الأرض وربوبيته وَحْده للعباد، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت، بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم. .

وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذىٰ والابتلاء. فيفتن من يفتن ويرتدّ من يرتدّ، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد، ويصبر من

يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق، وحتى يُمكِّن الله له في الأرض، وعندئذٍ فقط يقوم النظام الإسلامي، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه، وتميزوا بقيمه.. وعندئذٍ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها..

وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام؛ وينشأ فقه إسلامي حي متحرك ـ لا في فراغ ـ ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات.. ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلاً أن يكون الناس في مجتمع مسلم تُجبىٰ فيه الزكاة وتُنفق في مصارفها، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة، ثمَّ بين كل أفراد الأُمَّة، وتقوم حياة الناس فيه على غير السّرف والترف والمخيلة والتكاثر.. إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية.. من يدرينا أنَّ مجتمعاً كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصلاً؟! وعنده كل التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقهم والتصورات؟! وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنَّه سيكون هو هذا النوع المعروف في المجتمع الجاهلي، المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصوراته؟! وكذلك من يدرينا أنَّ المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلاً؟!. وهكذا..

وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلماً ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها، بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن تركيب المجتمع الجاهلي، واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه.. فما هذا الضنىٰ في محاولة تحوير وتطوير وتغيير الأحكام المدونة لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب، شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته!

إنَّ نقطة البدء في المتاهة ـ كما قلنا ـ هي افتراض أنَّ هذه المجتمعات

القائمة هي المجتمعات الإسلامية؛ وأنَّه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق لتطبق عليها، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها.

كما أنَّ أصل المحنة هو الشعور بأنَّ واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه. وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها.. حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلاً من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره!

ونحسب أنَّه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية، والمجتمعات الجاهلية، والحاجات الجاهلية. وأن يقولوا للناس ـ وللذين يستفتونهم بوجه خاص ـ تعالوا أنتم أولاً إلى الإسلام، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه.. أو بعبارة أخرىٰ.. تعالوا أنتم أولاً فادخلوا في دين الله، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده، واشهدوا أن لا إله إلَّا الله بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلَّا به. وهو إفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء؛ وتقرير ربوبيته ـ أي حاكميته وسلطانه ـ وحده في حياة الناس بجملتها، وتنحية ربوبية العباد للعباد، بتنحية حاكمية العباد للعباد، وتشريع العباد للعباد.

وحين يستجيب الناس ـ أو الجماعة منهم ـ لهذا القول، فإنَّ المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولىٰ خطواته في الوجود. وهذا المجتمع يكون حينئذٍ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلاً..

فأمَّا قبل قيام هذا المجتمع فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس، باستنبات البذور في الهواء، ولن ينبت الفقه الإسلامي في الفراغ، كما أنَّه لن تنبت البذور في الهواء.

إنَّ العمل في الحقل « الفكري » للفقه الإسلامي عمل مريح! لأنّه لا خَطَر فيه! ولكنه ليس عملاً للإسلام؛ ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة! أمَّا الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملاً للإسلام في هذه الفترة فأحسب ـ والله أعلم ـ أنَّه مضيعة للعمر وللأجر أيضاً!

إنَّ دين الله يأبىٰ أن يكون مجرد مطية ذلول، ومجرد خادم مطيع، لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه، المتنكر له، الشارد عنه.. الذي يَسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته؛ وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه..

إنَّ فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ، ولا تعمل في فراغ.. وإنَّ المجتمع المسلم الخاضع لسلطان الله ابتداء هو الذي صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع.. ولن تنعكس الآية أبداً.

إنَّ خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هي دائماً واحدة؛ والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوماً ما سهلاً ولا يسيراً. ولن يبدأ أبداً من صياغة الأحكام الفقهية في الفراغ، لتكون مُعَدّة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامي والنظام الإسلام ولن يكون وجود هذه الأحكام المفصلة على « الجاهز » والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الإسلام. وليس الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية « الجاهزة »! وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن قصور أحكام الفقه الإسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة.. إلى آخر ما يُخادع به بعضهم، وينخدع به بعضهم الآخر!

كلا! إنَّ الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبىٰ أن تكون الحاكمية لله، فتأبىٰ أن

تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده. وتخرج بذلك من الإسلام خروجاً كاملاً. يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة.. ثمّ هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله.. أي تدين لها وتخضع وتتبع ـ فتجعلها أرباباً متفرقة معبودة مطاعة. وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك.. فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام.. وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاماً في الأرض؛ وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية.. وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية ـ إذن ـ بوسائل مكافئة. إنّما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرىٰ؛ وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها؛ ثمّ يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية. ثمّ يحكم الله بين من يسلمون وبين قومهم بالحق.. وعندئذٍ فقط يجيء دور أحكام الفقه، التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحي، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة في هذا المجتمع الوليد، وفق حجم هذه الحاجات يومئذٍ وشكلها وملابساتها، وهي أمور كلها في ضمير الغيب ـ كما أسلفنا ـ ولا يمكن التكهن بها سلفاً، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجدّ المناسب لطبيعة هذا الدين!

إنّ هذا لا يعني ـ بحال ـ أنّ الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلاً من الوجهة الشرعية. ولكنّه يعني فقط أنّ المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلاَّ فيه ـ بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلاَّ به ـ ليس قائماً الآن فعلاً. ومن ثمّ يصبح وجودها الفعلي مُعلقاً بقيام ذلك المجتمع.. ويبقىٰ الالتزام بها قائماً في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي، ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة، وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية.

إنَّ إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو لا يتغير، كلَّما قامت الجاهلية وقامت في وجهها محاولة إسلامية.. هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البنَّاء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي، بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلَّت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين؛ وخَلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام؛ وإن بقيت المآذن والمساجد، والأدعية والشعائر؛ تُخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين؛ وتوهّمهم أنّه لا يزال بخير؛ وهو يُمحىٰ من الوجود محواً!

إنَّ المجتمع المسلم وُجِدَ قبل أن توجد الشعائر، وقبل أن توجد المساجد.. وجد من يوم أن قيل للناس: اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره، فَعَبدوه. ولم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر، فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت.. إنَّما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده ـ من ناحية المبدأ فلم تكن بعد قد نزّلت شرائع! ـ وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلطان مادي في الأرض تنزلت الشرائع؛ وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطت بقية أحكام الفقه، إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنّة..

وهذا هو الطريق وحده؛ وليس هناك طريق آخر..

وليت هنالك طريقاً سهلاً عن طريق تحوّل الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان، وببيان أحكام الإسلام! ولكن هذه إنَّما هي «الأمانيّ» فالجماهير لا تتحول أبداً من الجاهلية وعبادة الطواغيت، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلَّا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة.. والذي يبدؤه فرد، ثمَّ تتبعه طليعة، ثمَّ تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكّن لها في الأرض.. ثمَّ.. يدخل الناس في دين الله أفواجاً.. ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي

لا يرضىٰ من الناس ديناً غيره: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: ٨٥]. .

ولعلَّ هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف ـ عليه السَّلام ـ.

إنَّه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية. كما أنَّه كان يرىٰ أنَّ الظروف تُمَكِّن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلي.

وكان الأمر كما توقع فَتَمكَّن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه. وقد توارىٰ العزيز وتوارىٰ الملك تماماً. .

* * *

ثمَّ نعود بعد هذا الاستطراد إلى صلب القصة وإلى صلب السياق. إنَّ السياق لا يثبت أنَّ الملك وافق. فكأنَّما يقول: إنَّ الطلب تضمن الموافقة! زيادة في تكريم يوسف، وإظهار مكانته عند الملك. فيكفي أن يقول ليجاب، بل ليكون قوله هو الجواب. . ومن ثمَّ يحذف ردّ الملك، ويدع القارىء يفهم أنَّه أصبح في المكان الذي طلبه.

ويؤيد هذا الذي نقوله تعقيب السياق:

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء نُصيب برحمتنا من نشاء. ولا نضيع أجر المحسنين. . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]. .

فعلىٰ هذا النحو من إظهار براءة يوسف، ومن إعجاب الملك به، ومن الاستجابة له فيما طلب. . على هذا النحو مكنَّا ليوسف في الأرض، وثبتنا قَدميه، وجعلنا له فيها مكاناً ملحوظاً. والأرض هي مصر. أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أنَّ مصر يومذاك أعظم ممالكها: **﴿يتبوَّأ منها حيث**

يشاء﴾ . . يتّخذ منها المنزل الذي يريد، والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد. في مقابل الجبّ وما فيه من مخاوف، والسجن وما فيه من قيود.

﴿نُصيب برحمتنا من نشاء﴾ فنبدله من العسر يسراً، ومن الضيق فَرجاً، ومن الخوف أمناً، ومن القيد حرية، ومن الهوان على الناس عِزّاً ومقاماً علياً.

﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ الذين يُحسنون الإيمان بالله، والتوكل عليه، والاتجاه إليه، ويُحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس. . هذا في الدنيا. . ﴿ولأجر الآخرة خير للّذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾ . .

فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيراً من متاع الدنيا، متى آمن الإنسان واتّقىٰ. فاطمأنّ بإيمانه إلى ربه، وراقبه بتقواه في سره وجهره. وهكذا عوّض الله يوسف عن المحنة، تلك المكانة في الأرض، وهذه البشرى في الآخرة جزاءً وفاقاً على الإيمان والصبر والإحسان.

الحلقة الخامسة:

وجاء إخوة يوسف :

ودارت عجلة الزمن، وطوىٰ السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء، فلم يذكر كيف كان الخصب، وكيف زَرَع الناس. وكيف أدار يوسف جهاز الدولة. وكيف نَظّم ودبّر وادّخر. كأنّ هذه كلها أُمور مُقررة بقوله: ﴿إنّي حفيظ عليم﴾ [يوسف: ٥٥]. .

وكذلك لم يذكر مقدم سني الجدب، وكيف تلقاها الناس، وكيف ضاعت الأرزاق. . لأنّ هذا كله ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها: ﴿ثمّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهنّ إلاّ قليلاً ممّا تُحصنون﴾ [يوسف: ٤٨]. .

كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحداً من رجاله بعد ذلك في السورة

كلها. كأنَّ الأمر كله قد صار ليوسف. الذي اضطلع بالعبء في الأزمة الخانقة الرهيبة. وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث، وسَلّط عليه كل الأضواء. وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخداماً فنياً كاملاً في الأداء. أمَّا فعل الجدب فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف، يجيئون من البَدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر. ومن ذلك نُدرك اتساع دائرة المجاعة، كما ندرك كيف وقفت مصر ـ بتدبير يوسف ـ منها، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها. وفي الوقت ذاته تمضي قصة يوسف وإخوته وهي سمة فنية تُحقق هدفاً دينياً في السياق.

﴿وجاء إخوة يوسف، فدخلوا عليه، فعرفهم وهم لهُ منكرون. ولمَّا جهّزهم بجهازهم قال: ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم، ألا تَرَون أنِّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون. قالوا: سنراود عنه أباه وإنَّا لفاعلون. وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم، لعلَّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلىٰ أهلهم لعلَّهم يرجعون﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٢]. .

ويدل تصرف يوسف في سني الخصب والجدب على مهارة واضحة في الإدارة والاقتصاد، فقد أشرف على المالية والتموين خمس عشرة سنة، لا على تموين مصر وحدها. بل على تموين البلاد القريبة المجاورة، التي أجدبت كذلك، وجاءت مصر تستجدي الخبز والحياة سبع سنين. .

« وتمر الأيام وتبدأ السنون صعوبة وقحطاً وشدة، وتكون مصر مقصد البلاد المجاورة، ويجيء إخوة يوسف، ما أعظم حكم الله!! سبحانك ربنا!! تختار ما اخترتَ لنا لا نستبدل به غيره. . يجيء إخوة يوسف، وتلك لحظة من اللحظات الفريدة في حياة يوسف ـ عليه السَّلام ـ»[1].

(١) القصص القرآني: ٤٠٥.

لقد اجتاح الجدب والمجاعة أرض أرض كنعان وما حولها. فاتَّجه إخوة يوسف ـ فيمن يتجهون إلى مصر. وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمـان.. ودخلوا على أخيهم وهو في عليـاء المجد وذروة السلطان، وفي مظهر لم يروه من قبل ولم يسمعـوا بمثله، فهم قد عاشوا حياتهم في البادية يسيمون أنعامهم ويرعون أغنامهم، ولم يروا من مظاهر المدنية والحضارة شيئاً، وهٰذا المظهر العجيب الذي يـرون يوسف فيه، والذي يتجاوز الحقيقة إلى الخيال في تقديرهم، يجعل الدهشة تحجب عنهم صورة أخيهم فيرونه ولا يدركون من أمره شيئاً. ولا يتذكرون ملامحه وسماته التي طالما رأوها وملأوا منها أبصارهم ومداركهم، ومن أجل ذلك فإنَّهم لم يعرفوه[1].

﴿وجاء إخوة يوسف، فدخلوا عليه، فعرفهم وهم له منكرون﴾..

ها نحن أولاء نشهدهم يدخلون على يوسف، وهم لا يعلمون. إنَّه يعرفهم فهم هم لم يتغيروا كثيراً.. إنَّها البداية التي كان يترقَّبها، يعرفهم ولكنه يتمالك نفسه، ويستطيع رغم كل ما يتفاعل فيها أن يُخفي الأمر، وهو موقف لا يَستطيعُه كثير من الناس، يا للحصافة والحكمة!! ويا لأصحاب النهىٰ وأولي الألباب!![2]

أمَّا يوسف فإنَّ خيالهم لا يتصور قط أنَّه ذاك! وأين الغلام العبراني الصغير الذي ألقوه في الجبِّ منذ عشرين عاماً أو تزيد[3] من عزيز مصر شبه المتوج في سنّه وزيّه وحَرسه ومهابته وخدمه وحشمه وهيله وهيلمانه؟

ومن ناحية أُخرىٰ فإنَّهم لم يكونوا يتوقعون أن يلتقوا به يوماً من الأيام،

---

(١) تاريخ الأنبياء: ١٤٩.

(٢) القصص القرآني: ٤٠٥.

(٣) وهو المتوقع بعد سنوات الإقامة في بيت العزيز وبضع سنين في السجن وسبع سنوات رخاء وبعض سني الجدب حتى جاؤوا.

ذلك بأنَّه ـ في نظرهم ـ قد انتهىٰ أمره، وانقطع خبره. وألقىٰ به الزمن في زوايا النسيان، ومن هنا صعبت عليهم معرفته. .

ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه، فلا بد من دروس يتلقونها: ﴿فدخلوا عليه وهم له مُنكرون﴾. .

وقد طوىٰ القرآن بعض الأحداث التي لا تتعلق بها العبرة، ولكن الذي يُفهم من السياق أنَّه سألهم وقد رآهم كثراً فَعَرَّفوه أنَّهم إخوة، ولعلَّه أبدىٰ استغرابه لذلك أنتم عشرة إخوة؟

وندرك من السياق أنَّه أنزلهم منزلاً طيباً، آواهم وأكرم وِفادتهم، ثمَّ أخذ في إعداد الدرس الأول:

﴿ولمَّا جهزهم بجهازهم قال: ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم﴾. .

فنفهم من هذا أنَّه تركهم يأنسون إليه، واستدرجهم حتى ذكروا له مَنْ هم على وجه التفصيل، وأنَّ لهم أخاً أصغر من أبيهم لم يحضر معهم لأنَّ أباه يحبه ولا يطيق فراقه. فلمَّا جهزهم بحاجات الرحلة قال لهم إنَّه يريد أن يرىٰ أخاهم هذا. .

وقد رأيتم أنَّني أوفي الكيل للمشترين. فسأُوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم؛ ورأيتم أنَّني أُكرم النزلاء فلا خوف عليه بل سيلقىٰ مني الإكرام المعهود ﴿ألا ترون أنِّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين؟﴾. .

إنِّي سأُجهزكم بجهازكم، وأُثقل بالطعام أحمالكم، على أن تعودوا ومعكم أخوكم الذي خلفتموه عند أبيكم، ليكون شهيداً عليكم، مُصدقاً لأقوالكم، وسأُضاعف إكرامكم، وأزيدكم حمل بعير غلاتكم؛ هذا هو شرطي، وذلك هو عهدي ﴿فإن لم تأتوني به فلا كَيلَ لكم عندي ولا تقربون﴾.

ولما كانوا يعلمون كيف يضنّ أبوهم بأخيهم الأصغر ـ وبخاصة بعد

ذهاب يوسف ـ فقد أظهروا أنَّ الأمر ليس ميسوراً، وإنَّما في طريقه عقبات من ممانعة أبيهم. قالوا: أيُّها العزيز؛ ما نظن أنَّ أبانا يأذن لسفره، أو يصبُر على فراقه؛ ولكننا سنراوده عنه، ونتلطف إليه، وإنَّا لفاعلون: **﴿قالوا: سنراود عنه أباه وإنَّا لفاعلون﴾**..

إنَّهم سيحاولون إقناعه، مع توكيد عزمهم ـ على الرغم من هذه العقبات ـ على إحضاره معهم حين يعودون **﴿سنراود عنه أباه وإنَّا لفاعلون﴾**..

ولفظ «نراود» يصوّر الجهد الذي يعلمون أنَّهم باذلوه..

أمَّا يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسُّوا البضاعة التي حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف. وقد تكون خليطاً من نقد ومن غَلّات صحراوية أخرىٰ من غلات الشجر الصحراوي، ومن الجلود والشعر وسواها ممَّا كان يستخدم في التبادل في الأسواق.. أمَر غلمانه بدسّها في رحالهم ـ والرحل متاع المسافر ـ لعلَّهم يعرفون حين يرجعون أنَّها بضاعتهم التي جاؤوا بها.

﴿وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلَّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلَّهم يرجعون﴾.

* * *

بين يعقوب وأبنائه :

وندع يوسف في مصر. لنشهد يعقوب وبَنيه في أرض كنعان. دون كلمة واحدة عن الطريق وما فيه:

﴿فلمَّا رجعوا إلى أبيهم قالوا: يَا أَبَانا مُنع منا الكيل، فأرسل معنا أخانا نكتل، وإنَّا له لحافظون﴾ [يوسف: ٦٣]..

ويبدو أنَّهم في دخلتهم على أبيهم، وقبل أن يفكّوا متاعهم، عاجلوه بأنَّ الكيل قد تقرر مَنعه عنهم ما لم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير. فهم

يطلبون إليه أن يُرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم وهم يَعدون بحفظه. . ولا بد أنَّ هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب. فهو ذاته وَعْدهم له في يوسف! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه:

﴿قال: هل آمنكم عليه إلَّا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾! [يوسف: ٦٤]. .

فخلوني من وعودكم وخلوني من حفظكم. .

لقد تسربت المخاوف إلى نفس يعقوب وقال لهم: لا ينبغي لي أن آمنكم عليه بعد ما جربتكم مع أخيه يوسف وما وقع منكم من إهمال شنيع أدّىٰ إلى ضياعه. . فإذا أنا طلبت الحفظ لولدي والرحمة بي. . ﴿فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾! [يوسف: ٦٤]. .

وبعد الاستقرار من المشوار، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم لِيُخرجوا ما فيها من غلال فإذا هم يَجدون فيها بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها، ولم يجدوا في رحالهم غلالاً!

إنَّ يوسف لم يُعطهم قمحاً، إنَّما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم. فلمَّا عادوا: يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الكيل، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم. وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم، وكان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه.

على أية حال لقد اتخذوا من ردّ بضاعتهم إليهم دليلاً على أنَّهم غير باغين فيما يطلبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين:

﴿قالوا: يَا أبانا ما نبغي. هٰذه بضاعتنا ردَّت إلينا﴾ [يوسف: ٦٥]. .

ثمَّ أخذوا يُحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم في الحصول على الطعام: ﴿ونمير أهلنا﴾. . والميرة الزاد، ويؤكدون له عزمهم على حفظ

أخيهم.. ﴿ونحفظ أخانا﴾.. ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ وهو ميسور لهم حين يرافقهم ﴿وذلك كيل يسير﴾ [يوسف: ٦٥]..

ويبدو من قولهم: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ أنَّ يوسف ـ عليه السَّلام ـ كان يُعطي كل واحد وسق بعير ـ وهو قدر معروف ـ ولم يكن يبع كل مشتر ما يريد. وكان ذلك من الحكمة في سنوات الجدب، كي يظل هناك قوت للجميع..

ولا شك أنَّ يعقوب ـ عليه السَّلام ـ حينما وَضَحَ له أنَّ أبناءه لن يُكال لهم حتى يأخذوا أخاهم معهم. ونظراً إلى الظروف العصيبة التي تحيط بهم من القحط والجدب الذي يهددهم بالفناء، لم يجد بُدّاً من التسليم بما طلبه أبناؤه على ما فيه من آلام نفسية مضنية.

واستسلم الرجل على كُره؛ ولكنَّه جعل لتسليم ابنه الباقي شرطاً:

﴿قال: لن أُرسله معكم حتّىٰ تُؤتون موثقاً من الله: لتأتنَّني به إلاَّ أن يُحاط بكم﴾ [يوسف: ٦٦]..

أي لتقسمنَّ لي بالله قسماً يربطكم، أن تردُّوا عليَّ ولدي، إلاَّ إذا غُلبتم على أمركم غَلباً لا حيلة لكم فيه ولا تجدي مدافعتكم عنه: ﴿إلاَّ أن يُحاط بكم﴾.. وهو كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم.. إلاَّ أن يحاط بهم قدرٌ لم يكن في الحُسبان، أو يَفْجأهم مكروه من الحدثان، وأخذوا على أنفسهم الميثاق. فأقسموا: ﴿فلمَّا أتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل﴾ [يوسف: ٦٦]..

وصية يعقوب:

وبعد هذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خَطَر له في رحلتهم القادمة ومعهم الصغير العزيز:

﴿وقال: يَا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة.

وما أغني عنكم من الله شيئاً. إن الحكم إلاَّ لله، عليه توكَّلت وعليه فليتوكَّل المتوكلون﴾ [يوسف: ٦٧]. .

وكانت وصية يعقوب لبنيه حين أزمعوا السفر إلى مصر وصية رائعة تجمع بين حنان الأبوّة وحكمة النبوّة. . فقد حملته عاطفة الأبوّة على أن يطلب منهم ألاَّ يدخلوا مصر من باب واحد حتى لا يُلفتوا الأنظار إليهم، فتتجه إليهم سهام الحقد والحسد. . أو حتى لا يُثير اجتماعهم هذا تساؤلات ذوي الفضول وأصحاب الأغراض الدنيا، فيدبروا لهم المكائد، ويضعوا في طريقهم العقبات والعراقيل. . ولكن حكمة النبوة جعلته يستدرك لما قال، ويلفت أنظار بَنيه إلى حكمة الله فيما تجري به الأقدار، وأنَّ الحَذَر لا يغني عن الإنسان فتيلاً إذا أراد الله به سوءاً ومكروهاً، وإنَّما ينبغي أن يتخذ الإنسان حيطته فيما يعرض له ثمَّ يدع مصيره في النهاية إلى حكمة واجب الوجود المهيمن على كل موجود(١).

ونقف هنا أمام قول يعقوب ـ عليه السَّلام ـ: ﴿إن الحكم إلاَّ لله﴾. .

وواضح من سياق القول أنَّه يعني هنا حكم الله القَدَري القهري الذي لا مفرَّ منه ولا فكاك. وقضاءه الإلـهي الذي يجري به قَدَره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئاً. وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره.

وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار. وإلى جانبه حكم الله الذي يُنفذه الناس عن رضىً منهم واختيار. وهو الحكم الشرعي المُتمثل في الأوامر والنواهي. . وهذا كذلك لا يكون إلاَّ لله. شأنه شأن حكمه القدري، باختلاف واحد: هو أنَّ الناس يُنفذونه مختارين أو لا ينفذونه. فيترتب على هذا أو ذاك نتائجه وعواقبه في حياتهم الدنيا وفي جزائهم في الآخرة. ولكنَّ الناس لا يكونوا مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذونه فعلاً راضين.

---

(١) تاريخ الأنبياء: ١٤٥.

وسار الركب، ونفذوا وصية أبيهم:

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ما كان يغني عنهم من الله من شيء ـ إلَّا حاجة في نفس يعقوب قضاها ـ وإنَّه لذو علم لما علَّمناه، ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٦٨]. .

فيمَ كانت الوصية؟ لِمَ قال أبوهم: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة؟

تضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدىء وتعيد، بلا ضرورة، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم. فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال. ولكنه قال فقط ـ إلَّا حاجة في نفس يعقوب قضاها ـ فينبغي أن يقف المفسرون عندما أراده السياق، احتفاظاً بالجو الذي أراده. والجو يوحي بأنَّه كان يخشىٰ شيئاً عليهم، ويرىٰ في دخولهم من أبواب متفرقة اتِّقاءً لهذا الشيء مع تسليمه بأنَّه لا يغني عنهم من الله من شيء. فالحكم كله إليه، والاعتماد كله عليه. إنَّما هو خاطر شعر به، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأنَّ إرادة الله نافذة. فقد علَّمه الله هذا فتعلَّم **﴿ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾**. .

ثمَّ ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة، أو هي غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم. أو هو تتبع قطاع الطريق لهم. أو كائناً ما كان فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع. سوىٰ أن يجد الرواة والمفسرون باباً للخروج من الجو القرآني المؤثر إلى قال وقيل، ممَّا يذهب بالجو القرآني كله في كثرة الأحايين!

فَلْنَطْوِ نحن الوصية والرحلة كما طواها السياق، لنلتقي بإخوة يوسف في المشهد التالي بعد الوصول.

* * *

مشهد مثير :

﴿ولمَّا دخلوا على يوسف آوىٰ إليه أخاه. قال: إنِّي أنا أخوك، فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ [يوسف: ٦٩]..

ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوىٰ، وإطلاعه على أنَّه أخوه؛ ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرىٰ ما فعله إخوته به من قبل، وهي ذكرىٰ لا بد كان يبتئس لها الصغير كلما عَلِمها من البيت الذي كان يعيش فيه. فما كان يمكن أن تكون مكتومة عنه في وَسَطه في أرض كنعان. يعجل السياق بهذا، بينما الطبيعي والمفهوم أنَّه هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف. ولكن بعد أن اختلىٰ يوسف بأخيه. ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه، وعند رؤيته لأخيه، بعد الفراق الطويل.

ومن ثمَّ جعله السياق أول عمل لأنَّه كان أول خاطر. وهذه من دقائق التعبير في هذا الكتاب العجيب!

ويطوي السياق كذلك فترة الضيافة، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ـ ليعرض مشهد الرحيل الأخير. فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه، ريثما يتلقىٰ إخوته درساً أو دروساً ضرورية لهم. وضرورية للناس في كل زمان ومكان:

﴿فلمَّا جهَّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه؛ ثمَّ أذَّن مؤذن: أيَّتها العير إنَّكم لسارقون﴾ [يوسف: ٧٠]..

وهو مشهد مثير، حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت، كأشد ما تكون المشاهد حيوية وحركة وانفعالاً، غير أنَّ هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآني هذا العرض الحي الأخّاذ.

فمن وراء الستار يدسّ يوسف كأس الملك ـ وهي عادة من الذهب ـ وقيل: إنَّها كانت تستخدم للشراب، ويستخدم قعرها الداخل المُجوف من

الناحية الأُخرىٰ في كيل القمح، لندرته وعزته في تلك المجاعة. يدسها في الرُّحل المخصص لأخيه، تنفيذاً لتدبير خاص ألهمه الله لـه وسَنعلمه بعـد قليل.

ثمَّ ينادي مناد بصوت مرتفع، في صيغة إعلان عام وهم مُنصرفون:

﴿أيَّتها العير إنَّكم لسارقون﴾..

ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الـذي يتهمهم بالسـرقة ـ وهم أبنـاء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب:

﴿قالوا ـ وأقبلوا عليهم ـ ماذا تفقدون؟﴾ [يوسف: ٧١]..

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرِحَال، أو الحُراس ومنهم هذا الذي أذاع بالإعلان:

﴿قالوا: نفقد صواع الملك﴾ [يوسف: ٧٢]..

وأعلن المؤذن أنَّ هناك مكافأة لمن يحضره متطوعاً. وهي مكافأة ثمينة في هذه الظروف: **﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾** من القمح العزيز **﴿وأنا به زعيم﴾**.. أي كفيل. ولكنَّ القوم مُستيقنون من براءتهم، فهم لم يسرقوا، وما جاؤوا ليسرقوا وليجترحوا هذا الفساد الذي يخلخل الثقة والعلاقات في المجتمعات، فهم يُقسمون واثقين:

﴿قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾.. فقد علمتم من حالنا ومظهرنا ونَسَبنا أنَّنا لا نجترح هذا.

﴿وما كنَّا سارقين﴾ [يوسف: ٧٣].. أصلاً فما يقـع منا مثـل هذا الفعل الشنيع.

قال الغلمان أو الحراس: **﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين؟﴾** [يوسف: ٧٤]..

وهنا ينكشف طرق التدبير الذي ألهمه الله يوسف. فقد كان المتبع في

دين يعقوب: أن يُؤخذ السارق رهينة أو أسيراً أو رقيقاً في مقابل ما يسرق. ولما كان إخوة يوسف مُوقنين بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنَّه سارق. ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه:

﴿قالوا: جزاؤه من وُجِدَ في رَحله فهو جزاؤه. كذلك نجزي الظَّالمين﴾ [يوسف: ٧٥]. . وهذه هي شريعتنا نحكمها في السارق. والسارق من الظالمين.

كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف. فأمر بالتفتيش. وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ بِرحالهم قبل رَحل أخيه، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش:

﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه. ثمَّ استخرجها من وعاء أخيه﴾ [يوسف: ٧٦]. .

ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم الحالفين، المُتَحَدِّين. . فلا يذكر شيئاً عن هذا، بل يتركه يتملّاه الخيال على الصورة التي تكمل رسم المشهد بانفعالاته. . بينما يأخذ في التعقيب ببعض مرامي القصة، ريثما يَضيق النظارة وأبناء يعقوب ممَّا هم فيه:

﴿كذلك كدنا ليوسف﴾. . أي كذلك دبَّرنا له هذا التدبير الدقيق. . **﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾** [يوسف: ٧٦]. .

فلو حكَّم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه، إنَّما كان يعاقب السارق على سرقته، دون أن يستولي على أخيه كما استولىٰ عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم. وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه. وهو كيد الله له.

والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء. وإن كان

الشر قد غَلَب عليه. وظاهر الأمر هنا أنَّه شر يحلّ بأخيه وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه. وهو سوء ـ ولو مؤقتاً ـ لأبيه. فلهذا اختار تسميته كيداً على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره. وهو من دقائق التعبير.

﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾.. ﴿إلاَّ أن يشاء الله﴾.. فيدبّر مثل هذا التدبير الذي رأيناه.

ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾.. وإلى ما ناله من علم، مع التنبيه إلى أنَّ علم الله هو الأعلىٰ: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ [يوسف: ٧٦].. وهو احتراس لطيف دقيق.

ولا بد أن نقف أمام التعبير القرآني الدقيق العميق: ﴿كذلك كدنا ليوسف.. ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك..﴾ [يوسف: ٧٦]..

إنَّ هذا النص يحدد مدلول كلمة «الدين» ـ في هذا الموضع ـ تحديداً دقيقاً.. إنَّه يعني: نظام المَلك وشرعه.. فإنَّ نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أَخْذه في جزاء سرقته. إنَّما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه. وقد ارتضىٰ إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم، فَطَبَّقها يوسف عليهم عندما وَجَد صواع الملك في رحل أخيه.. وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنَّها «الدين».

هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً. سواء منهم من يدّعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهليين!

إنَّهم يقصرون مدلول «الدين» على الاعتقاد والشعائر.. ويعدون كل من يعتقد في وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ ويؤدي الشعائر المكتوبة.. داخلاً في «دين الله» مهما تكن دينونته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير الله من الأرباب

المتفرقة في الأرض.. بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول «دين الملك» بأنّه نظام الملك وشريعته. وكذلك «دين الله» فهو نظامه وشريعته.

إنّ مدلول «دين الله» قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلاّ الاعتقاد والشعائر.. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمّد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

لقد كان يعني دائماً: الدينونة لله وحده، بالتزام ما شرّعه، ورفض ما يشرعه غيره. وإفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء؛ وتقرير ربوبيته وحده للناس: أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره.

وكان مفرق الطريق دائماً بين من هم في دين « الله » ومن هم في «دين الملك» أنّ الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده، وأنّ الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه. أو يُشركون فيدينون لله في الاعتقاد والشعائر، ويدينون لغير الله في النظام والشرائع!

وهـذا من المعلوم من الـدين بـالضـرورة، ومن بـديهيـات العقيـدة الإسلامية تماماً.

وبعض المترفقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذراً في أنّهم يجهلون مدلول كلمة «دين الله» وهم من ثمَّ لا يصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هي « الدين ». وأنَّ جَهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليـين مشركين!

وأنا لا أتصور كيف أنَّ جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين!

إنَّ الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها. فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها؟ إنَّ هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة، أو يُخفف عنهم العذاب فيها؛ ويُلقي بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يُعلمونهم حقيقة

هذا الدين وهم يعرفونها. . ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها لله، والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل. وليس هو الذي يعنينا نحن البشر الذي ندعو إلى الإسلام في الأرض!

إنَّ الذي يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم. . إنَّه ليس دين الله قطعاً. فدين الله هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة. فمن كان في نظام الله وشرعه فهو في «دين الله». ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في «دين الملك» ولا جدال في هذا.

والذين يجهلون مدلول الدين لايمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين. لأنَّ الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية. والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلاً وواقعاً أن يكون مُعتقداً به. إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة. . وهذه بديهية. . وخير لنا من أن ندافع عن الناس ـ وهم في غير دين الله ـ ونتلمس لهم المعاذير، ونحاول أن نكون أرحم بهم من الله الذي يقرر مدلول دينه وحدوده! . . خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول «دين الله» ليدخلوا فيه. . أو يرفضوه. .

هذا خير لنا وللناس أيضاً. . خير لنا لأنَّه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا الدين، الذي ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة. . وخير للناس لأنَّ مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه ـ وأنَّهم في دين الملك لا في دين الله ـ قد تهزهم هـزة تُخرجهم من الجـاهلية إلى الإسـلام، ومن دين الملك إلى دين الله!

كذلك فعل الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ وكذلـك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى الله في مواجهة الجاهلية في كل زمان ومكان. .

ثمَّ نعود إلى إخوة يوسف بعد هذا التعقيب القصير. نعود إليهم وقد حرك الحرج الذي يلاقونه كوامن حقدهم على أخي يوسف، وعلى يوسف من قبله، فإذا هم يَتنصلون من نَقيصة السرقة، ويُنفونها عنهم، ويُلقونها على

هذا الفرع من أبناء يعقوب: ﴿قالوا: إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل﴾ [يوسف: ٧٧].. إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.. وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلات وحكايات وأساطير. كأنَّهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف؛ وكأنَّهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التي تُحرجهم، وتبرؤاً من يوسف وأخيه السارق، وإرواءً لحقدهم القديم على يوسف وأخيه!

لقد قذفوا بها يوسف وأخاه! ﴿فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم﴾ [يوسف: ٧٧]..

أسرَّ هذه الفعلة وحفظها في نفسه، ولم يُبدِ تأثُّره منها. وهو يعلم براءته وبراءة أخيه. إنَّما قال لهم:

﴿أنتم شر مكاناً﴾.. يعني أنَّكم بهذا القذف شر مكاناً عند الله من المقذوف ـ وهي حقيقة لا شتمة.

﴿والله أعلم بما تصفون﴾ [يوسف: ٧٧].. وبحقيقة ما تقولون. وأراد بذلك قطع الجَدَل في الاتهام الذي أطلقوه، ولا دخل له بالموضوع!..

وعندئذٍ عادوا إلى الموقف المُحرج الذي وقعوا فيه. عادوا إلى المَوثق الذي أخذه عليهم أبوهم: ﴿لتأتنّني به إلاَّ أن يُحاط بكم﴾. فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتىٰ، الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بَدَله واحداً منهم إن لم يكن مُطْلِقَه لخاطر أبيه، ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبرّه لعلَّه يلين:

﴿قالوا: يَـا أيُّها العزيز. إنَّ له أباً شيخاً كبيراً، فخذ أحدنا مكانه، إنَّا نراك من المحسنين﴾ [يوسف: ٧٨]..

ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درساً. وكان يريد أن يشوقهم

إلى المفاجأة التي يعدّها لهم ولوالده وللجميع! ليكون وقعها أعمق وأشد أثراً في النفوس:

﴿قال: معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده. إنَّا إذاً لظالمون﴾ [يوسف: ٧٩]..

ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق. لأنَّه يعلم أنَّ أخاه ليس بسارق. فعبَّر أدق تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة[١]: **﴿معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وَجدنا متاعنا عنده﴾** وهي الحقيقة الواقعة دون زيادة في اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه..

﴿إنَّا إذاً لظالمون﴾.. وما نريد أن نكون ظالمين..

وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف. وعرفوا أن لا جَدوىٰ بعدها من الرجاء، فانسحبوا يفكرون في موقفهم المُحرج، أمام أبيهم حين يرجعون.

* * *

حرج وحيرة:

يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير، فانصرفوا من عنده، وعقدوا مجلساً يتشاورون فيه. وهم هنا في هذا المشهد يتناجون. والسياق لا يذكر أقوالهم جميعاً. إنَّما يثبت آخرها الذي يكشف عمَّا انتهوا إليه:

﴿فلمَّا استيأسوا منه خلصوا نجيّاً. قال كبيرهم: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قَبلُ ما فرَّطتم في يوسف؟ فلن أبرح الأرض

---

(١) كان يوسف يتكلم العبرية لغة أهله واللغة المصرية القديمة لغة وسطه. والمفهوم أنَّه كان يخاطبهم بالمصرية فيعرفونها أو تُتَرجم لهم.

حتّىٰ يأذن لي أبي، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين. ارجعوا إلى أبيكم فقولوا: يَـا أبانا إنَّ ابنك سرق، وما شهدنا إلاَّ بما علمنا، وما كنَّا للغيب حـافظين. واسـأل القريـة التي كنَّـا فيهـا والعيـر التي أقبلنـا فيهـا، وإنَّـا لصادقون﴾[1] [يوسف: ٨٠ ـ ٨٢]. .

إنَّه كبيرهم ليذكّرهم بالموثق المأخوذ عليهم، كما يذكّرهم بتفريطهم في يوسف من قبل. ويقرن هذه إلى تلك، ثمَّ يرتب عليهما قراره الجازم: ألاَّ يبرح مصر، وألاَّ يواجه أباه، إلاَّ أن يأذن له أبوه، أو يقضي الله له بحكم، فيخضع له وينصاع.

أمَّا هُم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأنَّ ابنه سرق، فَأُخِذَ بما سرق. ذلك ما علموه شهدوا به. أما إن كان بريئاً، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه، فهم غير موكلين بالغيب. كما أنَّهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث، فذلك كان غيباً بالنسبة إليهم، وما هم

---

(١) ويعلق صاحب كتاب القصص القرآني على هذا الموقف فيقول: «إنَّ كلمة الحق لها قوة، فانظر إلى موقفهم هنا وقد جاؤوا إلى أبيهم بالصدق كله. وإلى موقفهم من قبل مع يوسف وقد جاؤوا إلى أبيهم بالكذب كله. إنَّهم هنا يجدون لكلمة الحق مساغاً في أفواههم، وقوة على ألسنتهم فيقيمون عليها الأدلة القريبة والبعيدة، ثمَّ لا يكتفون بهذا، بل يجزمون بصدقهم ويؤكدونه بقولهم: ﴿وإنَّا لصادقون﴾. .
أمَّا هناك في موقفهم من يوسف فإنَّهم قد حملوا إلى أبيهم شاهد الزور بأيديهم: قميصاً ملطخاً بدم كذب، ودموعاً متلصعة تتخذ من الليل ستاراً يستر زيفها، ثمَّ كلمات مستخذية تمشي على استحياء في رعشة واضطراب: ﴿يَا أبانا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ [يوسف: ١٧]. .
إنَّهم هنا يتهمون أنفسهم ويحكمون على ما يقولون بأنَّه لا يقع موقع التصديق من أبيهم.
فما أبعد المدىٰ بين قولهم هنا ـ في المرة الثانية ـ ﴿وإنَّا لصادقون﴾. . وقولهم هناك ـ في المرة الأولىٰ ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين﴾. .
إنَّه بُعد ما بين الحق والباطل، والصدق والكذب» انظر القصص القرآني للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ٤٧٥.

بحافظين للغيب. وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القريـة ـ وهي عاصمة مصر ـ والقرية اسم للمدينة الكبيرة ـ وليسأل القافلة التي كانوا فيها، فهم لم يكونوا وحدهم، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتـار الغلة في السنين العجاف . .

* * *

النبأ الفظيع . . والثقة بالله :

ويـطوي السيـاق الـطريق بهم، حتى يقفهم في مشهـد أمـام أبيهم المفجوع، وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع. فلا نسمع إلاَّ رده قصيراً سريعاً، شجياً وجيعاً. ولكن وراءه أملاً لم ينقطع في الله أن يرد عليه ولديه، أو أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم الذي أقسم ألاَّ يبرح حتى يحكم الله له. وإنَّه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع:

﴿قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبـر جميل، عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ٨٣] . .

﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ . . كلمته ذاتها يوم فَقَدَ يوسف. ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك . . **﴿إنَّه هو العليم الحكيم﴾** . . الذي يعلم حاله، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عندما تـتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج.

هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنَّه الرجاء في الله، والاتصال الوثيق به، والشعور بوجوده ورحمتـه. ذلك الشعـور الذي يتجلَّىٰ في قلوب الصفوة المختارة، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار.

﴿وتولىٰ عنهم وقال: يَـا أسفا علىٰ يوسف! وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: ٨٤]..

وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع يحس أنَّه مُنفرد بهمّه، وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل، يندب فجيعته في ولده الحبيب. يوسف. الذي لم يَنسه. ولم تهوّن من مصيبته السنون، والذي تُذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل: ﴿يَـا أسفا علىٰ يوسف﴾!..

ويكظم الرجل حزنه ويتجلّد فَيُؤَثّر هذا الكظم في أعصابه حتى تبيض عيناه حزناً وكمداً:

﴿وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾..

ويبلغ الحقد بقلوب بَنيه ألَّا يرحموا ما به، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يُسرون عنه، ولا يُعزونه، ولا يُعللونه بالرجاء، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير:

﴿قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتّىٰ تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾ [يوسف: ٨٥].. وهي كلمة حانقة مستنكرة. تالله تظل تذكر يوسف، ويهدّك الحزن عليه، حتى تذوب حزناً أو تهلك أسىٰ بلا جدوىٰ. فيوسف ميؤوس منه قد ذهب ولن يعود!

ويردّ عليهم الرجل بأن يتركوه لربه، فهو لا يشكو لأحد من خلقه، وهو على صلة بربه غير صلتهم، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون:

﴿قال: إنَّما أشكو بثّي[1] وحزني إلىٰ الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٨٦]..

وفي هذه الكلمات يتجلّىٰ الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب

---

(١) همّي ومصيبتي.

الموصول؛ كما تـتجلىٰ هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر، ولألائها الباهر.

إنَّ هذا الواقع الميؤوس من يوسف، وهذا المدىٰ الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته إلى أبيه، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل.. إنَّ هذا كله لا يؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح بربه. فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور!

وهذه قيمة الإيمان بالله، ومعرفته ـ سبحانه ـ هذا اللون من المعرفة. معرفة التجلي والشهود وملابسة قدرته وقدره، وملامسة رحمتـه ورعايتـه، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين.

إنَّ هذه الكلمات: ﴿**وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾ تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها. وتعرض مذاقاً يعرفه من ذاق مثله، فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب..

والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه ـ مهما بلغت ـ إلاَّ أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق!

ولا نملك أن نزيد. ولكننا نحمد الله على فضله في هذا، وندع ما بيننا وبينه له يعلمه ـ سبحانه ـ ويراه..

ثمَّ يـوجههم يعقـوب إلى تلمس يـوسف وأخيـه؛ وألاَّ يـيـأسـوا من رحمة الله، في العثور عليهما، فإنَّ رحمة الله واسعة وفَرَجه دائماً منظور:

﴿**يَا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يـوسف وأخيـه، ولا تيـأسـوا من روح الله. إنَّه لا يَـيأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون**﴾ [يوسف: ٨٧]..

فيا للقلب الموصول!!!

اذهبوا، تحسَّسوا بحواسكم، في لطف وبصر وصبر على البحث. ودون يأس من الله وفَرَجه ورحمته. وكلمة «روح» أدق دلالة وأكثر شفافية.

ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روْح الله الندي:

﴿إنَّه لا ييأس من روْح الله إلَّا القوم الكافرون﴾..

فأمَّا المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم بروْحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية، فإنَّهم لا ييأسون من روْح الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتدَّ بهم الضيق. وإنَّ المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب..

يقول الأُستاذ أبو الحسن الندوي:

«إنَّ قصة يعقوب ـ عليه السَّلام ـ تدل دلالة واضحة على أنَّ صاحب العقيدة والإيمان القوي والمعرفة الصحيحة بالله يستنتج من الحوادث عكس ما يستنتجه أصحاب النظر المادي القاصر وضعاف العقيدة والعقول، ويستمد منها الإيمان الجديد والثقة الجديدة، ويتنبأ بالفرج القريب، ويستبشر بالنصر المبين..

إنَّ قصة سيدنا يعقوب التي حكاها الله تعالىٰ في سورة يوسف، يتجلّىٰ فيها أنَّ يعقوب كلما تكررت الحوادث ازداد إيماناً ويقيناً بأنَّ هناك يداً خفية، وحكمة غيبية، وتوجيهاً وتربية، وأنَّ الله لا يجمع عليه رزيئتين ولا يفجعه في حبيبين، وإذا تتبعنا الآيات، وما نقل عن يعقوب ـ عليه السَّلام ـ، وجدنا أنَّه كان عند الحادثة الثانية أعظم ثقة بحياة يوسف، وأقوىٰ أملًا في عودته، بل أيقن أنَّه سيقرّ عيناً بعودة يوسف وأخيه بنيامين مع إخوتهما الذين بقوا في مصر.

انظر إلى قوله لما أخبره أبناؤه بأنَّ يوسف أكله الذئب قال:

﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما

تصفون﴾ [يوسف: ١٨].. وانظر إلى قوله لما تكررت الحادثة وبقي بنيامين في مصر وقالوا له: **﴿يَا أبانا إنَّ ابنك سرق، وما شهدنا إلاَّ بما علمنا وما كنَّا للغيب حافظين﴾** [يوسف: ٨١].. وكان يعلم أنَّ القانون المصري يقتضي بقاءه في مصر **﴿جزاؤه من وُجِدَ في رحله﴾** ومعنىٰ ذلك أن يقطع أمله منه ويفقده كما فقد يوسف بالأمس، ولكنه لما سمع هذا النبأ قوي فيه الإيمان، وانتعش الأمل وأيقن أنَّ الفرج قريب وأن قد حان ميعاد عودتهما، وهذا هو الوجدان الإيماني الذي لا يحتاج إلى دليل **﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً إنَّه هو العليم الحكيم﴾** [يوسف: ٨٣]..

انظر الفرق بين قوله الأول وقوله الثاني، وتأمل في كلمة «عسىٰ»، ولم يقتصر على هذا بل قال في الآية التي بعدها: **﴿وأعلمُ من الله ما لا تعلمون﴾**..

ولم يقتصر على هذا بل حفَّزهم إلى البحث عن يوسف وحثَّهم على أن لا ييأسوا من رحمة الله: **﴿يَا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله، إنَّه لا ييأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾** [يوسف: ٨٧]..

إنَّه المنطق الإيماني الذي يختلف عن المنطق العقلي كل الاختلاف، وهو الإيمان العميق الذي لا تزيده الحوادث والنكبات والضربات والإخفاق بعد الإخفاق إلاَّ صلابة ومتانة وقوة.

ويعتقد كثير من الناس أنَّ المحن توهن العزم وتضعف العقيدة، لأنَّ الإنسان مفطور على حب السلامة والعافية والسهولة، فإذا رأىٰ طريقاً محفوفة بالأشواك عدل عنها إلى طريق مأمون، وإذا واجه الإخفاق أو أُصيب بالنكبات غيَّر الاتجاه واقتنع بأنَّه أخطأ الطريق أو ضلَّ عن سواء السبيل، فأخذ في طريق آخر.

هذا صحيح بالنسبة إلى عامة الناس، وهو منطبق على الطبقة التي تجعل النجاح والانتصار العاجل والفائدة المادية الحاضرة مقياساً لصحة العقيدة وصواب العمل، وعن هذه الطبقة حدَّث القرآن فقال: **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾** [الحج: ١١]..

ذلك المخلوق الضعيف العقيدة، يتمسك بعقيدته ما ناله الخير منها، فإذا أُوذي فيها تزعزع وحاد عنها.

والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله «على حرف» غير متمكن من العقيدة، ولا متثبت في العبادة، يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الرفعة الأولىٰ. ومن ثمَّ ينقلب على وجهه عند مسّ الفتنة، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب! ولكن هناك طرازاً آخر من أصحاب العقيدة والإيمان، لا يزيدهم الإخفاق إلاَّ نشاطاً وحماسة، ولا تزيدهم المحن والنكبات إلاَّ إيماناً بمبدئهم، بل تولد فيهم هذه المحن إيماناً جديداً وثقة جديدة، فإذا تكررت وتوالت شعروا بأنَّ إيمانهم قد رجح في ميزان الله، وأنَّ هذه المحن إعلان عن عظمة الله وقوته، وأنهم قد بلغوا مبلغ الذين يستحقون أن يُخاطَبوا بقوله تعالىٰ: **﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يفتنون، ولقد فتنَّا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾** [العنكبوت: ٢، ٣].. وقوله تعالىٰ: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾** [آل عمران: ١٤٢].. إلى غير ذلك من الآيات.

وإذا تكررت هذه المحن واشتدت الأزمات وتوالت الخطوب آمنوا بأنَّ هناك يداً خفية وراء الستار تتصرف، وأنها ليست مصادفات اتفاقية، بل هي إرادة إلٰهية وحكمة ربانية **﴿ليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾** [آل

عمران: ١٤١]. . وأيقنوا بأنَّ الفرج قريب والعاقبة للمتقين، فوطَّنوا نفوسهم على الصبر والثبات: **﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾** [آل عمران: ١٤٦] هذا هو الموقف الكريم اللائق بأصحاب العقيدة والإيمان والاقتناع بالمبدأ، فكلَّما اشتدت الأزمة وقتم الجو وطالت المحنة، فليعلم أصحاب العقيدة وليعلم المرابطون أنَّ الفرج قريب، وأنَّ النصر يعظم بقدر عظم المحنة وطولها وبقدر شدة الأزمة وطول أيام البلاء»(١).

الحلقة السادسة:

مفاجأة عجيبة :

وكان طبيعياً أن يستجيب أبناء يعقوب إلى رغبة أبيهم، وأن يفكروا في الرجوع إلى مصر في محاولة أخيرة لاسترجاع أخيهم الصغير. أمَّا يوسف فلم يفكروا في البحث عنه لأنَّه في نظرهم قد أصبح في حكم المفقودين؛ وهيهات هيهات أن يعرفوا عنه خبراً فضلاً عن أن يعثروا عليه أو يصلوا إليه.

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضَرَّت بهم المجاعة، ونفذت منهم النقود، وجاؤوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد، ويدخلون على يوسف ولكن بحال غير التي كانوا عليها من قبل. . يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يُعهد في أحاديثهم في ما سبق، وشكوى من المجاعة تدلّ على ما فعلت بهم الأيام:

﴿فلمَّا دخلوا عليه قالوا: يَا أيُّها العزيز مَسَّنا وأهلنا الضرُّ، وجئنا ببضاعة مُزجاة، فأوف لنا الكيل وتصدَّق علينا، إنَّ الله يجزي المتصدِّقين﴾ [يوسف: ٨٨]. .

قالوا: أيُّها العزيز: ها قد أعادتنا الأيام إليك. وللأيام تقلبات، وللدهر

(١) مدرسة المحنة: مجلة المسلمون، المجلد الخامس، ص ٩٥٠.

نكبات! جئناك والحال رقيق، والعيش نكد. إنَّ للأيام دورة.. لقد مسَّنا البلاء وعمَّنا الحزن. نقف موقف الضراعة والاستكانة بين يديك. وقد جئناك ببضاعة رديئة لا يقلبها إلَّا محسن كريم.. فأَحسن إلينا، وتصدّق علينا، وآمنن بتَسريح أخينا، فإنَّك بذلك تكون قد خَفَّفت عن أبيه لواعج وأشجاناً!

وإذا كان الله قد بلغ بقصة يوسف أسمىٰ ما يطمح إليه المثل الأعلىٰ؛ من الإيمان والتسليم بالقضاء والصبر على البلاء والشدة، فقد آذن يوسف أن يعلن لإخوته عن نفسه، ويكشف لهم عن حاله. وذلك عندما بلغ الأمر بهم إلى هذا الحدّ من الاسترحام والضيق والانكسار.

ولم تبقَ في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته. فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرىٰ التي لا تخطر لهم على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وَحْدهم، ولم يطلع عليه أحد إلَّا الله:

﴿قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾؟!!! [يوسف: ٨٩].

ما أعظم هذا الأُسلوب وألطفه!! فيه الحكمة وعنده العلم.. وكان الأُخوة يعلمون أنَّ هذا السِّرَّ لا يعلمه إلَّا يوسف ونحن. ورنَّ في آذانهم صوتٌ لعلَّهم يذكرون شيئاً من نبراته. ولاحت لهم ملامح وَجْه لعلَّهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونها في سمت عزيز مصر وأُبّهته وشياته. والْتَمع في نفوسهم خاطر من بعيد:

﴿قالوا: أئنَّك لأنت يوسف﴾؟ [يوسف: ٩٠].. أئنَّك لأنت؟! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير..

﴿قال: أنا يوسف. وهـٰذا أخي. قد مَنَّ الله علينا. إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠]..

وقد وقع هذا الإعلان في نفوسهم موقعاً عجيباً، إذ لم يخطر ببالهم أن يكون هذا العزيز الذي تبدأ الأمور منه وتنتهي إليه هو أخاهم يوسف، الذي ألقوه في غيابت الجب، وظنُّوا أنَّه قد استقرَّ في غيابت النسيان.

مفاجأة! مفاجأة عجيبة يعلنها لهم يوسف ويُذكّرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دَفعة الجهالة.. ولا يزيد.. سوىٰ أن يذكر منّة الله عليه وعلى أخيه، مُعللاً هذه المنة بالتقوىٰ والصبر وعدل الله في الجزاء.

ونقف مع القرآن الكريم في دهشة السرّ المكشوف، وتبرز ألوان متداخلة متناسقة، يظهر لون شديد في قوة عرض وإحياء المفاجأة، وكأنّها حادث يقع، ومشهد يجري أمامنا الآن، وفي هذه اللحظة، لا قصة تُروىٰ ولا حادثاً قد مضىٰ، فترتعش الأفئدة لهذه المفاجأة وتذرف لها العيون.

ويبرز لون آخر يبدو في رسم الشخصيات في المشهد الصعب، ينطلق بجواره لون يبدو في تَخَيُّل العواطف والانفعالات.. فهؤلاء إخوة يوسف تتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، ويُجلِّلهم الخزي والخجل وهم يواجهون مُحسناً إليهم وقد أساؤوا. حليماً بهم وقد جَهِلوا. كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم. فامتقعت ألوانهم، واضطربت مشاعرهم، واهتزت نفوسهم هلعاً وخوفاً:

﴿قالوا: تالله لقد آثرك الله علينا، وإن كنّا لخاطئين﴾ [يوسف: ٩١]..

اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوىٰ. يقابله يوسف بالصفح والعفو.. وهو أكرم من أن يُطيل خوفهم، وأوسع صدراً من أن يكافئهم بزلّتهم، وأنهىٰ الموقف

المخجل بشيمة الرجل الكريم فما لامَهم على فعلتهم.

وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة. إنَّه كان من المحسنين..

﴿قال: لا تثريب عليكم اليوم. يغفر الله لكم، وهو أرحم الرَّاحمين﴾ [يوسف: ٩٢]..

لا مؤاخذة ولا تأنيب اليوم. فقد انتهىٰ الأمر من نفسي ولم تعد له جذور. والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين.. ثمَّ يحول الحديث إلى شأن آخر. شأن أبيه الذي ابيضَّت عيناه من الحزن. فهو مُعجّل إلى تبشيره. معجّل إلى لقائه. معجّل إلى كشف ما عَلِق بقلبه من حزن، وما ألمَّ بجسمه من ضنىٰ وما أصاب بصره من كلال:

﴿اذهبوا بقميصي هـٰذا، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً؛ وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ [يوسف: ٩٣﴾..

كيف عرف يوسف أنَّ رائحته سترد على أبيه بصره الكليل؟ ذلك ممَّا علمه الله. والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة.. وما لها لا تكون خارقة ويوسف نبي رسول ويعقوب نبي رسول؟

وتبدأ مرحلة جديدة لبني إسرائيل في مصر بعد قدوم يعقوب وأهله **﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾**..

* * *

أمل ويقين:

ومنذ اللحظة نحن أمام مفاجأة في القصة بعد مفاجأة، حتى تنتهي مشاهدها المثيرة بتأويل رؤيا الصبي الصغير:

﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم: إنِّي لأجد ريح يوسف. لولا أن تُفنِّدون﴾! [يوسف: ٩٤]..

ريح يوسف! كل شيء إلَّا هذا. فما يخطر على بال أحد أنَّ يوسف بَعْدُ في الأحياء بعد هذا الأمد الطويل. وأنَّ له ريحاً يشمّها هذا الشيخ الكليل!

إنِّي لأجد ريح يوسف. لولا أن تقولوا شيخ خَرِف: **﴿لولا أن تفنِّدون﴾** لَصدَّقتم معي ما أجده من ريح الغائب البعيد.

كيف وجَدَ يعقوب ريح يوسف منذ أنْ فصلت العير. ومن أين فصلت؟

يقول بعض المفسرين: إنَّها منذ فصلت من مصر، وأنَّه شمَّ رائحة القميص من هذا المدىٰ البعيد. ولكن هذا لا دلالة عليه، فربما كان المقصود لما فصلت العير عند مفارق الطُرق في أرض كنعان، واتجهت إلى محلة يعقوب على مدىٰ محدود.

ونحن بهذا لا ننكر أنَّ خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبي كيعقوب من ناحية نبي كيوسف. كل ما هنالك أنَّنا نحب أن نقف عند حدود مدلول النص القرآني أو رواية ذات سند صحيح. وفي هذا لم ترد رواية ذات سند صحيح. ودلالة النص لا تعطي هذا المدىٰ الذي يريده المفسرون! ولكنَّ المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ما له عند ربه، فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف: **﴿قالوا: تالله. إنَّك لفي ضلالك القديم﴾**.. في ضلالك بيوسف، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذي لا يعود.

ولكنَّ المفاجأة البعيدة تقع، وتتبعها مفاجأة أُخرىٰ:

﴿فلمَّا أن جاءه البشير ألقاه على وجهه، فارتدَّ بصيراً﴾ [يوسف: ٩٦]..

مفاجأة القميص. وهو دليل على يوسف وقرب لقياه. ومفاجأة ارتداد البصر بعدما ابيضَّت عيناه.. وهنا يذكر يعقوب حقيقة ما يُعلّمه من ربه. تلك التي حدثهم بها من قبل فلم يفهموه:

﴿قال: ألم أقل لكم: إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟﴾ [يوسف: ٩٦].. ﴿قالوا: يَا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنَّا كنا خاطئين﴾ [يوسف: ٩٧]..

ونلمح هنا أنَّ في قلب يعقوب شيئاً من بنيه، وأنَّه لم يصفُ لهم بعد، وإن كان يَعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح: ﴿قال: سوف أستغفر لكم ربِّي إنَّه هو الغفور الرحيم﴾ [يوسف: ٩٨]..

وحكاية عبارته بكلمة «سوف» لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم..

* * *

الحلقة السابعة:

المشهد المثير والنهائي:

ويمضي السياق في مفاجآت القصة. فيطوي الزمان والمكان. لنلتقي في المشهد النهائي المُؤثِّر المثير:

﴿فلمَّا دخلوا علىٰ يوسف آوىٰ إليه أبويه. وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين..﴾ [يوسف: ٩٩]..

ويا له من مشهد! بعد كرّ الأعوام وانقضاء الأيام. وبعد اليأس والقنوط. وبعد الألم والضيق. وبعد الامتحان والابتلاء. وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الظامىء الشديد.

يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع.

ويا له من مشهد خِتامي موصول بمطلع القصة: ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة. ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه:

﴿فلمَّا دخلوا علىٰ يوسف آوىٰ إليه أبويه. وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾..

ويذكر رؤياه ويرىٰ تأويلها بين يديه في سجود إخوته له ـ وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه ـ كما رأىٰ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين:

﴿ورفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سجداً، وقال: يَا أبت هٰذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربِّي حقاً﴾..

ثمَّ يذكر نعمة الله عليه: **﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نَزَغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾** [يوسف: ١٠٠]..

ويذكر لطف الله في تدبيره لتحقيق مشيئته: **﴿إنَّ ربِّي لطيف لما يشاء﴾**.. يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها: **﴿إنَّه هو العليم الحكيم﴾** [يوسف: ١٠٠].. ذات التعبير الذي قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه في مطلع القصة:

﴿إنَّ ربَّك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٦].. ليتوافق البدء والختام حتى في العبارات..

* * *

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان، والرغد والأمان... ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر! كل دعوته ـ وهو في أبّهة السلطان، وفي فرحة تحقيق الأحلام ـ أن يتوفاه ربه مسلماً وأن يلحقه بالصالحين:

﴿ربِّ قد آتيتني من الملك، وعلَّمتني من تأويل الأحاديث. فاطر السَّماوات والأرض أنت وليِّي في الدنيا والآخرة. توفَّني مسلماً وألحقني بالصَّالحين﴾ [يوسف: ١٠١]..

ربِّ قد آتيتني من الملك سلطانه ومكانه وجاهه وماله. فذلك من نعمة الدنيا.

وعلَّمتني من تأويل الأحاديث.. بإدراك مآلاتها وتعبير رُؤاها. فذلك من نعمة العلم.

نعمتك يا ربِّي أذكرها وأُعددها..

﴿فاطر السَّماوات والأرض﴾.. بكلمتك خلقتها وبيدك أَمْرها، ولك القدرة عليها وعلى أهلها..

﴿أنت وليِّـي في الدنيا والآخرة﴾.. فأنت الناصر والمعين..

ربِّ تلك نعمتك. وهذه قدرتك.

ربِّ إنِّي لا أسألك سلطاناً ولا صحة ولا مالاً. ربِّ إنِّي أسألك ما هو أبقىٰ وأغنىٰ:

﴿توفَّني مسلماً وألحقني بالصَّالحين﴾..

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتـتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمّة الأخوان. ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه.

إنَّه النجاح المطلق في الامتحان الأخير..

اللفتات واللمسات الموحية:

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها. تلك التعقيبات التي أشرنا إليها في أثناء الحديث عن القصة. وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعددة، والجولات الموحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس، وفي آثار الغابـرين، وفي الغيب المجهول وراء الحـاضر المعلوم. فنـأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق القرآني. وهو ترتيب ذو هدف معلوم.

- إنَّ التعقيب الأول والمباشر يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله ﷺ بتقرير مأخوذ من هذا القَصص الذي لم يكن رسول الله ﷺ حاضراً وقائعه.

وتلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمَّد ﷺ ثمَّ بُعث إليهم. وفيها أسرار لم يعلمها إلاَّ الذين لامَسوها من أشخاص القصة، وقد غَبرت بهم القرون. وقد سبق في تقديم القصة قول الله تعالىٰ لنبيه:

﴿نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣] .

فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها، ويعطف ختامها على مطلعها:

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ [وسف: ١٠٢]..

والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مُؤثراً مُوحِياً من المؤثرات الكثيرة في سياق القصة، لتقرير الحقيقة التي يعرضانها، وتوكيدها في مواجهة الاعتراض والتكذيب.

ذلك القَصَص الذي مضىٰ في السياق من الغيب الذي لا تعلمه؛ ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنَّه كان غيباً بالقياس إليك. وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه. وهم يمكرون بيوسف، وهم يمكرون بأبيهم، وهم يُدبرون أمرهم بعد أَخْذ أخيه وقد خلصوا نجياً وهو من المكر بمعنىٰ التدبير. وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن.. كل أُولئك مكر ما كنتَ حاضره لتحكي عنه إنَّما هو **الوحي الذي سيقت السورة لِتُثْبته من بين ما تُثبت من قضايا هذه العقيدة**

وهذا الدين، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة.

- ومن ثمَّ يَعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله ﷺ وتهوين أمر المكذِّبين على نفسه. وبيان مدىٰ عنادهم وإصرارهم وعَمَاهم عن الآيات المبثوثة في كتاب الكون.

لقد كان من مقتضىٰ ثبوت الوحي، وإيماء القَصص، واللفتات واللمسات التي تحرك القلوب، أن يؤمن الناس بهذا القرآن، وهم يشهدون الرسول ﷺ ويعرفون أحواله، ثمَّ يسمعون منه ما يسمعون. ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون. وهم يمرون كذلك على الآيات المبثوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها، ولا يُدركون مدلولها، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرىٰ ما يواجهه. فما الذي ينتظرونه وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿وما أكثر الناس ـ ولو حرصت ـ بمؤمنين. وما تسألهم عليه من أجر، إن هو إلاَّ ذكر للعالمين. وكأيٍّ من آية في السَّماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون. أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتةً وهم لا يشعرون﴾ [يوسف: ١٠٣ ـ ١٠٧]..

ولقد كان الرسول ﷺ حريصاً على إيمان قومه، رغبة في إيصال الخير الذي جاء به إليهم، ورحمة لهم ممَّا ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة. ولكنَّ الله العليم بقلوب البشر، الخبير بطبائعهم وأحوالهم، ينهي إليه أنَّ حِرْصَه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان، لأنَّهم ـ كما قال في هذه الآيات ـ يمرون على الآيات الكثيرة معرضين. فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق.

وإنَّك لغني عن إيمانهم فما تطلب منهم أجراً على الهداية؛ وإنَّ شأنهم في الإعراض عنها لعجيب، وهي تُبذل لهم بلا أجر ولا مقابل:

﴿وما تسألهم عليه من أجر، إن هو إلاَّ ذكر للعالمين﴾..

تُذكرهم بآيات الله، وتُوجّه إليها أبصارهم وبصائرهم، وهي مبذولة للعالمين، لا احتكار فيها لأُمة ولا جنس ولا قبيلة، ولا ثمن لها يَعجز عنه أحد، فيمتاز الأغنياء على الفقراء، ولا شرط لها يعجز عنه أحد فيمتاز القادرون على العاجزين. إنَّما هي ذكرىٰ للعالمين. ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد..

﴿وكأيِّن من آية في السَّماوات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون﴾..

والآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون، معروضة للأبصار والبصائر. في السماوات وفي الأرض. يمرون عليها صباح مساء، آناء الليل وأطراف النهار. وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها. بارزة تواجه العيون والمشاعر. موحية تخايل القُلوب والعقول. ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق.

وإنَّ لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها. لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد. لحظة تأمل في الخضم الزاخر، والعين الفوارة، والنبع الروي. لحظة تأمل في النبتة النامية، والبرعم الناعم، والزهرة المتفتحة، والحصيد الهشيم. لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء، والسمك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأُمم من الحيوان والحشرات والهوام.. لحظة تأمل في صبح أو مساء، في هدأة الليل أو في زحمة النهار.. لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب.

إنَّ لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستجيب. ولكنهم **﴿يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾**.. لذلك لا يؤمن الأكثرون!

توحيد وتنزيه :

وحتى الـذين يؤمنون، كثيـر منهم يتدسس الشـرك ـ في صـورة من صوره ـ إلى قلوبهم. فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمـة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف، لتكون كلها لله، خالصة له دون سواه.

والإيمان الخالص يحتـاج إلى حسم كامـل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقىٰ في القلب دينونة إلاَّ لله ـ سبحانه ـ، ولا تبقىٰ في الحياة عبودية إلاَّ للمولىٰ الواحد الذي لا رادَّ لما يريد:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون﴾..

وهي إيقاع مُؤَثِّر بقدر ما تحمل من حقائق عميقة عن طبيعة الناس حين لا يدينون بدين الله الصحيح. فهذا هو التصوير العميق لكثير من النفوس التي يختلط فيها الإيمان بالشرك، لأنَّها لم تحسم في قضية التوحيد **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون﴾..**

مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشيـاء والأشخاص. مشركون سبباً من الأسباب مع قـدرة الله في النفع أو الضـر سواء. مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو مُوجِّه لا يستمد من شـرع الله دون سواه. مشـركون في رجـاء يتعلق بغيـر الله من عبـاده على الإطلاق. مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس. مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله. مشركون في عبادة يُلْحظ فيها وَجْه مع وجه الله.. لذلك يقول رسـول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفىٰ من دبيب النمل»[1].

(١) رواه الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي ـ بإسناده ـ عن معقل بن يسار. قال: شهدت النَّبيّ ﷺ أو قال: حدَّثني أبو بكر الصدِّيق عن رسول الله ﷺ.

وفي الأحاديث النبوية الشريفة نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي ـ وحسَّنه ـ من رواية ابن عمر: «من حَلَف بغير الله فقد أشرك» . .

وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرقى والتمائم شرك» .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَلَّق تميمة فقد أشرك» .

وعن أبي هريرة بإسناده ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه» .

وروىٰ الإمام أحمد عن أبي سعيد ابن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد: من كان أشرك في عَمل عَمِلَه لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإنَّ الله أغنى الشركاء عن الشرك» .

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن محمود بن لبيد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء. يقول الله تعالىٰ يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء»؟ .

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة . الدينونة في شَرع يتحاكم إليه ـ وهو نص في الشرك لا يُجادَل عليه ـ والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يُشرِّعها الناس ولم

يشرعها الله. والدينونة في زيّ من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر.. والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد، وتركاً للأمر الواضح الصادر من رب العبيد.. إنَّه عندئذٍ لا يكون ذنباً، ولكنه يكون شِرطاً. لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله.. وهو من هذه الناحية أمر خطير..

ومن ثمَّ يقول الله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون﴾..

فتنطبق على من كان يواجههم رسول الله في الجزيرة، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان.

وبعد فما الذي ينتظره أُولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة في صفحات الوجود، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التي لا يسألون عليها أجراً؟

ماذا ينتظرون؟

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون؟﴾..

وهي لمسة قوية لمشاعرهم، لإيقاظهم من غفلتهم، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة. فإنَّ عذاب الله الذي لا يعلم موعده أحد، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفّهم وتشملهم، وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون..

إنَّ الغيب موصد الأبواب، لا تمتد إليه عين ولا أُذن، ولا يدري أحد ماذا سيكون اللحظة، فكيف يأمن الغافلون؟

وإذا كانت آيات هذا القرآن الذي يحمل دليل الرسالة، وكانت الآيات التي يحفل بها الكون معروضة للأنظار.. إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها

وهم عنها معرضون، ويشركون بالله شركاً ظاهراً أو خفياً وهم الأكثرون. فالرسول ﷺ ماضٍ في طريقه ومن اهتدىٰ بهديه، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين..

ـ وهنا يجيء الإيقاع الكبير العميق المؤثر الموحي، بتوجيه الرسول ﷺ إلى تحديد طريقه وإفرادها عن كل طريق، والمفاصلة على أساسها الواضح الفريد:

﴿قل هٰذه سبيلي أدعو إلىٰ الله على بصيرة أنا ومن اتَّبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين﴾ [يوسف: ١٠٨]..

﴿قل: هٰذه سبيلي﴾.. واحدة مستقيمة، لا عِوَج فيها ولا شك ولا شبهة.. **﴿أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتَّبعني﴾** فنحن على هدىٰ من الله ونور. نعرف طريقنا جيداً، ونسير فيها على بَصَر وإدراك ومعرفة، لا نخبط، ولا نتحسس، ولا نحدس. فهو اليقين البصير المستنير. نُنَزّه الله ـ سبحانه ـ عمَّا يليق بألوهيته، وننفصل وننعزل ونتميز عن الذين يشركون به: **﴿وما أنا من المشركين﴾**.. لا ظاهر الشرك ولا خافيه. هذه طريقي فمن شاء فليتابع، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم.

وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التَمَيُّز، لا بد لهم أن يُعلنوا أنَّهم أُمَّة وحدهم، يفترقون عمَّن لا يعتقد عقيدتهم، ولا يسلك مسلكهم، ولا يدين لقيادتهم، ويتميزون ولا يختلطون!

ولا يكفي أن يدعوا أصحاب هذا الدين إلى دينهم، وهم مُتَميّعون في المجتمع الجاهلي. فهذه الدعوة لا تُؤدي شيئاً ذا قيمة إنَّه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يُعلنوا أنَّهم شيء آخر غير الجاهلية؛ وأن يتميزوا بتجمع خاص آصرته العقيدة المتميزة، وعنوانه القيادة الإسلامية.. لا بد أن يُميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي وأن يُميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضاً!

إنَّ اندماغهم وتَميّعهم في المجتمع الجاهلي، وبقاءهم في ظل القيادة

الجاهلية، يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم، وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم، وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة.

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين.. إنَّ مجالها هو مجال هذه الدعوة كلَّما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس.. وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصيلة، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أُخرىٰ واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ!

والذين يظنون أنَّهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام.. هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب!..

إنَّ أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم! أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص؟ وطريقهم الخاص؟ وسبيلهم التي تفترق تماماً عن سبيل الجاهلية؟

عبرة ومصير :

ثمَّ لفتة إلى سُنة الله في رسالاته، وإلى بعض آيات الله في الأرض من مصائر السابقين..

إنَّ محمَّداً ليس بِدعاً من الرسل، ورسالته ليست بدعاً من الرسالات. وهذه عواقب الذين كذَّبوا من قبل، آيات معروضة في الأرض..

﴿**وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرىٰ. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم..**﴾ [يوسف: ١٠٩]..

إنَّ النـظر في آثار الغـابرين يهـز القلوب. حتى قلوب المُتجبرين. ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم؛ وتصـورهم أحياء يروحـون في هذه الأمكنـة ويجيئون، يخـافون ويـرجون، يـطمعون ويتطلّعون. . ثمَّ إذا هم ساكنون، لا حس ولا حركة. آثارهم خاوية، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنّة في الضمائر والمشاعر. .

إنَّ هذه التأملات لتهز القلب البشري هزاً مهما يكن جاسياً غافـلاً قاسياً. ومن ثمَّ يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابـرين بين الحين والحين:

﴿وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرىٰ﴾ . .

لم يكونوا ملائكة ولا خَلقـاً آخر. إنَّمـا كانـوا بشراً مثلك من أهـل الحاضرة، لا من أهل البادية، ليكونوا أرقّ حاشية وألين جانباً. . وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية، فرسالتك ماضية على سُنة الله في إرسال رجال من البشر نوحي إليهم. .

﴿أفلم يسيـروا في الأرض فينـظروا كيف كـان عـاقبـة الـذين من قبلهم؟﴾ . . فيدركوا أنَّ مصيرهم كمصيرهم؛ وأنَّ سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم؛ وأنَّ عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب:

﴿ولدار الآخرة خير للَّذين اتقوا﴾. خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار.

﴿أفلا تعقلون؟﴾ [يوسف: ١٠٩]. . فَتَدبّروا سُنن الله في الغابرين؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير؟

صورة رهيبة :

ثمَّ يُصوّر ساعات الحرج القـاسية في حيـاة الرسـل، قبيل اللحـظة

الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله، وتمضي فيها سنَّته التي لا تتخلف ولا تحيد:

﴿حتّىٰ إذا استيأس الرسل، وظنُّوا أنَّهم قد كُذِبوا، جاءهم نصرنا، فنجِّي من نشاء، ولا يردُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [يوسف: ١١٠]..

إنَّها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمىٰ والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يَدعون فلا يستجيب لهم إلاَّ قليل، وتكرّ الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.

إنَّها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغىٰ ويبطش ويغدر. والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كُذِبوا؟ ترىٰ نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلاَّ وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يُطيقه بشر. وما قرأت هذه الآية والآية الأُخرىٰ:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضراء وزُلزلوا حتّىٰ يقول الرسول والذين آمنوا معه؟...﴾ [البقرة: ٢١٤].. ما قرأت[1] هذه الآية أو تلك إلاَّ وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرجّ نفس الرسول هذه الرجّة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحسّ به من أَلَم لا يُطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق

---

(١) في ظلال القرآن، ص ٢٠٣٦.

بمخانق الرسل، ولا تبقىٰ ذرة من الطاقة المدخرة. . في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً:

﴿جاءهم نصرنا، فنجِّي من نشاء، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [يوسف: ١١٠]. .

تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثمَّ يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالمجرمين، مُدمراً ماحقاً لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير. ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً. فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً. أو تكلفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً. فإنَّما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء. والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة، لذلك يشفقون أن يدَّعوها، فإذا ادَّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلاَّ الواثقون الصادقون؛ الذين لا يتخلون عن دعوة الله، ولو ظنوا أنَّ النصر لا يجيئهم في هذه الحياة!

إنَّ الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل، إمَّا أن تربح ربحاً معيناً محدداً في هذه الأرض، وإمَّا أن يتخلىٰ عنها أصحابها إلى تجارة أُخرىٰ أقرب ربحاً وأيسر حصيلة!

والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية ـ والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان ومكان ـ يجب أن يُوَطِّن نفسه على أنَّه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة

مادية قريبة الأجل! إنَّما ينبغي له أن يستيقن أنَّه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها وتهديدها بأنَّ أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات! . .

ويجب أن يستيقنوا أنَّ الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف، وأنَّ الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضاً. وأنَّه من ثمَّ لا تنضم إليها ـ في أول الأمر ـ الجماهير المُستَضعفة، إنَّما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، والتي تُؤْثِر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا. وأنَّ عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً. ولكنَّ الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق، بعد جهاد يطول أو يقصر. وعندئذٍ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجاً.

الطبيعة الحركية للقصة وأثرها في التربية الإسلامية :

وتبقىٰ وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها في مجال الحركة الإسلامية؛ وإيحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة في بعض مراحلها. ومع حاجاتها الثابتة التي لا تتعلق بمرحلة خاصة منها. إلى جانب الحقائق الكبرىٰ التي تتقرر من خلال سياق القصة والتعقيبات عليها. .

ونكتفي بلمحات سريعة من هذا كله:

ـ لقد أشرنا إلى مناسبة قصة يوسف بجملتها للفترة الحرجة التي كانت تمر بها الحركة الإسلامية في مكة عند نزول السورة، وللشدة التي كان رسول الله ﷺ والقلة المؤمنة معه يتعرضون لها، وذلك بما تحمل القصة من عرض لابتلاءات أخ كريم للنَّبي الكريم؛ ثمَّ بما تحمله بعد ذلك من استفزاز من الأرض ثمَّ تمكين.

وهذا الذي سبق أن قررناه يُصوّر لوناً من إيحاءات القصة المتوافية مع حاجات الحركة الإسلامية في تلك الفترة؛ ويقرب معنىٰ «الطبيعة الحركية» لهذا القرآن وهو يزود الدعوة، ويدفع الحركة، ويوجه الجماعة المسلمة توجيهاً واقعياً إيجابياً محدد الهدف مرسوم الطريق.

ـ كذلك أشرنا في ثنايا تحليل القصة إلى الصورة الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة للإسلام، كما عرضها يوسف ـ عليه السَّلام ـ. وهي صورة تستحق الوقوف أمامها طويلاً..

إنَّها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعاً، واستيفاء مقوماتها الأساسية في كل رسالة؛ وقيامها على التوحيد الكامل لله ـ سبحانه ـ، وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده، ودينونة البشر له وحده.. كما تقرر تضَمُّن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة. وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه «علم الأديان المقارن» من أنَّ البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلاَّ أخيراً جداً، بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة؛ وأنَّها ترقَّت في معرفة العقيدة كما ترقَّت في معرفة العلوم والصناعات.. هذه المزاعم التي تتجه إلى تقرير أنَّ الأديان من صُنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات[1]. كذلك هي تقرر طبيعة ديانة التوحيد التي جاء بها الرسل جميعاً.. إنَّه ليس توحيد الألوهية فحسب. ولكنه كذلك توحيد الربوبية.. وتقرير أنَّ الحكم لله وحده في أمر الناس كله؛ وأنَّ هذا التقرير ناشىء من أمر الله ـ سبحانه ـ بألاَّ يُعبد إلاَّ إياه. والتعبير القرآني الدقيق في هذه القضية يحدد مدلول « العبادة » تحديداً دقيقاً. فهي الحكم من جانب الله والدينونة من جانب البشر.. وهذا وحده هو «الدين القيِّم» فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده،

---

(١) يراجع عن هذه القضية: في ظلال القرآن، الجزء الثَّاني عشر، ص ١٨٧٨ ـ ١٨٨٢.

وما لم يكن الحكم لله وحده. ولا عبادة لله إذن إذا دان الناس لغير الله في شأن واحد من شؤون الحياة.

فتوحيد الألوهية يقتضي توحيد الربوبية. والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله. . أو أن تكون العبادة لله. فهما مترادفان أو متلازمان. . والعبادة التي يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هي الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه.

وهذا التقرير القرآني بصورته هذه الجازمة ينهي كل جدل في اعتبار الناس في أي زمان وفي أي مكان مسلمين أو غير مسلمين، في الدين القيّم أم في غير هذا الدين. . فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة. . من دان لغير الله وحكّم في أي أمر من أمور حياته غير الله، فليس من المسلمين وليس في هذا الدين.

ومن أفْرد الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه فهو من المسلمين وفي هذا الدين..

وكل ما وراء ذلك تمحُّل لا يحاوله إلاَّ المهزومون أمام الواقع الثقيل في بيئة من البيئات وفي قرن من القرون. . ودين الله واضح. وهذا النص وحده كاف في جعل هذا الحكم من المعلوم من الدين بالضرورة. من جادل فيه فقد جادل في هذا الدين!

ـ ومن الإيحاءات الواردة في ثنايا القصة صورة الإيمان المتجرد الخالص الموصول كما تتجلىٰ في قَلْبيْ عَبدين صالحين من عباد الله المختارين: يعقوب ويوسف: فأمَّا يوسف فقد أشرنا من قبل إلى موقفه الأخير متجرداً من كل شيء، نافضاً عنه كل شيء، مُتجهاً إلى ربه، مبتهلاً إليه في انكسار وخشوع يناجيه:

﴿ربِّ قد آتيتني من الملك، وعلَّمتني من تأويل الأحاديث، فاطر

السَّماوات والأرض، أنت وليِّي في الدنيا والآخرة، توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠١]..

ولكن هذا الموقف الأخير لم يكن هو كل شيء في هذا الجانب؛ فهو على مدار القصة يقف هذا الموقف، موصولاً بربه، يحسّه ـ سبحانه ـ قريباً منه مستجيباً له:

في موقف الإغراء والفتنة والغواية يهتف:

﴿معاذ الله! إنَّه ربِّي أحسن مثواي. إنَّه لا يفلح الظالمون﴾ [يوسف: ٢٣]..

وفي الموقف الآخر وهو يخشىٰ على نفسه الضعف والميل يهتف كذلك:

﴿ربِّ، السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه، وإلاَّ تصرف عنِّي كيدهنَّ أصبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين﴾ [يوسف: ٣٣]..

وفي موقف تعريف نفسه لإخوته، يبيِّن فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها:

﴿قالوا: أئنَّك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف، وهٰذا أخي قد منَّ الله علينا، إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠]..

وكلها مواقف تحمل إيحاءات يتجاوز مداها حاجة الحركة الإسلامية في مكة، إلى حاجة الحركة الإسلامية في كل فترة وفي كل مكان.

وأمَّا يعقوب ففي قلبه تتجلىٰ حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة في كل موقف وفي كل مناسبة؛ وكلَّما اشتدَّ البلاء شفت تلك الحقيقة في قلبه ورفت بمقدار ما تعمقت وبرزت.

فمنذ البدء يوسف يقص عليه رؤياه يذكر ربه ويشكر نعمته:

﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته

عليك كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إنَّ ربك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٦]..

وفي مواجهة الصدمة الأولىٰ في يوسف يتجه إلى ربه مستعيناً به:

﴿قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٨]..

وفي مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه، وهو يُوصيهم ألاَّ يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة، لا ينسىٰ أنَّ هذا التدبير لا يُغني عنهم من الله شيئاً، وأنَّ الحكم النافذ هو حكم الله وحده، وإنَّما هي حاجة في النفس لا تغني من الله وقَدَره:

﴿وقال: يَـٰا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أُغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلاَّ لله، عليه توكَّلت، وعليه فليتوكَّل المتوكلون﴾ [يوسف: ٦٧]..

وفي مواجهة الصدمة الثانية في كبرته وهرمه وضعفه وحزنه، لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه:

﴿قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً؛ إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ٨٣]..

ثمَّ يبلغ تجلي الحقيقة في قلب يعقوب درجة البهاء والصفاء، وبنوه يُؤنبونه على حزنه على يوسف وبكائه له حتى تبيض عيناه من الحزن؛ فيواجههم بأنَّه يجد حقيقة ربه في قلبه كما لا يجدونها، ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون؛ فمن هنا اتجاهه إليه وحده وشكواه له وبثه؛ ورجاؤه في رحمته ورَوْحه:

﴿وتولىٰ عنهم وقال: يَـٰا أسفا علىٰ يوسف! وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتّىٰ تكون حرضاً أو تكون من

الهالكين! قال: إنَّما أشكو بثّي وحزني إلىٰ الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون.. يَا بنيَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، ولا تيْأسوا من رَوْح الله، إنَّه لا ييْأس من روْح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٤ - ٨٧].

ولقد ذكّرهم بما يَعْلَمه من شأن ربه وما يجده من حقيقته في قلبه، وهم يُجادلونه في ريح يوسف، وقد صدّق الله فيه ظنه:

﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم: إنِّي لأجد ريح يوسف، لولا أن تُفنِّدون. قالوا: تالله إنَّك لفي ضلالك القديم. فلمَّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً، قال: ألم أقل لكم: إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٦].

إنَّها الصورة الباهرة لتجلي حقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفوة المختارة. وهي تحمل الإيماء المناسب لفترة الشدة في حياة الجماعة المسلمة في مكة؛ كما أنَّها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة، لكل قلب يعمل في حقل الدعوة والحركة بالإسلام على مدار الزمان أيضاً.

سُنَّة الله وقَدَره:

إنَّ قصة يوسف منهج في التربية عجيب.. فالابتلاء والمحن ثقيلة على النفس الإنسانية. ولكن ماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس ممَّا وراء الستر المُسدَل؟

إنَّ الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر.. والمتأمل في حوادث الزمن وتجارب الأيام، يرىٰ أنَّ النِعَم قد تكون سبيلاً إلى الشرور والنِقَم، وأنَّ المصائب والمتاعب قد تكون مفتاحاً للخير والنجاح.. وكما قال الشاعر الحكيم:

قد ينعم الله بالبلوىٰ وإن عظمت ويبتلي الله بعض الناس بالنعم

ولقد كانت أيام المحنة في حياة يوسف ـ عليه السَّلام ـ أساساً لما حباه الله بعد ذلك من النعمة والفضل، ومفتاحاً لما أحرزه من خير ونجاح، ومَجْد وسلطان. . ليس ليوسف فحسب، وإنَّما لبني إسرائيل كما ورد في قوله: ﴿. . **وأتوني بأهلكم أجمعين**﴾ [يوسف: ٩٣]. . فقد بدأ عهد جديد فيه العزّ والتمكين.

وكل إنسان في تجاربه الخاصة ـ يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم. وَلَذَّات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم. وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته، ثمَّ تبيَّن له بعد فترة أنَّه كان إنقاذاً من الله أن فوّت عليه هذا المطلوب في حينه. وكم من محنة تجرّعها الإنسان لاهثاً يكاد يتقطَّع لفظاعتها. ثمَّ ينظر بعد فترة فإذا هي تنشىء له في حياته من الخير ما لم يُنشئه الرخاء الطويل.

إنَّ الإنسان لا يعلم. والله وحده يعلم. فماذا على الإنسان لو يرضىٰ ويستسلم؟

إنَّ هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ به القرآن النفس البشرية. لتؤمن وتستسلم في أمر الغيب المخبوء، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف. .

إنَّ الصبر والتقوىٰ هما زاد المؤمن في الطريق إلى الله ﴿**إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾. . تلك هي قول يوسف ـ عليه السَّلام ـ. وهي القاعدة التي ينبغي أن نعضّ عليها بالنواجذ.

هذا هو الطريق: إيمان وجهاد. . ومحنة وابتلاء. . وصبر وثبات وتَوَجُّه إلى الله.

إنَّها سنة الله وقدره. . لا بد من بلاء، ولا بد من أذىً في الأموال والأنفس. . ﴿**لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً. وإن تصبروا وتتَّقوا فإنَّ**

ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٦]. . ﴿ولنبلونّكم حتّىٰ نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [محمّد: ٣١]. .

إنَّه وَعْد من الله بالابتلاء. . الابتلاء بالسراء والضراء، وبالنعماء والبأساء، وبالسعة والضيق، والفرج والكرب. . كلها تكشف عمًّا هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها. .

ومع هذا فإنَّ العبد المؤمن يرجو ألاَّ يتعرض لبلاء الله وامتحانه. ويتطلع إلى عافيته ورحمته. فإن أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له، وهو مدرك لما وراءه من حكمة، واستسلم لمشيئة الله واثقاً من حكمته، متطلعاً إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء. وهي صورة وضيئة للروح المؤمنة، اللطيفة، الشفيفة الحساسية المتصلة بالله في البلاء والشدة، تثبت وتتقي، تتجه إلى ربها، في غير تلجلج ولا انحراف. . هذه الروح التي تؤمن بقدر الله ورحمته وهي في معترك الشدة والبلاء. . هي التي تحمل القلوب اليقظة المستنيرة بنور القرآن وتوجيهاته.

يقول العلاَّمة الأُستاذ أبو الحسن الندوي:

«ولا تَقِلّ قصة يوسف عن قصة إبراهيم في الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعي. خاضعة لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب.

فقد اجتمع له من حَسَد الإخوة وكيدهم له، والبقاء في غيابت الجب مدة من الزمان، والتقاط السيارة له، والرقّ، ما هو كفيل بالتعرض للهلاك والإذلال والهوان. ولكنه يخرج من كل هذا سليماً معافىً، ويعيش، ويجتمع له من الوقوع في امتحان شديد، في العفة والنزاهة والوفاء والشرف، ويعتصم، مع توفر الدواعي القوية والمغريات القاهرة، والإغراء ـ من شباب وجمال وطَلَب وإلحاح شديد من جانب، له الفضل وله السلطان وله الاستهواء ـ والتصاق التهمة الشنيعة به، والدخول في السجن في تهمة

خلقية، وفي عصر لم يكن السجن فيه إلاَّ رمزاً للجريمة، ولم يكن إلاَّ مكان الأشقياء ومن سوء القالة والأحدوثة في البلد.

وقد كان زيادة على ذلك غريباً عن مصر لا يتصل فيها بجنسية ووطنية، وكان فرداً من شعب ينظر إليه المصريون باحتقار واستخفاف كبير، وكان الإسرائيلي آخر من يُفكر فيه لشرف أو حكومة في مصر، كل ذلك كفيل بإخمال ذكره، وإضعاف شأنه وإساءة شهرته، وحرمانه من كل ثقة وتكريم، وبُعده عن كل مركز محترم ومكان مرموق في المجتمع المصري، فضلاً عن إمارة وسيادة، وفضلاً عن تقليد منصب جليل، لا يَحظىٰ به إلاَّ السيد الكريم، الحفيظ العليم، وفضلاً عن أن يكون سيّد مصر المطاع يأمر ويَنهىٰ ويُرجىٰ ويُخشىٰ، ولكن عكس ذلك يقع بين سَمْع الناس وبصرهم، ويتربّع يوسف ـ عليه السَّلام ـ على أريكة مصر، ويتقلد مفاتيحها وزمام الأمور فيها.. **﴿وكذلك مكَّنَّا ليوسف في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء، ولا نضيع أجر المحسنين﴾** [يوسف: ٥٦]..

لقد كان هناك مماثلة بين قصة يوسف ومحمَّد ﷺ.. إنَّ آخر الرسل ﷺ، ومن آمَن به ووضع يده في يده من أفراد قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة، ومثل هذه المشكلات: قلة عدد، وضعف شأن، وفَقْد أسباب، وخذلان من العشيرة، ومحاربة شديدة من القوم، ومقاطعة وتطويق، وإحصار وتضييق، وصدّ عن سبيل الله، وتعذيب شديد للمهتدين الذين كانوا يسمونهم «الصابئين» و«السفهاء»، وتآمر على قتل الرسول، ذعر دائم، وخوف قائم، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن، ولا تصوير أدق وأصدق من تصويره **﴿واذكروا إذ أنتم قليل مُستضعفون في الأرض، تخافون أن يتخطَّفكم الناس﴾** [الأنفال: ٢٦]..

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تُثير أملاً، ولا تُبشِّر بمستقبل، ولا يُرىٰ فيها وميض من النور، قَصَّ على رسوله ﷺ قصة يوسف، وسيرته ﷺ من

أشبه السير به، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع إخوته؛ حَسَد ومحاربة في البداية، واعتراف وإجلال وندم في النهاية، وإبعاد وإقصاء ونكران وجفاء في الأول، وخضوع والتجاء واستعطاف واستجداء في الآخر، وغيابت الجب في محنة يوسف. وغار ثور في رحلة محمَّد ﷺ، وسجن في قصة سيدنا يوسف. وشُعب أبي طالب في قصة سيدنا محمَّد، وتقرير وإعلان من أعداء كل منهما: **﴿تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنَّا لخاطئين﴾** [يوسف: ٩١].. والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين: **﴿لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الرَّاحمين﴾**(١) [يوسف: ٩٢]..

وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله: **﴿نحن نقصُّ عليك أحسن القَصَص بما أوحينا إليك هـٰذا القرآن...﴾** [يوسف: ٣].. وختمها بقوله: **﴿لقد كان في قَصَصهم عبرة لأُولي الألباب﴾** [يوسف: ١١١]..

وهكذا نزلت هذه السورة في جو مكة الثقيل، ليبشر رسول الله ﷺ بمستقبله العظيم المشرق الزاهر، فكأنَّ قصة يوسف قصته، ولم تزل الكناية ـ في الجو المعادي الرهيب ـ أبلغ من التصريح دائماً»(٢).

---

(١) رویٰ القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٥٨/٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ أخذ بعُضَادَتَي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذَ الناسُ بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «ما تظنون يا معشر قريش» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قَدَرت؛ قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف **﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾** فقال عمر رضي الله عنه: ففِضْتُ عرقاً من الحياء من قول رسول الله ﷺ، ذلك أنِّي قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلمَّا قال رسول الله ﷺ ما قال استحييتُ من قولي.

(٢) كتاب «النبوة» ص ٩٥.

النموذج الكامل لمنهج الإسلام :

سورة يوسف ذات طابع متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة. فالقصص القرآني ـ غير قصة يوسف ـ يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وَجَوّها. وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب وَرَد مختصراً مُجملاً. أمَّا قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة. وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً. هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة؛ ويؤديها أداءً كاملاً. ذلك أنَّها تبدأ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلها.. بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرىٰ.

وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه؛ فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سيقت القصة، والتعقيبات التي تلتها.

ـ إنَّ قصة يوسف تُمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تُمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضاً.. ومع أنَّ المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلاّ أنَّ قصة يوسف تبدو وكأنَّها المَعرض المُتَخَصّص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء!

ـ إنَّ القصة تعرض شخصية يوسف ـ عليه السَّلام ـ وهي الشخصية الرئيسية في القصة ـ عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات. وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة؛ وهي ابتلاءات مُتنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء. وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان. وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر تجاه شتّىٰ المواقف وشتّىٰ

الشخصيات.. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا.

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز. وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال.. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها المتكاملة. متمثلة في نماذج متنوعة:

نموذج يعقوب الوالد المُحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول..

ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها..

ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأُنثوية، كما تصنعها وتُوجّهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك. إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة..

ونموذج النسوة من طبقة العلّية في مصر الجاهلية! والأضواء التي تُلقيها على البيئة، ومنطقها كما يتجلىٰ في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها، وفي إغرائهنَّ كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهنَّ جميعاً. وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها، كما يتجلّىٰ في سجن يوسف بصفة خاصة.

ونموذج «العزيز» وعليه ظلال طبقته، وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه!..

ونموذج « الملك » في خَطْفَة يتوارىٰ بعدها كما توارىٰ العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق . .

وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحَشد من الشخصيات والبيئات، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر . .

ومع استيفاء القصة لكل ملامح « الواقعية » السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة . . فإنَّها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة . . المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة، وفي الوقت ذاته لا يُنشىء مستنقعاً من الوَحْل يُسميه « الواقعية » كالمستنقع الذي أنشأته « الواقعية » الغربية الجاهلية!

وقد ألمَّت القصة بألوان من الضعف البشري؛ بما فيها لحظة الضعف الجنسي، ودون أن تزوِّر ـ أي تزوير ـ في تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة في هذه المواقف، ودون أن تغفل أي لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف، فإنَّها لم تُسرف قط لتنشىء ذلك المستنقع المُقَزِّز للفطرة السليمة، ذلك الذي يسمونه في جاهلية القرن العشرين « الواقعية » أو يسمونه أخيراً « الطبيعية! »، وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف:

ـ إخوة يوسف . . والأحقاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها! ثم تُزين لهم « المُحلِّل الشرعي! » الذي يخرجون به من تلك الجريمة . . ملاحَظاً في هذا واقعيتهم في بيئتهم الدينية ـ وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ وانطباعات هذه البيئة في تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم، وحاجتهم النفسية ـ من ثَمَّ ـ إلى مبرر للجريمة، وإلى

طريقة للتحلّل من نكارتها وبشاعتها.

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين. إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ـ ونحن عصبة ـ إنَّ أبانا لفي ضلال مبين! اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم، وتكونوا من بعده قوماً صالحين! قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب، يلتقطه بعض السيارة ـ إن كنتم فاعلين! ـ قالوا: يا أبانا، ما لَكَ لا تأمنَّا علىٰ يوسف؛ وإنَّا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ، وإنَّا له لحافظون! قال: إنِّي ليحزنني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنَّا إذاً لخاسرون. فلمَّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبِّ، وأوحينا إليه لتنبئنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وجاؤوا أباهُم عشاءً يبكون، قالوا: يَا أبانا، إنَّا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين. وجاؤوا على قميصه بدم كذب، قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ٧ ـ ١٨]..

ونحن نجدهم ـ هُم هُم ـ في كل مواقف القصة بعد ذلك ـ كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها ـ فما إن يذهبوا بأخي يوسف بعدما طلبه منهم وهم لايعرفونه يحسبون أنَّه عزيز مصر الذي قدموا من بلادهم ـ كنعان ـ ليشتروا منه القمح في سنوات الجدب العجاف، حيث يُدبر الله ليوسف أن يأخذ أخاه منهم بحجة أنَّه وجد صواع الملك في رحله.. ما إن يروا هذا التدبير ـ وهم لا يعلمون ما وراءه ـ حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف:

﴿قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل! فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم. قال: أنتم شر مكاناً، والله أعلم بما تصفون﴾ [يوسف: ٧٧]..

كذلك نجدهم ـ هم هم ـ بعد مواجهة أبيهم بالفجيعة الثانية في شيخوخته الحزينة، فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم، دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة:

﴿وتولىٰ عنهم. وقال: يَا أسفا علىٰ يوسف! وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتّىٰ تكون حرضاً أو تكون من الهالكين!﴾ [يوسف: ٨٤ ـ ٨٥]. .

ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه في النهاية ـ بعد ما كَشَف لهم عن شخصيته ـ فلمَّا رأوا أباهم يستنشق عبير يوسف، غاظهم هذا الاتصال الباطني الدال على عمق ما بينه وبين يوسف، فلم يَملكوا أنفسهم أن يبكتوه ويؤنبوه:

﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم: إنِّي لأجد ريح يوسف، لولا أن تُفنِّدون! قالوا: تالله إنَّك لفي ضلالك القديم!﴾ [يوسف: ٩٤، ٩٥]. .

ـ **وامرأة العزيز**. . في صُرَع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح، فلا تحفل حياء أنثوياً ولا كبرياء ذاتياً، كما لا تحفل مركزاً اجتماعياً ولا فضيحة عائلية. . والتي تستخدم ـ مع ذلك ـ كل مكر الأنثىٰ وكيدها، سواء في تبرئة نفسها أو حماية مَن تهوىٰ من جرائر التهمة التي ألصقتها به، وتحديد عقوبة لا تُودي بحياته! أو ردّ الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهنَّ من معرفتها لنفسها! أو التبجُّح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام مَن تهوىٰ، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة، حيث تبدو فيها الأنثىٰ مُتجردة من كل تجمل المرأة وحيائها، الأنثىٰ التي لا تحسّ في إرواء هواتفها الأنثوية أمراً يُعاب أصلاً!

ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها، فإنَّ الأداء القرآني الذي

ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلىٰ للأداء الفني الإسلامي ـ لم يتخلَّ عن طابعه النظيف مرة واحدة ـ حتى وهو يُصور لحظة التعرّي النفسي والجسدي الكامل بكلِ اندفاعها وحيوانيتها ـ لينشىء ذلك المستنقع الكريه الذي يتمرغ في وَحْلِه كُتَّاب «القصة الواقعية» وكُتَّاب «القصة الطبيعية» في هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفني في الأداء!

﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: أكرمي مثواه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض، ولنعلّمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون. ولمَّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين. وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلَّقت الأبواب وقالت: هيت لك! قال: معاذ الله! إنَّه ربِّي أحسن مثواي، إنَّه لا يفلح الظالمون، ولقد همَّت به وهمَّ بها، لولا أن رأىٰ برهان ربه. كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنَّه من عبادنا المُخلصين. واستبقا الباب، وقدَّت قميصه من دُبُر، وألفيا سيدها لدىٰ الباب، قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلَّا أن يُسجن أو عذاب أليم؟! قال: هي راودتني عن نفسي، وشهد شاهد من أهلها: إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصَّادقين. فلمَّا رأىٰ قميصه قُدَّ من دُبُرٍ قال: إنَّه من كيدكنَّ، إنَّ كيدكنَّ عظيم! يوسف أعرض عن هٰذا واستغفري لذنبك إنَّك كنت من الخاطئين!..

وقال نسوةٌ في المدينة: امرأة العزيز تُراود فتاها عن نفسه! قد شغفها حباً!! إنَّا لنراها في ضلال مبين! فلمَّا سمعت بمكرهنَّ أرسلت إليهنَّ، وأعتدت لهنَّ مُتَّكأً، وآتت كل واحدة منهنَّ سكيناً، وقالت: اخرج عليهنَّ! فلمَّا رأينه أكبرنه، وقطّعن أيديهنَّ، وقلن: حاشىٰ لله! ما هٰذا بشراً إن هٰذا إلَّا ملك كريم. قالت: فذلكنَّ الذي لُمتنَّني فيه! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنَنَّ وليكوناً من الصاغرين. قال:

ربِّ، السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه، وإلَّا تصرف عني كيدهنَّ أصْبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنَّ، إنَّه هو السميع العليم﴾ [يوسف: ٢١ ـ ٣٤]..

وكذلك حين نلتقي بها مرة أُخرىٰ بعدما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة، وبقي هناك حتى رأىٰ الملك رؤياه، وتذكّر الفتىٰ الذي كان سجيناً معه أنَّ يوسف هو وحده الذي يعرف تأويل الرؤيا، فطلب الملك أن يأتوه به، فأبىٰ حتى يُحقق قضيته، ويُبرىء ساحته، فاستدعاها الملك مع النسوة. وإذا بها ما تزال المرأة المُحِبّة، مع التغير الطبيعي الواقعي الذي يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف؛ ومع تَسرُّب الإيمان الذي تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعاً:

﴿وقال الملك: ائتوني به. فلمَّا جاءه الرسول قال: ارجع إلى ربِّك فاسأله: ما بال النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ؟ إنَّ ربي بكيدهنَّ عليم. قال: ما خطبكنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه؟ قلن: حاشىٰ لله! ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز: الآن حَصْحَص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أُبرِّىءُ نفسي، إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء إلَّا ما رَحِمَ ربي، إنَّ ربِّي غفور رحيم﴾ [يوسف: ٥٠ ـ ٥٣]..

ـ ويوسف.. العبد الصالح ـ الإنسان ـ لم يزوّر الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحة واحدة؛ وهو يواجه الفتنة بكل بشريته ـ مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه ـ، وبشريتُه مع نشأته وتربيته ودينه تُمثّل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها.. لقد ضعف حين همَّت به حتى هَمَّ بها؛ ولكن الخيط الآخر شَدَّه وأنقذه من السقوط فعلاً. ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة ومنطق البيئة، وجوّ القصور، ونسوة القصور أيضاً! ولكنه تمسّك بالعروة الوثقىٰ.. ليست هنالك لمحة واحدة مزوّرة في واقعيته الشخصية

وطبيعتها؛ وليس هنالك رائحة من مُستنقعات الجاهلية وَوَحْلِها الفني! ذلك أنَّ هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه..

ـ **والعزيز**.. وشخصيته بطبيعتها الخاصة، وبطبيعة سَمت الإمارة؛ ثمَّ بضعف النَخوة، وغَلَبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته:

﴿فلمَّا رأىٰ قميصَه قُدَّ من دُبُر، قال: إنَّه من كيدكنَّ، إنَّ كيدكنَّ عظيم. يوسف أعرض عن هٰذا، واستغفري لذنبك، إنَّك كنت من الخاطئين!﴾ [يوسف: ٢٨ ـ ٢٩]..

ـ **والنسوة**.. نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه.. اللَّغطِ بسيرة امرأة العزيز وفَتاها الذي راودته عن نفسه، بعدما شغفها حباً! والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر ممَّا يبدو فيه استنكار الفعلة! ثمَّ وَهلتهنَّ أمام طلعة يوسف. ثمَّ إقرارهنَّ الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كنَّ يَلْغَطْن بقصتها ويستنكرن موقفها، وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يُشجعها على الاعتراف الكامل، وهي آمنة في ظل استسلامهنَّ لأنوثتهنَّ، كما تصنعها بيئتهنَّ الخاصة وتوجّهها. ثمَّ ميلهنَّ كلهنَّ على يوسف بالإغراء والإغواء، رغم ما أنطقتهنَّ به الوهلة الأُولىٰ من نظافته وطهارته البادية من قولهنَّ: **﴿حاشىٰ لله! ما هٰذا بشراً. إن هٰذا إلَّا ملك كريم﴾** [يوسف: ٣١]..

نأخذ ذلك من قولة يوسف ـ عليه السَّلام ـ: **﴿قال: ربِّي السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه، وإلَّا تَصرف عني كيدهنَّ أَصبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين﴾** [يوسف: ٣٣]..

فلم تعد امرأة العزيز وحدها تُراوده؛ ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تُطارده!

ـ **والبيئة**.. التي تتجلىٰ سماتها من خلال ذلك كله. ثمَّ من خلال ذلك

التصرف في أَمْر يوسف، على الرغم ممَّا بدا من براءته. ذلك التصرّف المقصود به مواراة الفضيحة، ودفن معالمها؛ ولا يهمّ أن يذهب بريء كيوسف ضحيتها: ﴿ثمَّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنُنّه حتّىٰ حين﴾ [يوسف: ٣٥]. .

ـ فإذا تابعنا شخصية يوسف ـ عليه السَّلام ـ فإنَّنا لا نفتقد في موقف واحد ملامح هذه الشخصية، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية، المتمثلة في كونه «العبد الصالح ـ الإنسان ـ بكل بشريته، مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه». . فهو في السجن وظلماته ـ مع الظلم وظلماته! ـ لا يغفل عن الدعوة لدينه، في كياسة وتلطف ـ مع الحزم والفصل ـ وفي إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها. . كما أنَّه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعو إليه في سجنه:

﴿ودخل معه السجن فتيان. قال أحدهما: إنِّي أراني أعصر خمراً، وقال الآخر: إنِّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه. نبِّئنا بتأويله، إنَّا نراك من المحسنين. قال: لا يأتيكما طعام تُرزقانه إلَّا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما ممَّا علَّمني ربِّي، إنِّي تركتُ ملَّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتَّبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نُشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلىٰ الناس، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون. يَا صاحبي السجن، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلَّا أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلَّا لله، أمر ألَّا تعبدوا إلَّا إياه، ذلك الدين القيِّم، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون. يَا صاحبي السجن، أمَّا أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأمَّا الآخر فَيُصْلَب فتأكل الطير من رأسه، قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١]. .

وهو مع هذا كله ـ بَشر، فيه ضعف البشر. فهو يتطلب الخلاص من

سجنه، بمحاولة إيصال خَبره إلى الملك، لعلَّه يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن المُظلم. وإن كان الله ـ سبحانه ـ شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلَّا منه وحده:

﴿وقال للذي ظنَّ أنَّه ناج منهما: اذكرني عند ربك. فأنساه الشيطان ذكر ربه. فلبث في السجن بضع سنين..﴾ [يوسف: ٤٢]..

ثمَّ تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين، وقد رأى الملك رؤياه، فَحَار في تأويلها الكهنة والسدنة؛ حتى تذكر صاحب السجن يوسف ـ بعدما تمَّت التربية الربانية للعبد الصالح، فاطمأنَّ إلى قَدَر الله به واطمأنَّ إلى مصيره ـ حتى إذا ما طلب الملك ـ بعد تأويله لرؤياه ـ أن يأتوه به، أجاب في هدوء المطمئن الواثق؛ وتَمَنَّع عن مغادرة سجنه إلَّا بعد تحقيق تهمته وتبرئة سمعته:

﴿وقال الذي نجا منهما وادَّكر بعد أُمَّة: أنا أُنبِّئكم بتأويله فأرسلون. يوسف أيُّها الصدِّيق، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، لعلِّي أرجع إلى الناس لعلَّهم يعلمون. قال: تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سنبله، إلَّا قليلاً ممَّا تأكلون. ثمَّ يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون.. وقال الملك: ائتوني به.. فلمَّا جاءه الرسول: قال: ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النسوة اللَّاتي قطَّعن أيديهنَّ؟ إنَّ ربِّي بكيدهنَّ عليم. قال: ما خطبكنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه؟ قلن: حاشَ لله! ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أُبرِّىء نفسي، إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء، إلَّا ما رحم ربي، إنَّ ربِّي غفور رحيم.. وقال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلمَّا كلَّمه قال: إنَّك اليوم لدينا مكين أمين. قال: اجعلني على خزائن الأرض إنِّي حفيظ عليم﴾ [يوسف: ٤٥ ـ ٥٥]..

ومنذ هذه اللحظة التي تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية، مطمئنة ساكنة واثقة، نجد هذه الشخصية تتفرد على مسرح الأحداث، وتتوارىٰ تماماً شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة. ويمهد السياق القرآني لهذا التحول في القصة وفي الواقع بقوله:

﴿وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء. ولا نضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير للّذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾ [يوسف: ٥٦ ـ ٥٧]..

ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألواناً أُخرىٰ من الابتلاءات، تختلف في طبيعتها عن الألوان الأُولىٰ؛ وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي، وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة.

ـ نجد يوسف وهو يواجه ـ للمرة الأُولىٰ ـ إخوته بعدما فعلوا به تلك الفعلة القديمة، وهو في الموقف الأعلىٰ بالقياس إليهم والأقوىٰ.. ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في انفعالاته وتصرفاته:

﴿وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون. ولمّا جهّزهم بجهازهم قال: ائتوني بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون أنّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون. قالوا: سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون. وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلىٰ أهلهم لعلّهم يرجعون﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٢]..

ـ ونجده وهو يدبر ـ بتدبير الله له ـ كيف يأخذ أخاه. فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة، الضابطة الصابرة:

﴿ولمّا دخلوا علىٰ يوسف آوىٰ إليه أخاه: قال: إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون. فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رَحل أخيه، ثمّ أذّن مُؤذّن: أيّتهاالعير إنّكم لسارقون. قالوا ـ وأقبلوا عليهم ـ ماذا

تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك، ولمن جاء به حمل بعير، وأنا به زعيم. قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، وما كنا سارقين. قالوا: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين؟ قالوا: جزاؤه من وُجِدَ في رَحله فهو جزاؤه، كذلك نجزي الظالمين. فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثمَّ استخرجها من وعاء أخيه. . كذلك كدنا ليوسف، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك، إلاَّ أن يشاء الله، نرفع درجات من نشاء، وفوق كل ذي علم عليم. قالوا: إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل! فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، قال: أنتم شرٌّ مكاناً، والله أعلم بما تصفون. قالوا: يَا أَيُّها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً فَخُذ أحدنا مكانه، إنَّا نراك من المُحسنين. قال: معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده، إنَّا إذاً لظالمون﴾ [يوسف: ٦٩ - ٧٩]. .

- ثمَّ نلتقي به وقد استوفت المحنة بيعقوب أَجلها، وقَدَّر الله أن تنقضي الابتلاءات التي نزلت به وببيته، وحن يوسف إلى أبويه وأهله، ورقَّ لإخوته والضرّ باد بهم، فكشف لهم عن نفسه، في عتاب رقيق، وفي عفو كريم، يجيء في أوانه، وكل الملابسات توحي به، وتتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك:

﴿فلمَّا دخلوا عليه قالوا: يَا أَيُّها العزيز مسَّنا وأهلنا الضر، وجئنا ببضاعة مُزجاة. فأوفِ لنا الكيل وتصدَّق علينا، إنَّ الله يجزي المتصدِّقين. قال: هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ قالوا: أئنَّك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف، وهٰذا أخي، قد مَنَّ الله علينا، إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين. قالوا: تالله لقد آثرك الله علينا، وإن كنَّا لخاطئين. قال: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين. اذهبوا بقميصي هٰذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ [يوسف: ٨٨ - ٩٣]. .

- وفي النهاية يجيء ذلك الموقف الجليل الرائع. . موقف اللقاء

الجامع ويوسف في أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه . . وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحي جانباً ينفرد بربه، ويناجيه خالصاً له، وذلك كله مطروح وراءه:

﴿ربِّ قد آتيتني من الملك، وعلَّمتني من تأويل الأحاديث. فاطر السَّماوات والأرض. أنت وليِّي في الدنيا والآخرة. توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠١]. .

إنَّها شخصية موحدة متكاملة، بكل واقعيتها الممثلة لمقوّماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها.

- **ويعقوب**. . الوالد المحب الملهوف، **والنبي المطمئن** الموصول، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معاً تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف؛ وهو يرىٰ فيها **بشائر مستقبل مرموق**، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بَنيه. فتتجلىٰ شخصيته بواقعيتها الكاملة في كل جوانبها:

﴿إذ قال يوسف لأبيه: يَا أبت إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال: يَا بنيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً. إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين. وكذلك يجتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إنَّ ربَّك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٤ - ٦]. .

ثمَّ نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيتها البشرية النبوية، وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيعة:

﴿قالوا: يَا أبانا ما لَكَ لا تأمنَّا علىٰ يوسف وإنَّا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب، وإنَّا له لحافظون. قال: إنِّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب. ونحن عصبة إنَّا إذاً لخاسرون. فلمَّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب،

وأوحينا إليه لتنبِّئنَّهم بأمرهم هـذا وهم لا يشعرون. وجاؤوا أبـاهم عشاءً يبكون، قالوا: يَـا أبانا إنَّا ذهبنـا نستبق وتركنـا يوسف عنـد متاعنـا فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنـا صادقين. وجـاؤوا على قميصه بـدم كذب، قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً؛ فصبر جميـل، والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٨]..

ثمَّ نلتقي بهذه الشخصية ـ بكل واقعيتها تلك ـ وبنـوه يراودونـه مرة أُخرىٰ على السَلوة الباقية له.. أخي يوسف.. وقد طلبه منهم عزيز مصر ـ يوسف ـ الذي لايعرفونه! في مقابل أن يعطيهم كيلاً يقتاتون به في السنوات العجاف!

﴿فلمَّا رجعوا إلىٰ أبيهم قالوا: يَـا أبانا مُنع منا الكيل، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنَّا له لحافظون: قال: هل آمنكم عليه إلاَّ كما أمنتكم على أخيه من قبل؟ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. ولمَّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردَّت إليهم، قالوا: يَـا أبانا ما نبغي، هـٰذه بضاعتنا ردَّت إلينا، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا، ونزداد كيل بعير، ذلك كيـل يسير. قـال: لن أرسله معكم حتّىٰ تؤتون موثقاً من الله: لتأتنَّني به إلاَّ أن يُحاط بكم. فلمَّا أتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل.. وقال: يَـا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أُغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلاَّ لله، عليه توكَّلت، وعليه فليتوكَّل المتوكلون. ولمَّـا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغني عنهم من الله من شيء، إلاَّ حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنَّه لذو علم لما علَّمناه، ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٦٣ ـ ٦٨]..

ثمَّ نلتقي به في فجيعته الثانية.. والداً ملهوفاً ونبياً موصولاً.. ذلك بعد أن دبَّر الله ليوسف كيف يأخذ أخاه. فيتخلف أحد أبناء يعقوب ـ صاحب الشخصية الخاصة فيهم، متوافياً مع سماته التي صاحبت مواقفه كلها في

القصة، مُشفقاً أن يقابل أباه بعد الموثق الذي آتاه إياه، إلاَّ أن يأذن له أبوه أو يحكم له الله ـ:

﴿فلمَّا استيأسوا منه خلصوا نجيّاً، قال كبيرهم: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، ومن قبل ما فرطتم في يوسف؟ فلن أبرح الأرض حتّىٰ يأذن لي أبي، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين. ارجعوا إلى أبيكم فقولوا: يَـا أبانا إنَّ ابنك سرق! وما شهدنا إلاَّ بما علمنا، وما كنَّا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنَّا فيها والعير التي أقبلنا فيها، وإنَّا لصادقون. قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً إنَّه هو العليم الحكيم. وتولّىٰ عنهم وقال: يَـا أسفا علىٰ يوسف! وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتّىٰ تكون حرضاً أو تكون من الهالكين! قال: إنَّما أشكو بثّي وحزني إلىٰ الله وأعلم من الله ما لا تعلمون. يا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه، ولا تيأسوا من روْح الله. إنَّه لا ييأس من روْح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٠ ـ ٨٧]. .

وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتلىٰ نجد ذات الملامح وذات الواقعية. وهم يشمّ ريح يوسف في قميصه، ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك في صدق ظنه بربه.

﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم: إنِّي لأجد ريح يوسف، لولا أن تُفنِّدون. قالوا: تالله إنَّك لفي ضلالك القديم. فلمَّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً. قال: ألم أقل لكم: إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟ قالوا: يَـا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنَّا كنا خاطئين. قال: سوف أستغفر لكم ربي، إنَّه هو الغفور الرحيم﴾ [يوسف: ٩٤ ـ ٩٨]. .

إنَّها الشخصية المُوحّدة الخصائص والملامح، الواقعية المشاعر

والتصرفات، المُمَثِّلة لكل واقعية ذَاتِها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف!.

والواقعية الصادقة الأمينة النظيفة السليمة في الوقت نفسه، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع، على هذا المستوىٰ الرائع. ولكنها تتجلىٰ كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها، وفي بيئتها وملابساتها.. فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها؛ وتجيء في الصورة المتوقعة لها؛ وتجيء في مكانها من مسرح العرض؛ متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهمتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها.. الأمر الملحوظ في الشخصيات أيضاً كما قررنا من قبل هذا!

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة ـ في حدود المنهج النظيف اللائق «بالإنسان» في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها ـ ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري؛ وكما لو كانت هي محور حياته كلها، وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها! كما تحاول الجاهلية أن تُفهمنا أنَّ هذا وحده هو الفن الصادق!

إنَّ الجاهلية إنَّما تمسخ الكائن البشري باسم الصدق الفني! وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجملتها! فتنشىء منها مستنقعاً واسعاً عميقاً، مُزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية!

وهي لا تفعل هذا لأنَّ هذا هو الواقع، ولا لأنَّها هي مخلصة في تصوير هذا الواقع! إنَّما تفعله لأنَّ «بروتوكولات صهيون» تريد هذا! تريد تجريد «الإنسان» إلَّا من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنَّهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية! وتريد أن تغرق البشرية كلها في

وَحْل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها، وتستغرق فيه كل طاقاتها؛ فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون! ثمَّ تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشرّ كله، إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب « العلمية! » المؤدية إلى ذات الهدف. تارة باسم « الداروينية » وتارة باسم « الفرويدية » وتارة باسم « الماركسية » أو « الاشتراكية العلمية ».. وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة!

في ظلال الفترة التاريخية :

والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة، وتتحرك فيها شخصياتها الكثيرة، وتسجل سماتها العامة، فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية في تلك الفترة التاريخية.. ونكتفي ببعض اللمحات والسهام التي ترسم تلك الأبعاد:

ـ إنَّ مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأُسَر المصرية؛ إنَّما كان يحكمها « الرعاة » الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريباً منهم، فعرفوا شيئاً عن دين الله منهم. نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب « الملك » في حين يُسمىٰ الملك الذي جاء على عهد موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ من بعد بلقبه المعروف « فرعون ». ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف ـ عليه السَّلام ـ في مصر. فهو كان ما بين عهد الأُسرة الثالثة عشرة والأُسرة السابعة عشر؛ وهي أُسر « الرعاة » الذين سماهم المصريون « الهكسوس »! كراهية لهم؛ إذ يقال: إنَّ معنىٰ الكلمة في اللغة المصرية القديمة: « الخنازير » أو « رعاة الخنازير »! وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن.

ـ إنَّ رسالة يوسف ـ عليه السَّلام ـ كانت في هذه الفترة. وهو كان قد

بدأ الدعوة إلى الإسلام . . ديانة التوحيد الخالص . . وهو في السجن؛ وقرر أنَّها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة، فيما حكاه القرآن الكريم من قوله:

﴿إنِّي تركت ملَّة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون. واتَّبعت ملَّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى النَّاس، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون. يَا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلاَّ لله، أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه، ذلك الدين القيِّم، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠]. .

وهي صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة شاملة ـ كما جاء به رُسل الله جميعاً ـ من ناحية أصول العقيدة. تحتوي، الإيمان بالله، والإيمان بالآخرة، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلاً، ومعرفة الله ـ سبحانه ـ بصفاته. . الواحد، القهار. . والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلاً؛ ومن ثمَّ نفي الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطان والحكم لله وحده، ما دام أنَّ الله أمر ألاَّ يعبد الناس غيره. ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده. وتحديد معنى « العبادة » بأنَّهاالخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية، وتعريف الدين القيِّم بأنَّه إفراد الله ـ سبحانه ـ بالعبادة ـ أي إفراده بالحكم ـ فهما مترادفان أو متلازمان: **﴿إن الحكم إلاَّ لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه. ذلك الدين القيِّم﴾**. .

وهذه أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها.

وواضح أنَّ يوسف ـ عليه السَّلام ـ عندما سيطر على مقاليد الأُمور في مصر، استمرَّ في دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل. . ولا بد أنَّ الإسلام انتشر في مصر على يديه ـ وهو يقبض على

أقوات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم ـ وانتشر كذلك في البقاع المجاورة ممَّن كانت وفودها تجيء لِتَقْتَات ممَّا تمَّ ادّخاره بحكمته وتدبيره ـ وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة في الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليمتاروا من مصر ويتزودوا، ممَّا يصور حالة الجدب التي حلَّت بالمنطقة كلها في هذه الفترة. والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التي عرف الرعاة شيئاً عنها في أول القصة، كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها.

والإشارة الأُولىٰ وردت في حكاية قول النسوة حين طلع عليهنَّ يوسف:

﴿فلمَّا رأينه أكبرنه، وقلن: حاشىٰ لله! ما هٰذا بشراً. إن هٰذا إلاَّ مَلك كريم﴾ [يوسف: ٣١]..

ووردت في قول العزيز لامرأته: **﴿يوسف أعرض عن هٰذا واستغفري لذنبك؛ إنَّك كنت من الخاطئين﴾** [يوسف: ٢٩]..

أمَّا الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التي يتجلى أنَّها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت في النهاية، فيما حكاه عنها السياق القرآني:

﴿قالت امرأة العزيز: الآن حَصحص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أُبرِّىءُ نفسي. إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء إلاَّ ما رحم ربِّي، إنَّ ربي غفور رحيم﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣]..

وإذا اتَّضح أنَّ ديانة التوحيد ـ على هذا المستوىٰ ـ كانت قد عُرفت قبل تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر؛ فلا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع في أثناء تَولِّيه الحكم، ثم من بعد ذلك في عهد أُسر الرعاة. فلمَّا استردَّ الفراعنة زمام الأُمور في الأُسرة الثامنة عشرة

أخذوا يقاومون ديانة التوحيد مُمَثَّلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر، لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية! . .

وهذا يكشف لنا سبباً أصيلاً من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني إسرائيل ـ أي يعقوب ـ إلى جانب السبب السياسي، وهو أنَّهم جاؤوا واستوطنوا وحكموا واستقروا في عهد ملوك الرعاة الوافدين.

فلمَّا طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني إسرائيل أيضاً . . وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوىٰ لذلك الاضطهاد الفظيع. ذلك أنَّ انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يُحطِّم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعين! فهو العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت!

ولقد وردت إشارة إلى هذا الذي نُقرره في حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون في سورة غافر؛ في دفاعه الإسلامي المجيد عن موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ في وجه فرعون وملئه عندما همَّ بقتل موسىٰ، ليقتل معه الخطر الذي يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التي جاء بها موسىٰ:

﴿وقال فرعون: ذروني أقتل موسىٰ وليدع ربه، إنِّي أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد. وقال موسىٰ: إنِّي عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ وقد جاءكم بالبيِّنات من ربكم، وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، إنَّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض. فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟ قال فرعون: ما أُريكم إلاَّ ما أرىٰ. وما أهديكم إلاَّ سبيل الرشاد. وقال الذي آمن: يَا قوم إنِّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلماً للعباد، ويَا قوم إنِّي أخاف عليكم يوم التناد. يوم

تُولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد.. ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك ممّا جاءكم به، حتىٰ إذا هلك قلتم: لن يبعث الله من بعده رسولاً، كذلك يُضل الله من هو مسرف مرتاب. الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم. كَبُرَ مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا! كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار... إلخ﴾ [غافر: ٢٦ ـ ٣٥]..

فقد كان الصراع الحقيقي بين عقيدة التوحيد التي تُفَرّد الله ـ سبحانه ـ بالربوبية، فتفرده بالعبادة ـ أي بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده ـ وبين الفرعونية التي تقوم على أساس العقيدة الوثنية، ولا تقوم إلاّ بها.

ولعلّ التوحيد الناقص المشوه الذي عرف به «أخناتون» لم يكن إلاّ أثراً من الآثار المضطربة التي بقيت من التوحيد الذي نشره يوسف ـ عليه السّلام ـ في مصر كما أسلفنا؛ وبخاصة إذا صَحّ ما يقال في التاريخ من أنّ أم أخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية!

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللمحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التي وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها. فنجدها تتجاوز حدود الرقعة المصرية، وتسجل طابع العصر كله. فواضح تماماً انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤىٰ والتنبؤات التي لا تقتصر على أرض واحدة، ولا على قوم بأعيانهم.. ونحن نرىٰ هذه الظاهرة واضحة في رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها في النهاية. وفي رؤيا الفَتَيَيْن صاحبي السجن. وفي رؤيا الملك في النهاية.. وكلها تتلقىٰ بالاهتمام سواء ممّن يرونها أو ممّن يسمعونها ممّا يشي بطابع العصر كله!

* * *

وعلى وجه الإجمال فإنّ القصة غنية بالعناصر الفنية. غنية كذلك بالعنصر الإنساني، حافلة بالانفعال والحركة. وطريقة الأداء تبرز هذه

العناصر إبرازاً قوياً. فضلاً على خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة، ذات الإيقاع الموسيقي المناسب لكل جو من الأجواء التي يصورها السياق.

في القصة يتجلّىٰ عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والظلال: في حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه. وفي استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها.

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أُمهات مختلفات، بحسب، ما يرون من تنوع صور الحب الأبوي.

وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة؛ فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجب تلتقطه بعض السيارة نفوراً من الجريمة..

وعنصر المكر والخداع في صور شتّىٰ. من مكر إخوة يوسف به، إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة.

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام. وبالإعجاب والتمني، والاعتصام والتأبي.

وعنصر الندم في بعض ألوانه، والعفو في أوانه. والفرح بتجمع المتفارقين..

وذلك إلى بعض صور المجتمع الجاهلي في طبقة العلّية من الملأ: في البيت والسجن والسوق والديوان ـ في مصر يومذاك. والمجتمع العبراني، وما يسود العصر من الرؤىٰ والتنبؤات.

والقصة كما تقدم تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم، وينصحه بألاَّ يقصها على إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له.. ثمَّ تسير القصة بعد ذلك، وكأنَّما هي تأويل للرؤيا ولِمَا توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في

النهاية أنهى السياق ازللقصة، ولم يسر فيها كما سار كُتّاب «العهد القديم» بعد هذا الختام الفني الدقيق، الوافي بالغرض الديني كل الوفاء.

وما يسمّى بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف. فهي تبدأ بالرؤيا كما سبق، ويظل تأويلها مجهولاً، يتكشف قليلاً قليلاً، حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلاً طبيعياً لا تعمُّل ولا اصطناع!

والقصة مقسمة إلى حلقات. كل حلقة تحتوي جملة مشاهد. والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد يملؤها تَخَيُّل القارىء وتصوّره، ويكمل ما حذف من حركات وأقوال، مع ما في هذا من تشويق ومتاع..

وحسبنا هذا القدر من التحليل الفني لقصة يوسف، وتمثيلها للمنهج القرآني الإسلامي في الأداء. وفي هذا القدر ما يكشف عن مدى الإمكانيات التي يعرضها هذا المنهج للمحاولات البشرية في الأدب الإسلامي، لتمكينه من الأداء الفني الكامل والواقعية الصادقة السليمة، دون أن يسف أو يحتاج إلى التخلي عن النظافة اللائقة بفن يقدم لـ «الإنسان»[1]!

من لطائف التناسق القرآني في قصة يوسف:

وبعد، فلعلَّ من المناسب في الحديث عن قصة يوسف، التي هي نموذج كامل للأداء الفني الصادق الجميل، أن نُلِمّ بشيء من لطائف التناسق في الأداء القرآني فيها، وأن نقف عند نماذج من هذه اللطائف تُمثل سائرها:

- في سورة يوسف - كما في السور القرآنية الأخرى - تتكرر تعبيرات معينة، تؤلف جزءاً من جوّ السورة وشخصيتها الخاصة.

وهنا في القصة يرد ذكر العلم كثيراً، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى:

---

(١) للاستزادة من البحث يراجع كتاب: «منهج الفن الإسلامي» لمحمّد قطب. نشر دار الشروق.

﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمُّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق. إنَّ ربك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٦]..

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض، ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث. والله غالب على أمره ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١]..

﴿ولمَّا بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين﴾ [يوسف: ٢٢]..

﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنَّ؛ إنَّه هو السميع العليم﴾ [يوسف: ٣٤]..

﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه، إلاَّ نبَّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما. ذلكما ممَّا علَّمني ربِّي﴾ [يوسف: ٣٧]..

﴿إن الحكم إلاَّ لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه، ذلك الدين القيِّم، ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٤٠]..

﴿قالوا: أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ [يوسف: ٤٤]..

﴿يوسف أيُّها الصدِّيق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات، لعلِّي أرجع إلىٰ الناس لعلَّهم يعلمون﴾ [يوسف: ٤٦]..

﴿وقال الملك: ائتوني به، فلمَّا جاءه الرسول قال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله: ما بال النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ؟ إنَّ ربِّي بكيدهنَّ عليم﴾ [يوسف: ٥٠]..

﴿ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب وأنَّ الله لايهدي كيد الخائنين﴾ [يوسف: ٥٢]..

﴿قال: اجعلني على خزائن الأرض؛ إنِّي حفيظ عليم﴾ [يـوسف: ٥٥]..

﴿.. وإنَّه لذو علم لمـا علَّمناه، ولـٰكنَّ أكثـر الناس لا يعلمـون﴾ [يوسف: ٦٨]..

﴿قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنَّا سارقين﴾ [يوسف: ٧٣]..

﴿كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاَّ أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾ [يوسف: ٧٦]..

﴿قال: أنتم شرٌّ مكاناً، والله أعلم بما تصفون﴾ [يوسف: ٧٧]..

﴿فلمَّا استيئسوا منه خلصوا نجيّاً قال كبيرهم: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله..﴾ [يوسف: ٨٠]..

﴿وما شهدنا إلاَّ بما علمنا وما كنَّا للغيب حافظين﴾ [يوسف: ٨١]..

﴿عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً، إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ٨٣]..

﴿قال: إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٨٦]..

﴿قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ [يوسف: ٨٩]..

﴿قال: ألم أقل لكم: إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟﴾ [يوسف: ٩٦]..

﴿ربِّ قـد آتيتني من الملك وعلَّمتني من تـأويـل الأحـاديث...﴾ [يوسف: ١٠١]..

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في هذا الكتاب الكريم.

ـ وفي القصة تعريف بخصائص الألوهية، وفي مقدمتها « الحكم » وهو يرد مرة على لسان يوسف ـ عليه السَّلام ـ بمعنىٰ الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية، ويأتي مرة على لسان يعقوب ـ عليه السَّلام ـ بمعنىٰ الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله في صورتها القهرية القَدَرية، فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو لا يجيء عفواً ولا مصادفة:

يقول يوسف في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر ومخالفتها لوحدانية الألوهية: ﴿ **يَا صاحبي السجن، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلاَّ لله، أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه، ذلك الدين القيِّم**﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]..

ويقول يعقوب في معرض تقرير أنَّ قدر الله نافذ وأنَّ قضاءه ماض: ﴿**يَا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أُغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاَّ لله، عليه توكَّلت، وعليه فليتوكل المتوكلون**﴾ [يوسف: ٦٧]..

وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أنَّ الدين لا يستقيم إلاَّ أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم، كالدينونة القهرية له ـ سبحانه ـ في القَدَر. فكلاهما من العقيدة؛ وليست الدينونة في القَدَر القاهر وحدها هي الداخلة في نطاق الاعتقاد، بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد.

ـ ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيس اللطيف

المدخل، صفة الله المناسبة.. «اللطيف». في الموقف الذي يتجلّىٰ فيه لطف الله في التصريف:

﴿ورفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سجّداً. وقال: يَا أبتِ هـٰذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربِّي حقاً. وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي.. إنَّ ربِّي لطيف لما يشاء.. إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ١٠٠]..

- ومن لطائف التناسق ما سبق أن أشرنا إليه من التطابق في السورة بين تقديم القَصص، والتعقيب المباشر عليه، والتعقيب الختامي الطويل.. وكل هذه التعقيبات تَتَّجه إلى قضايا واحدة، وتتلاقىٰ عليها بين البدء والختام.

وحسبنا في ما تقدّم عن القصة هـٰذه اللمسات التي التقينا بها في السياق القرآني.

* * *

الإيقاع الأخير:

لقد بلغت قصة يوسف من الروعة والعبرة مكاناً قَصيّاً، وذلك لِمَا تضمّنته من أنواع العواطف البشرية الخيِّرة والشريرة، الواقعية والمثالية، من الحسد والمكر، والتآمر والإجرام، والعطف الأبوي، والحذر والحزن، والحنين والشوق، وفورة الغريزة الجنسية والترفع المثالي والإباء، ولما فيها من العقد القصصية المتعاقبة، فلا تنحل عقدة حتى تنعقد أخرىٰ، ولما فيها من تنوع المشاهد والبيئات، وأعظم من ذلك كله تصوير حركة القَدَر والإيمان العميق بنصرة الله للحق ولو طال أمد الباطل، وفي ذلك التفاؤل العميق بقضاء الله الذي يتجلّىٰ في نفسية يعقوب رغم مظاهر الحزن الشديد حين جاء بنوه مُنْصَرفهم من مصر يعتذرون عن إبقائهم العزيز لأخيهم.

وفي القصة ألوان من الشدائد. في الجب وفي بيت العزيز وفي

السجن. وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس. . «إنَّك لتحس في القصة بيد القَدَر الإلـهي تُحرك الحوادث، ولترىٰ فيها الإنسان يريد ويقدر ومن فوقه عناية إلـهية غالبة تُبلِّغ هذا الإنسان ما تريد لا ما يريد، وتصل بالأمور إلى عـواقبها ونهـاياتهـا المرسـومة المقـدرة. وهي سورة مكيـة تدعـو إلى الله وتوحيده، بل إنَّها لتصل ما بين عقل الإنسان وقلبه وحقيقة الوجود الكبرىٰ التي هي الله الخالق القادر المنعم الرحيم.

إنَّ الله تعالىٰ يقصُّ فيها حياة الإنسان أحسن القَصَص، إنَّها قطعة من الحياة بعروقها النابضة ومشاعرها المتأججة، ونوازع الخير والشر فيها، إنَّنا نرىٰ فيها أنفسنا، ولكن نرىٰ مـع ذلك يـد القُدرة ونحسّ أثـرها فينـا وفي أعمالنا. إنَّنا نراها تخطّ في الحوادث مصيرنا، وتبلغ بنا الغايات المُقدَّرة. إنَّها تفتح أمامنا أُفق القَدَر لنجعل إرادتنا من إرادة الله منفذة لقضائه منسجمة مع غايات قَدَره التي هي الخير المَحض، فنجمع بذلك بين الطاعة والإرادة والعمل والتفاؤل بالمستقبل، ذلك هو السبب الـذي يجعل لسـورة يوسـف هوىً خاصاً في نفوسنا، وإنَّها ليست من نوع الخيال المصنوع، ولا القصص الذي تُقَلِّد فيه الحقيقة، بل إنَّها الحقيقة نفسها ﴿ما كان حديثاً يُفترىٰ ولـٰكن تصديق الذي بين يديه. .﴾ [يوسف: ١١١]. . تلك هي طريقتها وذلك هو سبيلها إذ تأخذ بعقولنا وقلوبنا نحو الله. .

إنَّ جميع السور المكية تدعو إلى الله وتوحيده، ولكن هذه السـورة على الخصوص تكشف لنا النقـاب عن سرّ القـدرة والقَدَر، وعن العنـاية الإلـٰهية التي تخفىٰ إلَّا علىٰ مَن آتاه الله حسّاً مرهفاً وإيماناً عميقاً من وراء حوادث الكون وأسبابها الظاهرة وعواطف الإنسان ومقـرراته وتصميمـاته. وذلك ما أبصره وأحسَّ به يعقوب ـ عليه السَّلام ـ من أول القصة فانكشفت له الحقيقة الكبرىٰ فَصَبَر وآمَنَ وتَرقَّب لُطْف الأقدار وصنيع العناية. .

وقصة يوسف التي هي موضوع السورة وقوامها فقد استغرقتها كلهـا

وهي تزيد على مئة آية، عدا نحو عشر آيات في آخرها تضمَّنت عبرتها ومَرْماها. .

لقد احتوت القصة أزمات وعقداً كثيرة متنوعة وكان الله دوماً هو الذي يفرّج الكرب ويحلّ العقدة ويُخرج يوسف بعنايته من الأزمة. . وقد كان الله بلطفه وعنايته يُخرجه من المِحَن والأزمات كلها ظافراً منتصراً حتى كانت الخاتمة إذ غدا مُجتَمِعَ الشمل مُتَبَوِّئاً أعلىٰ المناصب، شاعراً بمنّة الله عليه، شاكراً لأنعمه، وذلك ما عبَّر عنه بقوله:

﴿يَا أَبتِ هـٰذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربِّي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البَدْوِ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنَّ ربِّي لطيف لما يشاء إنَّه هو العليم الحكيم. ربِّ قد آتيتني من تأويل الأحاديث فاطِر السَّماوات والأرض أنت وليِّـي في الدنيا والآخرة توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠٠ ـ ١٠١]. .

واحتوت القصة ضروباً شتّىٰ من عناصر الحياة البشرية وأنواع العواطف الطيبة والخبيثة:

من تحاسد الإخوة ونيّة الإجرام، إلى عاطفة الأب الشفوق وحَذَره. ومن الصبر على المصائب، والوقوع تحت تأثير إغراء الغريزة والشهوة، إلى الانتصار في الصراع بين قوة الغريزة ورَدْع الضمير والثبات على الإيمان والشكر على النعم.

أمَّا فلسفة القصة العميقة فتتجلىٰ في الإيمان العميق بالله الذي ينصر الحق على الباطل ولو طال أمده، والثقة بهذا الانتصار، ومواجهة أزمات الحياة المختلفة بصبر وثبات وإيمان، والتفاؤل حتى في الشدة، وترقُّب الفرج من الله في الأزمات، والإيمان أنَّ نية الخير والعزم عليه لا يُولد في النهاية إلَّا خيراً، فلا يأس ولا قنوط في الحياة، والإيمان:

صبر وجهاد وثقة وتفاؤل :

وتتمثل هذه الفلسفة المؤمنة المتفائلة المناضلة في كثير من مناسبات القصة، كقول يعقوب إلى أولاده: التفتيش والبحث عن أخويهم **﴿يَا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله إنَّه لا ييأس من رَوْح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾** [يوسف: ٨٧]، وقول يوسف لإخوته بعد أن كشف لهم عن نفسه: **﴿قد مَنَّ الله علينا إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يُضيع أجر المحسنين﴾** [يوسف: ٩٠][1]..»..

لقد كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا ـ كما هو وَعْد الصادق الذي لا يخيب ، فالقصة نموذج من قَصص المرسلين. فيها عِبرة لمن يَعقل، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل، على غير صلة بين محمَّد ﷺ وهذه الكتب. فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثاً مُفترىٰ. فالأكاذيب لا يُصدِّق بعضها بعضاً، ولا تحقق هداية، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الرَوْح والرحمة.

والسورة تختتم بإيقاع عظيم يحمل عبرة القَصَص القرآني كله، في هذه القصة وفي سواها. يَحملها للنَّبيِّ ﷺ والقلة المؤمنة معه، ومعها التثبيت والتسرية والبُشرىٰ؛ ويحملها للمشركين المعاندين، ومعها التذكير والعظة والنذير. كما أنَّ فيها للجميع تقريراً لصدق الوحي وصدق الرسول؛ وتقريراً لحقيقة الوحي وحقيقة الرسالة، مع تخليص هذه الحقيقة من الأوهام والأساطير:

﴿لقد كان في قَصَصهم عبرة لأُولي الألباب، ما كان حديثاً يُفترىٰ، ولـٰكن تصديقَ الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء، وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ [يوسف: ١١١]..

إنَّه الإيقاع الأخير والإيقاع الكبير.

---

(١) محمَّد المبارك: مجلة المسلمون ـ المجلد الخامس ـ ص ٢٤٩.

وهكذا يتوافق المطلع والختام في سورة يوسف، كما توافق المطلع والختام في القصة. وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها، وعباراتها كذلك. فَتُحَقّق الهدف الديني كاملاً، وتُحقّق السمات الفنية كاملة، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع.

وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة، لأنَّ طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء. فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة. فلا تتم العبرة بها ـ كما لا يتم التنسيق الفني فيها ـ إلاّ بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها. وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين. كحلقة قصة سليمان مع بلقيس. أو حلقة قصة مولد مريم. أو حلقة قصة نوح والطوفان. . إلخ فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملاً في مواضعها. أمّا قصة يوسف فتقتضي أن تُتلىٰ كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم.

﴿نحن نقصُّ عليك أحسن القصصَ بما أوحينا إليك هٰذا القرآن وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣]. .

قصة شعيب عليه السلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	٣٥٩
ـ التشريع الإلهي والتصور الأخلاقي	٣٦٣
ـ الرد الساخر والتبجح السافر	٣٦٧
ـ قوة الحق ورسوخ العقيدة	٣٧٤
ـ بين الإيمان والطغيان	٣٨٣

شعيب عليه السَّلام

ونقلب صفحة أُخرىٰ من صحائف الأُمم الغابرة. وها هي ذي صفحة من صحائف الأقوام المكذِّبة المنحرفة في تلك الحقبة من التاريخ.. صفحة مَدين. أصحاب الأيكة وأخيهم شعيب:

﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً، قال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيـره﴾ [الأعراف: ٨٥، هـود: ٨٤].. **﴿كـذَّب أصحـاب الأيكـة المرسلين.. إذ قال لهم شعيب ألا تـتَّقون. إنِّي لكم رسول أمين. فاتَّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر. إن أجري إلاَّ على رب العالمين﴾** [الشعراء: ١٧٦ - ١٨٠]..

وأصحاب الأيكة هم - غالباً - أهـل مدين. والأيكـة الشجر الكثيف الملتف. ويبدو أنَّ مدين كانت تجاور هذه الغيضة الوريفة من الأشجار.

وقد ذكر القرآن أهل مدين في مواضع.. وأصحاب الأيكة في مواضع أُخرىٰ. وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة.

ويشير القرآن الكريم إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقاً لنبأ العذاب، ولإهلاك القرىٰ بعد انقضاء الأجـل المعلوم: **﴿وإن كان أصحـاب الأيكة لظالمين، فانتقمنا منهم. وإنَّهما لبإمام مبين﴾** [الحجر: ٧٨، ٧٩]..

ومدين والأيكة التي تجاورها كانتا بالقرب من قرىٰ لوط. والإشـارة

الواردة هنا . . ﴿وإنَّهما لبإمام مبين﴾قد تعني مدين والأيكة، فهما في طريق واضح غير مندثر، وقد تعني قرىٰ لوط وقرية شعيب، جمعهما لأنَّهما في طريق واحد بين الحجاز والشام.

ووقوع القرىٰ الداثرة على الطريق المطروق أدعىٰ إلى العبرة، فهي شاهد حاضر يراه الرائح والغادي. والحياة تجري من حولها وهي داثرة كأن لم تكن يوماً عامرة. والحياة لا تحفلها وهي ماضية في الطريق!

وقصة شعيب مكانها التاريخي قبل قصة موسىٰ. يتحدث عنها القرآن في مساق العبرة كبقية القصص. قيل إنَّ شعيباً ـ عليه السَّلام ـ، هو أحد الأنبياء من العرب، كهود، وصالح ـ عليهم السَّلام ـ، ويقال إنَّه كان خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه. ولقد ذُكرت قصة شعيب في أكثر من موضع، وإن كانت أقل ذكراً من قصص بعض الأنبياء، وكل شيء بقدر، ولم تكن مساكن قوم شعيب بعيدة، كما لم يكن خبرهم غريباً عن الذي بُعث فيهم الرسول ﷺ.

وإنَّنا لنجد بعض الإشارات المبكرة تحدثنا عنهم، وهي تنظمهم في سلك المكذبين المعاقَبين، نجد ذلك مثلاً في سورة (قٓ) وسورة (صٓ) وقد مرت الآيات من قبل.

إلاَّ أنَّ أول سورة حدثتنا بالتفصيل عن شعيب ـ عليه السَّلام ـ كانت سورة الأعراف فذكرت قصة شعيب معطوفة على ما قبلها من القصص، ثمَّ تأتي سورة الشعراء وتذكر لنا أصحاب الأيكة بدل أصحاب مدين، ثم فصَّلت سورة هود الحديث عن شعيب بعد الحديث عن نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط ـ عليهم السَّلام ـ، ثمَّ تأتي سورة العنكبوت بعد ذلك، وهي آخر سورة تذكر فيها قصة شعيب، وقد جاءت القصة فيها مجملة موجزة(١).

---

(١) القصص القرآني: ٢٠٩، انظر: سورة (قٓ): ١٤، سورة (صٓ): ١٣، سورة الحجر: =

كان قوم شعيب ـ أهل مدين، كغيرهم من الأقوام الضالة ـ قد نشأوا على حياة الانحراف والفساد في العقيدة والسلوك والأخلاق والمعاملات. كانوا يشركون بالله غيره، كما كانت أمم الأنبياء في كل عصر، وكانوا زيادة ـ إلى ذلك ـ ينقصون المكيال والميزان، فقد اعتادوا أن يستوفوا لأنفسهم الكيل والميزان إذا اكتالوا على الناس واشتروا منهم فإذا كالوهم ـ للناس ـ أو وزنوا لهم مالوا إلى نقص الميزان. وبخسوهم حقوقهم. وطففوا الكيل والميزان. وكانوا يتعرضون للقوافل فيتوعّدونها ويخيفونها ويعيثون في الأرض فساداً، شأن الكبراء المتعالين الذين لا يرجون حساباً ولايخشون عذاباً.

بعث الله فيهم شعيباً رسولاً، وآزره بالمعجزات، وأيّده بالبيّنات فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده، ونهاهم عمّا كانوا يرتكبون من المنكرات والآثام فآمن به بعضهم وكفر الأكثرون منهم.

وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة، ينهض به شعيب في قومه أهل مدين. . ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى، هي قضية الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس، وهي وثيقة الصلة بالعقيدة في الله، والدينونة له وحده، واتباع شرعه وأمره. وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله!

﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً. قال: يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره. . .﴾. .

إنَّ الدينونة لله وحده قاعدة العقيدة الأولىٰ ﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً، فقال: يَـا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [العنكبوت: ٣٦]. .

= ٧٨ ـ ٧٩، الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣، الشعراء: ١٧٦ ـ ١٩١، هود: ٨٤ ـ ٩٥، العنكبوت: ٣٦ ـ ٣٧.

وهي إشارة تبين وحدة الدعوة، ولباب العقيدة.. وعبادة الله الواحد هي قاعدة العقيدة، وقاعدة الدعوة التي لا تغيير فيها ولا تبديل. قاعدة الحياة الأولىٰ وقاعدة الشريعة الأولىٰ. وقاعدة المعاملات الأولىٰ. القاعدة التي لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة.. **﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً، قال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾**..

يبدأ شعيب ـ عليه السَّلام ـ بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثمَّ بالسلطان في أمر الحياة كله.

يبدأ شعيب ـ عليه السَّلام ـ في دعوتهم من هذه القاعدة التي يعلم أنَّه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها؛ كما أنَّ منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل. ولا تستقيم كلها إلَّا إذا استقامت هذه القاعدة.

ويستصحب في دعوتهم إلى الدينونة لله وحده، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم، وترك الإفساد في الأرض بالهوىٰ بعدما أصلحها الله بالشريعة.. يستصحب في دعوتهم إلى هذا كله بعض المأثرات الموحية.. يذكرهم نعمة الله عليهم: **﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم﴾** [الأعراف: ٨٦]..

ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم: **﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾** [الأعراف: ٨٦]..

إنَّ الدينونة لله هي القاعدة التي تقوم عليها الرسالات.. ثمَّ تبدأ بعدها بعض التفصيلات: **﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان، إنِّي أراكم بخير، وإنِّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾** [هود: ٨٤]..

وعبادة الله الواحد هي قاعدة الدين. ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عمَّا كانوا يرجونه في هذه الحياة الدنيا من الكسب المادي الحرام بالتطفيف في الكيل والميزان، وغصب المارين بطريقهم للتجارة، وبخس

الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، والاستطالة على الخلق ﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً، فقال: يَا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [العنكبوت: ٣٦]..

التشريع الإلـهي والتصور الأخلاقي:

والقضية هنا قضية الأمانة والعدالة ـ بعد قضية العقيدة والدينونة ـ أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة.

وقد ذكرنا أنَّ أهل مدين ـ وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام ـ كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، أي ينقصون قيمة أشيائهم في المعاملات. وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد، كما تمس المروءة والشرف. كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها، ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التي وصفها الله في القرآن الكريم.

ومن ثمَّ تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء، ومكافحة السرقة الخفية س اء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول. فهي بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل، وضمانه للعدل والسلام في الأرض بين الناس. وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه، فتستند إلى أصل ثابت، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء.

إنَّ المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة.. هذه هي نظرة الإسلام. وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم!

فلا يكون المتحكم في أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعي أو يعيشون على الصناعة. .

إنَّ هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها في التصور الأخلاقي وفي قواعد المعاملات الأخلاقية، حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله، وحين تصبح قاعدة الأخلاق هي إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقي عقابه، وكل ما يهرف به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعي للأمة يصبح لغواً في ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية[1]!

﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان. إنِّي أراكم بخير﴾ [هود: ٨٤]. .

فقد رزقكم الله رزقاً حسناً، فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنىٰ، ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان. . بل إنَّ هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش في المعاملة، أو غصب في الأخذ والعطاء.

﴿وإنِّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ [هود: ٨٤]. .

إمَّا في الآخرة عند الله. وإمَّا في هذه الأرض حين يؤتي هذا الغش والغصب ثمارهما المُرّة في حالة المجتمع وفي حركة التجارة. وحين يذوق الناس بعضهم بأس بعض، في كل حركة من الحركات اليومية وفي كل تعامل وفي كل احتكاك.

ومرة أُخرىٰ يكرر شعيب نصحه في صورة إيجابية بعد صورة النهي السلبية:

---

(١) يراجع بتوسع كتاب «نظرية الإسلام الخلقية» لأبي الأعلىٰ المودودي. وفصل «نظام أخلاقي» في كتاب: «نحو مجتمع إسلامي» لسيد قطب.

﴿ويَا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ [هود: ٨٥]..

وإيفاء الكيل والميزان أقوىٰ من عدم نقصهما، لأنَّه أقرب إلى جانب الزيادة.

وللعبارات ظل في الحس. وظل الإيفاء غير ظل عدم النقص، فهو أكثر سماحة[1] ووفاء.

وهكذا بدأ شعيب دعوته بما بدأ به كل رسول من أصل العقيدة، والتعفف عن الأجر: ﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتَّقون. إنِّي لكم رسول أمين. فاتَّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلَّا على رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٧٧ ـ ١٨٠]..

ثمَّ أخذ يواجه قومه بما هو من خاصة شأنهم: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣]..

وقد كان شأنهم ـ كما تقدّم ـ أن يطففوا في الميزان والمكيال، وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائداً عن حقهم، ويعطوا أقل من حق الناس، ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع. ويبدو أنَّهم كانوا في ممر قوافل التجارة، فكانوا يتحكمون فيها. وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله، لأنَّ العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة. ولا تستطيع أن تفضي عن الحق والعدل في معاملات الناس..

ها هو ذا شعيب ـ عليه السَّلام ـ يبلغ رسالة ربه ﴿قال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره قد جاءتكم بيِّنة من ربكم﴾ [الأعراف: ٨٥].. ولا يذكر القرآن نوع هذه البيِّنة ـ كما ذكرها في قصة صالح ـ ولا

---

(١) عن جابر، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى» رواه البخاري ٤/٢٦٠، وأخرجه الترمذي (١٣٢٠). والسَّمح: السهل. وإذا اقتضى: أي طلب حقه بسهولة.

نعرف لها تحديداً من مواضع القصة. ولكن النص يشير إلى أنَّه كانت هناك بيِّنة جاءهم بها، تثبت دعواه أنَّه مرسل من عند الله. ويرتب على هذه البيِّنة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان، والنهي عن الإفساد في الأرض، والكف عن قطع الطريق على الناس، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذي ارتضوه: **﴿فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون، وتصدون عن سبيل الله من آمن به، وتبغونها عوجاً. .﴾** [الأعراف: ٨٥ ـ ٨٦]. .

ونـدرك من هـذا النهي أنَّ قـوم شعيب، كـانـوا قـومـاً مشـركين لا يعبدون الله وحده، إنَّما يشركون معه عباده في سلطانه، وأنَّهم ما كانوا يرجعون في معاملاتهم إلى شرع الله العادل؛ إنَّما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل ـ ولعلَّ شركهم إنَّما كان في هذه الخصلة ـ وأنَّهم ـ لذلك ـ كانوا سيِّئي المعاملة في البيع والشراء؛ كما كانوا مفسدين في الأرض، يقطعون الطريق على سواهم. ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم، ويصدون عن سبيل الله المستقيم، ويكرهون الاستقامة التي في سبيل الله، ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة، لا تمضي على استقامتها كما هي في منهج الله.

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ [الشعراء: ١٨٣، هود: ٨٥]. .

وهذا أعم من المكيلات والموزونات. فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع. تقويمها كيلاً أو وزناً أو سعراً أو تقديراً. وتقويمها مادياً أو معنوياً. وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات. لأنَّ كلمة «شيء» تطلق أحياناً ويراد بها غير المحسوسات.

وبخس الناس أشياءهم ـ فوق أنَّه ظلم ـ يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد، أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير. وكلها

مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر، ولا تبقي على شيء صالح في الحياة.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [الشعراء: ١٨٣، هود: ٨٥]..

والعثو هو الإفساد، فلا تفسدوا متعمدين الإفساد، قاصدين إلى تحقيقه. ثمَّ يوقظ وجدانهم إلى خير أبقىٰ من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال وبخس الناس أشياءهم في التقدير:

﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [هود: ٨٦]..

فما عند الله أبقىٰ وأفضل.. وقد دعاهم في أول حديثه إلى عبادة الله وحده ـ أي الدينونة له بلا شريك ـ فهو يذكرهم بها هنا، مع ذكر الخير الباقي لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم، واتبعوا نصيحته في المعاملات. وهي فرع من ذلك الإيمان. ثمَّ يخلِّي بينهم وبين الله الذي دعاهم إليه، ويبيِّن لهم أنَّه هو لا يملك لهم شيئاً، كما أنَّه ليس موكلاً بحفظهم من الشر والعذاب. وليس موكلاً كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولاً عنهم إن هم ضلوا، إنَّما عليه البلاغ وقد أداه: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [هود: ٨٦]..

ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر، وبثقل التبعة، ويقفهم وجهاً لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ.

ثمَّ استجاش شعيب مشاعر التقوىٰ في نفوسهم، وهو يذكرهم بخالقهم الواحد. خالق الأجيال كلها والسابقين جميعاً ﴿واتَّقوا الذي خلقكم والجبلة الأوَّلين﴾ [الشعراء: ١٨٤]..

الردّ الساخر والتبجح السافر:

فما كان منهم إلَّا أن يطلقوا على رسول الله الاتهام بأنَّه مسحور، فهو يخلط ويهذي بما يقول: ﴿قالوا: إنَّما أنت من المسحرين﴾ [الشعراء: ١٨٥]..

وإلاَّ أن يستنكروا رسالته. فهو بشر مثلهم، وما هكـذا في زعمهم ـ يكون الرسول. ويرمونه بالكذب فيما يقول: ﴿**وما أنت إلاَّ بشر مثلنا. وإن نظنك لمن الكاذبين**﴾ [الشعراء: ١٨٦].

لقد كان هذا ردّ القوم على دعوة رسولهم شعيب ـ عليه السَّلام ـ الذي أمـرهم أن يعبدوا الله وحـده فليس لهم من إلـه غيره، وحثّهم على هـذا الإيمان، فقد جاءتهم المعجزة الدالة على صدقه.

وبعد أمرهم بالتوحيد نجد شعيباً ـ عليه السَّلام ـ يدعوهم إلى النظافة في علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، فكان أول ما أمرهم به بعد التوحيد هو إيفاء الكيل، وإيفاء الوزن بكل قسط وعدل، ثمَّ ينهاهم بعد ذلك عن أن يبخسوا الناس حقوقهم، وهي خصلة لا تقل عن سابقتها سوءاً، ثمَّ ينهاهم بعـد ذلك أن يـظهروا في الأرض الفسـاد، وبعد هـذه الخصال الأربـع: الشرك بالله، والتطفيف، وبخس الحق، والإفساد في الأرض، نهاهم عن خصلة خامسة خطرة لا تقل خطراً عن سابقاتها، فإذا كانت الخصال السابقة تـتعلق بالأمور المادية، فإنَّ هذه تـتصل بجانب آخر من جوانب الحياة، وهو الجانب الفكري والروحي. فلقد كانوا لا يدعون أي ثغرة، أو أي طريق إلاَّ ويقعدون به لإغواء الناس، يوعدونهم، ويخوفونهم، ويصدونهم عن الحق، وهم يشككون فيه.

ووقف قـوم شعيب من تلك الدعـوة الكـريمـة الهـادفـة إلى الخيـر والإصـلاح، موقف السخـريـة والاستهـزاء والتهكم والازدراء، واستخفـوا برسولهم وعبادته، فقد كان القوم قد عتوا ومردوا على الانحـراف والفساد وسوء الاستغلال:

﴿**قالوا: يَـا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟! إنَّك لأنت الحليم الرشيد!**﴾ [هود: ٨٧].

وهو ردّ واضح التهكم، بيِّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه. وإن

كانت سخرية الجاهل المطموس، والمعاند بلا معرفة ولا فقه.

فهم لا يدركون ـ أو لا يريدون أن يدركوا ـ أنَّ الصلاة هي من مقتضيات العقيدة، ومن صور العبودية والدينونة. وأنَّ العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم، كما أنَّها لا تقوم إلَّا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شؤون الحياة والتعامل. فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة.

وقبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة. وارتباطهما معاً بالمعاملات. . قبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين، يحسن أن نذكر أنَّ الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب. وأنَّ الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكىٰ ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولىٰ! وأنَّ الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها ـ نما فيها أولئك الذين يقولون: إنَّهم يهود أو نصارى أو مسلمون ـ فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر. والشريعة والتعامل. فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله، ووفق أمر غيره. . وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله. .

وإن كان لا يفوتنا أنَّ اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم ـ وذلك بغض النظر عمَّا في هذه العقيدة من انحراف، وما في هذه الشريعة من تحريف ـ فلقد قامت أزمة في «الكنيست» مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أنَّ باخرة إسرائيلية تقدم ـ لركابها من غير اليهود ـ أطعمة غير شرعية. وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده ـ مهما تعرضت للخسارة ـ فأين من يدعون أنفسهم «مسلمين!» من هذا الاستمساك بالدين؟!!

إنَّ بيننا اليوم ـ ممَّن يقولون: إنَّهم مسلمون! ـ من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية. وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم. يتساءلون أولاً في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطىء؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله «المتحضرون»؟!

فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين: **﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟﴾**..

وهم يتساءلون ثانياً. بل ينكرون بشدة وعنف، أن يدخل الدين في الاقتصاد؛ وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد.. فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنَّهم يتبجحون بأنَّ الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده. وينكرون على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية ـ النظرية الأخلاقية مثلاً ـ ويعدونها تخليطاً من أيام زمان!

فلا يذهبنَّ بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأُولىٰ. ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة، ولكنها تدَّعي العلم والمعرفة والحضارة، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله، والسلوك الشخصي في الحياة، والمعاملات المادية في السوق.. تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!!!

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب، ثمَّ تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض. فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد. والشرك ألوان. منه هذا اللون الذي نعيش

به الآن. وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان!

ويسخر أهل مدين من شعيب ـ كما يتوقح بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق ـ فيقولون:

﴿إنَّك لأنت الحليم الرشيد!﴾ [هود: ٨٧]..

وهم يعنون عكس معناها. فالحلم والرشد عندهم أن يعبكوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!!

ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم.. يتلطف في إشعارهم أنَّه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه؛ وأنَّه على ثقة ممَّا يقول لأنَّه أوتي من العلم ما لم يؤتوا، وأنَّه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنَّه مثلهم ذو مال وذو معاملات؛ فهو لا يبغي كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم؛ فلن ينهاهم عن شيء ثمَّ يفعله هو لتخلو له السوق! إنَّما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس. وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون: ﴿قال: يَا قوم...﴾ [هود: ٨٨]..

في تودد وتقرب، وتذكير بالأواصر القريبة.

﴿أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربِّي﴾ [هود: ٨٨]..

أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنَّه يوحي إلي ويأمرني بما أُبلغكم إياه. وعن هذه البينة الواضحة في نفسي، أصدر واثقاً مستيقناً.

﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ [هود: ٨٨]..

ومنه الثروة التى أتعامل مع الناس مثلكم فيها.

﴿وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ [هود: ٨٨]..

فأنهاكم ثمَّ أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه لأُحقق لنفسي نفعاً به!

﴿إن أُريد إلاَّ الإصلاح ما استطعت﴾ [هود: ٨٨]..

الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وعلى كل جماعة فيه؛ وإن خيل إلى بعضهم أنَّ اتباع العقيدة والخُلُق يفوت بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص. فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة؛ ويعوض عنهما كسباً طيباً ورزقاً حلالاً، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام!

﴿وما توفيقي إلاَّ بالله﴾ [هود: ٨٨]..

فهو القادر على إنجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي، وبما يجزي على جهدي.

﴿عليه توكَّلت وإليه أُنيب﴾ [هود: ٨٨]. عليه وحده لا أعتمدهعلى غيره.

وإليه وحده أرجع فيما يحزبني من الأُمور، وإليه وحده أتوجه بنيتي وعملي ومسعاي.

ثمَّ يأخذ بهم في واد آخر من التذكير، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط:

فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير:

﴿ويَا قوم لا يجرمنَّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح. وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ [هود: ٨٩].

لا يحملنَّكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في

التكذيب والمخالفة، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم. وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان. وقريب كذلك في الزمان. فمدين كانت بين الحجاز والشام.

ثمَّ يفتح لهم - وهم في مواجهة العذاب والهلاك - باب المغفرة والتوبة، ويطمعهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها: **﴿واستغفروا ربكم ثمَّ توبوا إليه، إنَّ ربي رحيم ودود﴾** [هود: ٩٠]..

وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع، لعلَّ قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين.

ولكنَّ القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب، ومن سوء تقدير القيم في الحياة، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب:

﴿قالوا: يَا شعيب ما نفقه كثيراً ممَّا تقول﴾ [هود: ٩١]..

فهم ضيِّقو الصدور بالحق الواضح، لا يريدون أن يدركوه. وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة: **﴿وإنَّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك﴾** [هود: ٩١]..

فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها.. ففي حسابهم عصبية العشيرة، لا عصبية الاعتقاد، وصلة الدم لا صلة القلب. ثمَّ هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب.

﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ [هود: ٩١]..

لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر. ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة!

وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية؛ فإنَّها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا؛ فلا ترىٰ حرمة يومئذٍ

لدعوة كريمة، ولا لحقيقة كبيرة؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلاَّ أن تكون له عصبة تؤويه؛ وإلاَّ أن تكون معه قوة مادية تحميه. أمَّا حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية.

وعندئذٍ تأخذ شعيباً الغيرة على جلال ربه ووقاره؛ فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه؛ ويجابههم بسوء التقدير لحقيقة القوىٰ القائمة في هذا الوجود، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون. ويلقي كلمته الفاصلة الأخيرة. ويفاصل قومه على أساس العقيدة، ويخلي بينهم وبين الله، وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم، ويدعهم لمصيرهم الذي يختارون:

﴿قال: يَا قوم: أرهطي أعزُّ عليكم من الله؟﴾ [هود: ٩٢]..

أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس، وهم ضعاف، وهم عباد من عباد الله.. أهؤلاء أعزُّ عليكم من الله؟.. أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من الله؟

﴿واتَّخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ [هود: ٩٢]..

وهي صورة حسية للترك والإعراض، تزيد في شناعة فعلتهم، وهم يتركون الله ويعرضون عنه، وهم من خلقه، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه. فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير.

﴿إنَّ ربِّي بما تعملون محيط﴾ [هود: ٩٢]..

والإحاطة أقصىٰ الصور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه.

قوة الحق ورسوخ العقيدة:

إنَّها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله ـ سبحانه ـ ووقاره. الغضبة التي لا يقوم إلى جوارها شيء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه..

إنَّ شعيباً لم ينتفخ ولم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذي يريدونه! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه ـ الذين افترق طريقهم عن طريقه ـ وهذا هو الإيمان في حقيقته. . إنَّ المؤمن لا يعتز إلاَّ بربه، ولا يرضىٰ أن تكون له عصبة تخشىٰ ولا يُخشىٰ ربه! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه، إنَّما هي لربه ودينه. وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته!

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم، ولا يقعدوا لهم بكل صراط، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل، مهددين لهم موعدين. وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين. إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين:

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفة لم يؤمنوا، فاصبروا حتّىٰ يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين﴾ [الأعراف: ٨٧]. . لقد دعاهم إلى أعدل خطة. ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة. . نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذىٰ، وترك كلٍّ وما اعتنق من دين، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت. . إنَّ وجود جماعة مسلمة في الأرض، لا تدين إلاَّ لله، ولا تعترف بسلطان إلاَّ سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلاَّ شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلاَّ منهجه. . إنَّ وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت ـ حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده.

إنَّ الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة ـ حتى لو آثرت هي ألاَّ تخوض معه المعركة ـ إنَّ وجود الحق في ذاته يزعج الباطل.

وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل.. إنَّها سنة الله لا بد أن تجري.. ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنَّك يَا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودنَّ في ملَّتنا﴾ [الأعراف: ٨٨].. هكذا في تبجح سافر، وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش!

إلا أنَّ قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد..

لقد وقف شعيب ـ عليه السَّلام ـ عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة.. نقطة المسالمة والتعايش ـ على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة، وأن يدين للسلطان الذي يشاء: في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين ـ وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت.. وإلَّا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه.. فلمَّا أن تلقىٰ الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم، صدع شعيب بالحق، مستمسكاً بملته، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:

﴿قال: أَوَلَوْ كنَّا كارهين؟ قد افترينا على ا كذباً إن عدنا في ملَّتكم بعد إذ نجَّانا الله منها..﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]..

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلىٰ طبيعة الإيمان، ومذاقه في نفوس أهله، كما تتجلىٰ طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه.. كذلك نشهد اي قلب الرسول ذلك المشهد الرائع.. مشهد الحقيقة الإلـٰهية في ذلك القلب وكيف تتجلىٰ فيه:

﴿قال: أَوَلَوْ كنَّا كارهين؟﴾..

يستنكر تلك القولة الفاجرة: ﴿لنخرجنَّك يَا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملَّتنا﴾...

يقول لهم: أتجبرونا على ما نكره من ملَّتكم التي نجَّانا الله منها؟!

﴿قد افترينا على الله كذباً إنَّ عدنا في ملَّتكم بعد إذ نجَّانا الله منها﴾ [الأعراف: ٨٩]. .

إنَّ الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله. . إنَّ الذي يعود إلى هذه الملة ـ بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق، وهداه إلى الحق، وأنقذه من العبودية للعبيد ـ إنَّما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه بشهادة مؤداها أنَّه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت! أو مؤداها ـ على الأقل ـ أنَّ لملة الطاغوت حقاً في الوجود، وشرعية في السلطان؛ وأنَّ وجودها لا يتنافىٰ مع الإيمان بالله. فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله. .

وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدىٰ، ولم يرفع راية الإسلام. شهادة الاعتراف براية الطغيان. ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة!

وكذلك يستنكر شعيب ـ عليه السَّلام ـ ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملّة التي أنجاهم الله منها: **﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾** [الأعراف: ٨٩]. .

وما من شأننا أصلًا، وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها. . يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة، التي تعلن خروجها عن سلطانه، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه.

إنَّ تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده ـ مهما عظمت وشقَّت ـ أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إنَّ تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة ـ مهما لاحَ فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! ـ إنَّها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته. فهذه «الإنسانية» لا توجد، والإنسان عبد للإنسان ـ

وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان! . . وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به، ورضاه أو غضبه عليه؟! وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوىٰ إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

على أنَّ الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة. . إنَّه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس ـ في حكم الطواغيت ـ أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج. كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات. فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم على مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثمَّ يكلفهم أعراضهم في النهاية. . حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة الغصب المباشر ـ كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ ـ أو في صورة تنشئتهنَّ على تصورات ومفاهيم تجعلهنَّ نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لمهنَّ الدعارة والفجور تحت أي ستار. .

والذي يتصور أنَّه ينحو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه في حكم الطواغيت من دون الله. إنَّما يعيش في وَهْم، أو يفقد الإحساس بالواقع!

إنَّ عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال. . ومهما تكن تكاليف العبودية لله، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة. فضلاً على وزنها في ميزان الله. .

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب «الأُسس الأخلاقية للحركة الإسلامية»:

«. . . وكل من له بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية، لا يخفىٰ عليه أنَّ

المسألة ـ التي تـتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها ـ إنَّما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها. وذلك كما تشاهد في القطار أنَّه لا يجري إلاَّ إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه، وأنَّه لا بد للركاب أن يسافروا ـ طوعاً أو كرهاً ـ إلى تلك الجهة نفسها. فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلاَّ إلى جهة يوجهه إليها مَن بأيديهم زمام أمر تلك المدنية. ومن الظاهر البيِّن أنَّ الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبىٰ السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر، وبيـدهم السلطة المطلقة في تـدبير شؤون الإنسـانية، وتـتعلق بـأذيالهم نفـوس الجماهيـر وآمالهـم، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية، وإنشاء النظام الجماعي، وتحديد القيم الخلقية. فإذا كان هؤلاء الزعمـاء والقواد ممَّن يؤمنـون بالله ويرجون حسابه. . فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشـد والصـلاح، وأن يعود الخبثـاء الأشرار إلى كنف الـدين ويُصلحوا شؤونهم. وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غرامها، وأقل ما يكـون من تأثيـر المجتمع في السيئات أنَّها لا تربو. إن لم تمحق وتنقرض آثارها.

وأمَّا إذا كانت هذه السلطة ـ سلطة الزعامة والقيادة والإمامة ـ بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله، واتَّبعوا الشهـوات، وانغمسوا في الفجـور والـطغيان، فـلا محالـة أن يسير نـظام الحياة بقضِّـه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء، ويدب دبيب الفساد والفوضىٰ في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمَّتها، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها. . . ».

. . . «والظاهر أنَّ أول ما يطالب به دين الله عباده، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد، حتى لا يبقىٰ في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالىٰ. ثم يتطلَّب منهم ألاَّ يكون لحياتهم

قانون إلاَّ ما أنزله الله تعالىٰ، وجاء به الرسول الأُمِّي الكريم ﷺ ثمَّ إنَّ الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غَضَبَ الله وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلاَّ أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم، يذكرون الله قابعين في زواياهم، منقطعين عن الدنيا وشؤونها، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات!

ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجْعلها من غايات الدين وأُسسه. والحق أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضىٰ الله تعالىٰ بأي عمل من أعماله إذا تناسىٰ هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها. ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة، حتى إنَّ الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة ـ ولو قيد شعرة ـ وإن صام وصلّىٰ وزعم أنَّه مسلم. وهل لذلك من سبب سوىٰ أنَّ غرض الدين الحقيقي وهدفه إنَّما هو إقامة نظام الحق، والإمامة الراشدة، وتوطيد دعائمه في الأرض. وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية، والذي يضعضع القوة الجماعية ويفتت في عضدها، ـ يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد.. ثمَّ انظروا إلى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين، حتى إنَّ القرآن ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون ويثَّاقلون إلى الأرض: ذلك أنَّ « الجهاد » هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق، ليس غير. وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين. وبعبارة أُخرىٰ أنَّه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضىٰ بتسلط النظام الباطل، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق.. فكل من يبدو في أعماله شيء من

الضعف والاستكانة في هذا الباب، فاعلم أنَّه مدخول في إيمانه، مرتاب في أمره، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟»...

... «إنَّ إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام. فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام، ولا تبرأ ذمَّته من ذلك فحسب، بل يلزمه بمقتضىٰ ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممَّن يتَّقون الله، ويرجون حسابه، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها»[1].

إنَّ الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر وردّه كله لله، إنَّما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد؛ كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوىٰ الطواغيت وشهواتهم.. إنَّه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت ـ تحت رايته ـ بكل ما فيها من تضحيات؛ ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول، كما أنَّها أذل وأحقر! إنَّه يدعوهم للكرامة، وللسلامة، في آن:

لذلك قالها شعيب ـ عليه السَّلام ـ مدوية حاسمة:

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملَّتكم بعد إذ نجَّانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ [الأعراف: ٨٩]..

ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه، وبقدر ما يرفع صوته، في مواجهة طواغيت البشر الذين استكبروا من قومه.. بقدر ما يخفض هامته، ويسلم

---

(١) مقتطفات من كتاب «الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية» للسيد أبي الأعلىٰ المودودي رحمه الله، أمير الجماعة الإسلامية في باكستان.

وجهه في مواجهة ربه الجليل، الذي وسع كل شيء علماً. فهو في مواجهة ربه، لا يتألىٰ عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره، ويدع له قياده وزمامه، ويعلن خضوعه واستسلامه:

﴿إلاَّ أن يشاء ربنا، وسع ربنا كل شيء علماً﴾ [الأعراف: ٨٩]..

إنَّه يفوض الأمر لله ربه، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه.. إنَّه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت، من العودة في ملتهم؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته.. ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم.. فالأمر موكول إلى هذه المشيئة، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون، وربهم وسع كل شي علماً. فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.

إنَّه أدب ولي الله مع الله، الأدب الذي يلتزم به، ثم لا يتألىٰ بعد ذلك على مشيئته وقدره. ولا يتأبّىٰ على شيء يريده به ويقدره عليه. وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم و عيدهم، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق:

﴿على الله توكلنا. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق. وأنت خير الفاتحين﴾ [الأعراف: ٨٩]..

وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر: مشهد تجلي حقيقة «الألوهية» في نفس ولي الله ونبيه..

إنَّه يعرف مصدر القوة، وملجأ الأمان، ويعلم أنَّ ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان. ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه، والتي ليس منها مفر. إلاَّ بفتح من ربه ونصر.

عندئذٍ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم

ويهددونهم. ليفتنوهم عن دينهم:

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه: لئن اتَّبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٠]..

إنَّها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير.. إنَّ الطواغيت يتوجهون إلى الداعية أولاً ليكف عن الدعوة. فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته، ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل.. تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد، ثمَّ بالبطش والإرهاب، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم ـ وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل ـ ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرِّين على الإيمان، الذين أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان.

بين الإيمان والطغيان:

وبعد.. فقد دعا شعيب قومه بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، وتلطف في كلامه، وآثر استمالتهم باللين، ولكنَّ القوم اندفعوا في غيِّهم، وتوجهوا إلى الذين آمنوا معه يريدون إغوائهم، توجهوا إليهم منذرين محذِّرين بأنَّهم إن اتبعوا شعيباً فسيكونون من الأخسرين، سيخسرون المال والجاه وغيرهما من الحقوق..

ثمَّ أدرك النبي الصابر أن لا سبيل لهداية القلوب القاسية الفظَّة الجاسية.. ها هو ذا شعيب ـ عليه السَّلام ـ يثور لدينه، ويقوم غضبه لله. والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه.. ومن هذا الموقف ينبعث التحدي الواثق الذي يوجهه شعيب إلى قومه وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم ـ بعد أن كان واحداً منهم ـ ويفترق الطريقان فلا يلتقيان: **﴿ويَا قوم اعملوا على مكانتكم إنِّي عامل﴾**.. وامضوا في طريقكم وخطتكم، فقد نفضت يديَّ منكم.. وإنِّي عامل على طريقتي ومنهجي.

﴿سوف تعلمون من يأتيه عـذاب يُخزيـه ومن هو كـاذب﴾ [هود: ٩٣]. .

أنا أم أنتم؟

﴿وارتقبوا إنِّي معكم رقيب﴾ [هود: ٩٣]. .

للعاقبة التي تنتظرني وتنتظركم. . وفي هذا التهديد ما يـوحي بثقته بالمصير. كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق. .

ورغم هـذا البيان الجـازم الحاسم، إلَّا أنَّ القـوم يمعنون في الغي ويـزدادون عتوّاً وعلوّاً واستكبـاراً؛ وتمادوا في ظلم النـاس، والقسـوة في معاملتهم، وأصرُّوا على عنـادهم وشركهم وفسـادهم العريض، بـل إنَّهم تحدُّوا رسولهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقاً فيما يدَّعيه؛ وأن يسقط عليهم رجوماً من السماء، أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعاً: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنتَ من الصادقين﴾ [الشعراء: ١٨٧]. .

وهو تحدي المستهتر الهازىء المستهين! وهو شبيه بتحدي المشركين للرسول الكريم.

ومن سنة الله الجارية أن يتمحض الحق والباطل، ويقفان وجهاً لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تـتخلف. . وهكذا كان. .

﴿قال ربِّي أعلم بما تعملون﴾. .

،ويسـدل الستار هنـا على هذه الكلمـة الأخيرة الفـاصلة، وعلى هـذا الافتراق والمفاصلة، ليرفع هناك على مصرع القوم ﴿. . فكذَّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلّة. إنَّه كان عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٨٩]. .

لقد جرت سنـة الله التي لا تـتخلف، ولن تجد لسنـة الله تبديـلاً، فجازاهم الله على بغيهم وظلمهم بالوبال والنكال، وكان ذلك العذاب نتيجة حتمية لما وقع منهم من ضلال وعناد، واستهتار وإفساد، وظلم للعباد. كما

كان جزاءً وفاقاً لتحديهم رسول الله بأن ينزل عليهم ما توعدهم به من العذاب.

قيل: أخذهم حرٌّ خانق شديد يكتم الأنفاس ويثقل الصدور، فلم يروي ظمأهم شيء، ولم يقيهم منزل ولا ظل ففروا هاربين من ديارهم إلى البرية يلتمسون النجاة ممَّا أصابهم. ثمَّ تراءت لهم سحابة، فاستظلُّوا بها، واجتمعوا تحتها لتحميهم من قيظ الحر؛ فوجدوا لها برداً، وما كاد عددهم يتكامل تحت ظلها حتى رمتهم السحابة بشرر من نار ولهب، ثمَّ إذا هي الصاعقة المجلجلة المدوية تفزعهم وتدمرهم تدميراً.

وكان ذلك «يوم الظلة» فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم!

وهكذا انتهى أمرهم إلى تكذيب رسولهم، وأخذهم بالهلاك والتدمير، على سنة الله في أخذ المكذبين.. فأخذتهم الرجفة التي زلزلت عليهم بلادهم ورجتها بعد الصيحة المدوية التي أسقطت قلوبهم وتركتهم مصعوقين، حيث كانوا في دارهم لا يتحركون.. فأصبحوا فيها جاثمين. جزاء بما كانوا يروعون الناس وهم يخرجون عليهم مغيرين صائحين! لقد أهلك الله الملأ الذين استكبروا من قوم شعيب.

ها هو ذا الستار الختامي يرفع على مصرعهم، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم، خلت منهم الدور، كأن لم يكن لهم فيها دور، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر. مضوا مثلهم مشيعين باللعنة، طويت صفحتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب: **﴿ولمَّا جاء أمرنا نجَّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يَغْنَوْا فيها. ألا بُعْداً لمدين كما بعدت ثمود﴾** [هود: ٩٤، ٩٥]..

وهكذا جاء أمْر الله وحَقَّ بالقوم عذاب يوم عظيم **﴿فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾** [الأعراف: ٩١].. جاثمين على ركبهم

خامدين، كأن لم يقيموا فيها بالأمس. . الرجفة والجثوم، جزاء التهديد والاستطالة، وبسط الأيدي بالأذىٰ والفتنة.

ويرد القرآن على قولتهم: ﴿**لئن اتَّبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرون**﴾ [الأعراف: ٩٠]. . وهي التي قالوها مهددين متوعِّدين للمؤمنين بالخسارة! فيقرر - في تهكم واضح - أنَّ الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً، إنَّما كان من نصيب قوم آخرين ﴿**الذين كذَّبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها. الذين كذَّبوا شعيباً هم الخاسرين**﴾ [الأعراف: ٩٢]. .

ففي ومضة ها نحن أُولاء نراهم في دارهم جاثمين. لا حياة ولا حراك. كأن لم يعمروا هذه الدار، وكأن لم يكن لهم فيها آثار! ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال، والمفارقة والانفصال، من رسولهم الذي كان أخاهم، ثمَّ افترق طريقه عن طريقهم، فافترق مصيره عن مصيرهم، حتى لم يعد يأسىٰ على مصيرهم الأليم، وعلى ضيعتهم في الغابرين:

﴿**فتولىٰ عنهم، وقال: يَا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم، فكيف آسىٰ على قوم كافرين؟**﴾ [الأعراف: ٩٣]. .

إنَّه من مِلَّة وهم من ملة. فهو أُمة وهم أُمة. أمَّا صلة الأنساب والأقوام، فلا اعتبار لها في هذا الدين، ولا وزن لها في ميزان الله. فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين، والارتباط بين الناس إنَّما يكون في حبل الله المتين. .

وطويت صفحة أُخرىٰ من الصفحات السود، حقَّ فيها الوعيد على من كذَّبوا بالوعيد ﴿**كذَّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسِّ وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تُبَّع. كلٌ كذَّب الرسل فحقَّ وعيد**﴾ [قٓ: ١٢ - ١٤]. .

والرس: البئر: المطوية غير المبنية. والأيكة: الشجر الملتف

الكثيف. وأصحاب الأيكة هم ـ في الغالب ـ قوم شعيب. أمَّا أصحاب الرسّ فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة. وكذلك قوم تُبَّع. وتُبَّع لقب لملوك حمير باليمن. وبقية الأقوام المشار إليهم معروفون لقارىء القرآن.

ثمَّ يجيء التعقيب: ﴿**إنَّ في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنَّ ربك لهو العزيز الرَّحيم**﴾ [الشعراء: ١٩٠، ١٩١]. .

وتلتمس العبرة من خلال قصة شعيب. . العبرة التي تلتمس دوماً من قصص الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه. فهي ترسم صورة واضحة لثمرة الصبر والإيمان. وكيف ينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون: ﴿**ولمَّا جاء أمرنا نجَّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا**﴾ [هود: ٩٤]. .

كذلك تؤكد على عاقبة الظلم والطغيان: ﴿**الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين**﴾ [الأعراف: ٩٢]. .

يقول الشيخ الدكتور فضل عباس عن دعوة شعيب ـ عليه السَّلام ـ: (. . . والقضية التي كان يعالجها في قومه مع قضية التوحيد من أكثر القضايا عُسراً وصعوبة؛ إنَّها قضية المال الذي طُبعت النفوس على حبه). لذلك نجد أنَّ هذه القضية قد أخذت مساحة غير قليلة من دعوته؛ ومن هنا اشتدَّ إنكارهم عليه، ونيلهم منه فهم لا يفقهون ما يقول، كيف وقد أراد أن يقيدهم في التصرف بهذه الأموال حسب قواعد رشيدة، ومبادىء سديدة؛ لذلك لم يحل بينهم وبين رجمه ـ في زعمهم ـ إلاَّ رهطه وجماعته.

والحق أنَّ قضية المال من أشق وأشد القضايا التي تحتاج معالجتها إلى حكمة ولطف؛ لذا إن لم تكن النفوس قد أضاءت جوانبها العقيدة الصحيحة، فمن الصعب بل من المحال أن تكون هناك استجابة لأصوات المصلحين مهما ارتفعت. .

. . . إنَّ أصحاب الباطل يعز عليهم أن يجدوا من يجادلهم في

باطلهم. وكذلك كان قوم شعيب؛ لذلك عملوا جاهدين على أن يردوا شعيباً، ومن آمن معه إلى ملتهم تارة نالوعيد **﴿لنخرجنَّك يَا شعيب، والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودنَّ في ملَّتنا﴾** [الأعراف: ٨٨]، وتارة بالإغراء: **﴿لئن اتَّبعتم شعيباً إنَّكم إذن لخاسرون﴾** [الأعراف: ٩٠].. ستخسرون الكثير من مال، وجاه، ومنصب، وعز وفخر. ولكن شعيباً ـ عليه السَّلام ـ، وأمام هذه الوسائل المختلفة يحث من آمن معه على الصبر حتى يحكم الله بين الفريقين، ويحكم الله بينهم، ويُنجي شعيباً والذين آمنوا معه..»[1]..

وهكذا طويت صفحة من صحائف المكذِّبين المفسدين. فَبُعداً للقوم الظَّالمين.. **﴿كأن لم يغنوا فيها ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾** [هود: ٩٥]..

(١) القصص القرآني: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

فهرس الموضوعات

(قصة ابراهيم -عليه السلام)

- الحلقة الأولى ٩
الرحلة الشائعة في فطرة إبراهيم ١٥
برّ وودّ ورحمة ٢٣
مثل وتجربة ٣٠
تجربة وعقيدة وتربية ٣٥
آية للناس ٤١
الشوق الروحي ٤٦
دعوة إبراهيم إلى العقيدة المستقيمة الناصعة ٥٠
عزم وحسم ٥٨
المحاكمة والكيد الضعيف ٦٤
- الحلقة الثانية ٧١
الهجرة إلى الله ٧١
حقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم ٧٥
بشرىٰ ورحمة واطمئنان ٨٢
المقام العظيم وإمام الصراط المستقيم ٩٢
حجج واهية ودعاوى ساقطة ١٠٥

أمَّة التوحيد وقافلة الإيمان ١١٥
معالم في رحلة الإيمان والتوحيد ١٢٣
الإعجاز الرائع ١٢٩
إبراهيم وأبوه يوم القيامة ١٣٧

(قصة لوط - عليه السلام)

تقديم ١٤٧
انحراف وشذوذ ١٤٩
سفاهة وحمق ١٥٦
يوم عصيب ١٦١
الركن الشديد ١٦٥
العذاب المفزع والهلاك المروع ١٦٩

(قصة اسماعيل-عليه السلام)

تقديم ١٧٩
الاستسلام لأمر الله ١٨٠
ثقة ورضىً وتسليم ١٩٢

(قصة يوسف - عليه السلام)

تقديم ٢٠٣
أمل وأنس وتطمين ٢٠٤
ـ الحلقة الأولىٰ ٢٠٨
يوسف الصبي ٢٠٨
حسد وحقد ٢١٢
خِداع ومكر ٢١٤
المحنة الأولى - المؤامرة النكراء ٢١٦
مواجهة الوالد المفجوع ٢١٧

يوسف في الجب ٢١٨
- **الحلقة الثانية** ٢١٩
يوسف في مصر ٢١٩
المحنة الثانية - فتنة شديدة وعنيفة ٢٢٢
حديث النساء ٢٣٠
إغراء وتهديد ٢٣١
- **الحلقة الثالثة - المحنة الثالثة** ٢٣٤
يوسف في السجن - دعوة، وموعظة، وتوحيد ٢٣٤
رؤيا الملك ٢٤٤
فتوىٰ، وتأويل الرؤيا ٢٤٥
- **الحلقة الرابعة** ٢٤٧
إعلان براءة يوسف وظهور الحق ٢٤٧
تمكين وتكريم ٢٥٤
شبهة وبيان ٢٥٦
- **الحلقة الخامسة** ٢٧٢
وجاء إخوة يوسف ٢٧٢
بين يعقوب وأبنائه ٢٧٦
وصية يعقوب ٢٧٨
مشهد مثير ٢٨١
حرج وحيرة ٢٨٨
النبأ الفظيع والثقة بالله ٢٩٠
- **الحلقة السادسة** ٢٩٦
مفاجأة عجيبة ٢٩٦
أمل ويقين ٢٩٩

- الحلقة السابعة ٣٠١
المشهد المثير والنهائي ٣٠١
اللفتات واللمسات الموحية ٣٠٣
عبرة ومصير ٣١١
صورة رهيبة ٣١٢
الطبيعة الحركية للقصة وأثرها في التربية الإسلامية ٣١٥
سُنَّة الله وقدره ٣٢٠
النموذج الكامل لمنهج الإسلام ٣٢٥
في ظلال الفترة التاريخية ٣٤١
من لطائف التناسق القرآني في قصة يوسف ٣٤٧
الإيقاع الأخير ٣٥١
صبر وجهاد وثقة وتفاؤل ٣٥٤

(قصة شعيب - عليه السلام)

تقديم ٣٥٩
التشريع الإلـهي والتصور الأخلاقي ٣٦٣
الرد الساخر والتبجح السافر ٣٦٧
قوة الحق ورسوخ العقيدة ٣٧٤
بين الإيمان والطغيان ٣٨٣